عبقرية العقاد

عبقرية العقاد

بقلم: عبد الفتاح الديدي

إستهلال

لا أنكر أننى احببت العقاد · فمن وجد فى هذه الصفحات عاطفة تغلب على النظرة الموضوعية البحتة استطاع أن يلتمس لى العذر فيما كتبت · ومع ذلك فاننى أعترف بمقاومتى الدائمة لهذه العاطفة فى كل لحظة ·

بل لا أحسبنى الا مواظبا على ما كان يسميه « شقاوة التلاميذ » فى أسلوب كلامنا معه ومداعبتنا اياه كأنه لا يزال حيا بيننا ·

ولا يزال فكر العقاد وأدبه وكلامه فى أذهاننا شبيها بضوء الشمس الساطع فى العيون · واذا كان يحلو لى هنا أن أختط شعاعا من أشعة فكره فى غمار ضوئه القوى اللامع فلا غرو أن تعشى عيناى · وسيبدو واضحا ها هنا فى هذا الكتاب اننا لم نقو بعد على الخروج من نطاق أنواره الشاملة لاستخلاص ومضات فكره وبريق عينيه ·

وليس المقصود بهذا الكتاب أن يكون تعريفا كاملا شاملا بشخصية العقاد · حسبه أن يؤدى معنى التحية الى « الاستاذ » · ولهذا القيت أغلب الأضواء على بعض النواحي التى تروقنى فيه · واستخدمت المنحى الذى قد انفرد بالاحساس به من بين جميع من عرفوا العقاد · أعنى أننى تخيرت

بحث الجوانب التى أستطيع الكلام فيها على سجيتى · وقصرت دراستى على مايمكننى أن أستشعره من جوانب فكره وما يمكننى أن أتناوله من الزاوية التى تناسب علاقتى به واستطعامى لفنه ·

فاذا استطعت بأسلوبى الخاص أن أكشف عن المعالم الفكرية والأدبية والروحية في مؤلفاته وكتاباته على نحو ما تشغلنى فقد أصبت المراد بهذا الكتيب · والى أن تسمح الظروف بدراسة أوسع ومبحث أوفى عن أعمال العقاد وحياته ·· أرجو أن يجد أصدقاء العقاد فى هذه الفصول بعض الغناء ·

عبد الفتاح الديدى

عزيزي الأستاذ الديدي

تحية لكم وشكراً على إهدائكم وتشريفكم بما أكتب، وأرى أنكم خير من يترجم لهذه القيم الوجدانية التي لا تقوم هذه الموضوعات بغيرها، وما لم تتحقق لم يتيسر حسابها بالحساب أو المنطق أو وقائع الحس الظاهر، ومن قاسها بهذا القياس فلا جرم يخطئ فيها الخطأ الكبير، ولا خطأ أكبر من مساواة بين الحقائق حيث لا مساواة.

إنني لا أقدر الصواب فيما أكتب عن عبقرية المسيح وما إليها إلا بمقدار القيم الوجدانية، مثلها في ذلك مثل الجمال والحب والبلاغة والأخلاق المثلى، وصورة إنسان جميل ساعة يعرض على الحس ويستوي في السطح بحجم [illegible] ووزنه ودرجة الجمال، ولكنه في درجات القيم يزيد في قيمته على الملايين، ولا يغني عنه كل ما دونه من وجود.

وقد صدرت العقائد كلها [illegible] الأولى في هذا التقدير فيها بالحساب خطأ كبير، ولكنه خطأ لا بد منه لمن يبحث الصحيح وينظر إليه النظر كأنه قضية حسابية أو قضية برهانية، ولا أحسب أنني توخيت في الاستشهاد بآيات من القرآن

الكريم في كتاب عبقرية المسيح غلطاً [illegible] الخطأ الذي يمتنع أعجبها في غيره من الكتب، إلا أن يكون الاستشهاد بينا الآن بالمراد منه [illegible] النظام الإسلامية في بعض الأحوال.

وأرجو أن تكون في خير وفلاح، وأكتب إليك هذا وأنا على أهبة السفر إلى أسوان لأقضي أسبوعين أو ثلاثة فيها، ثم أعود إلى القاهرة قبل الأسبوع الأول من الشهر القادم إن شاء الله.

١٩٥٦/٤/٧

المخلص

عباس العقاد

مقدمة

عندما انتهيت من امتحانات الدراسة الثانوية الأخيرة في صيف ١٩٤٥ قدمني صديقي الأستاذ محمد خليفة التونسي الى الأستاذ العقاد في بيته بمصر الجديدة • وفوجئت بنمط من الرجال لم أعهده • ولعلي أحسست دائما بهذا الاحساس حتى بعد عودتي من أوربا ودراستي فيها على أعلام الفكر من أمثال جاستون باشلاروجان فال وموريس ميرلوبونتي ورينيه بوارييه من الفرنسيين وعلى فونكه ومارتين وساندرز واشتيكمولر من الألمان • وقد تعرفت في أثناء وجودي بباريس على سارتر واستمعت لأحاديثه ومحاضراته وعلى ألبير كامو وعلى سوزان باشلارودوفرين • وعشت في ضواحي باريس عند أسرة كانت تمت بصلة قرابة للكاتبة المشهورة سيمون دي بوفوار واستمتعت بالجلوس اليها مرتين • وفي لندن استمعت الى برتراند رسل والى آير والى فولهايم والى جون ويزدام والى أساتذة الفلسفة في ميرتون كوليج باكسفورد •

ومع ذلك ظللت أحس بأنني أشهد نمطا بعينه لا يتكرر في كل مرة رأيت فيها العقاد حتى أخريات أيامه • والعالم الوحيد الذي أحسست بالشبه الجسمي والعقلي بينه وبين

العقاد هوجان بياجيه أستاذ علم النفس بالسوربون فهما يتقاربان فى كثير من نظرياتهما وفى طريقة معالجتهما للمشاكل وفى عادة الاستطراد وتناول المشاكل من زواياها المختلفة. وكانا يتشابهان ايضا فى اهتماماتهما كما يتشابهان فى اهتمامهما بالأمثلة والشواهد المستقاة من ابواب العلم المتنوعة ومن ميادين الطبيعة وعلم النفس .

وحينما جلست أول مرة وجها لوجه أمام العقاد تبينت لى أشياء أخذت الايام والليالى نفصح عنها أكثر باطراد ، وعندما عدت الى قراءة كتب العقاد بعد هذا اللقاء الأول أحسست بأننى أصبحت أكثر قدرة على ملاحقة أفكاره ومجاراة أسلوبه فى الكتابة . صار العقاد أكثر يسرا بالنسبة الى عند قراءته . ولكننى تبينت مع ذلك استمرار غشاوة من الالهام الفنى خلال سطوره وهو شعور أحسست به فى كلام العقاد قبل أن أراه . لقد استطعت من أول وهلة أن أتعرف فى كتابات العقاد على رجل عبقرى نادر المثال وعلى باحث من طراز فريد . ولكننى لم أعدم أيضا لونا من الالهام يتخلل سطوره ويغشى على طبيعة الباحث العالم المنقب . وحينما رأيت العقاد وتحدثت اليه وناقشته واستفسرت منه وجادلته وشاكسته وأثرته لم يفتنى قط احساس بأنه على حد تعبير ابن الرومى فى حال التيقظ يرنو الى الدنيا بمقلة حالم .

وقد اختط العقاد لنفسه سنة فى حياته تلائم مواهبه وكيانه العقلى. واختص نفسه بما ينسجم انسجاما منطقيا مع روحه وفكره وقلبه . ولم تكن تجربته للحياة الا تجربة انسان مفرد شاء أن يحكم عقله وذوقه فى مجريات الأمور من حوله وأن يعكس احساسه الخاص على مرآة الحياة العامة بالأسلوب الذى يلائم رغبته فى المشاركة فيها دون أن يفقد كرامته أو حريته . ولم يعرف الفكر العربى الحديث رجلا من هذا الطراز الذى يملى مشاعره ويفرض شخصيته ومنحى وجوده على أوساط الأدب والفكر . فهو أول من خرج من مفكرى العرب على لياقات القبيلة واستحدث أسلوب الرجل المتحضر بذوقه وعلمه ومنهاجه . ولم يعرف المجتمع العربى مفكرا لا يقبع بداره وانما يشارك فى أمور السياسة والحكم الى جانب مهنته فى الأدب والشعر والثقافة على نحو ما فعل العقاد . والواقع أن مجتمعنا لم يكن يسمح للكاتب بأن يهبط اليه كما كان يفعل عادة أصحاب الأقلام ممن يستهدفون المشاركة الفعلية فى تطوير الأحداث العامة ويشعرون بمسئوليتهم كمفكرين حيال المشاكل التى يتوقف عليها مستقبل البلاد .

وبهذا كان العقاد سما زعافا فى حلق من يناوئه فى حلبة السياسة وكان حربا عوانا على كل من كانت نفسه تسول له الاستخفاف بالجانب الذى ينحاز اليه الكاتب الجبار • ولم يكن لذلك بالأمر الغريب أن يصادف العقاد منذ فجر حياته أعداء يهاجمونه فى كل حقل ويجرحون شخصه فى كل مجلس وفى كل صحيفة • وكان هو كمن حمل على كتفيه احساسا ضخما بفداحة مسئوليته نحو ما يدور حوله من وقائع السياسة وظروف المعيشة ومشاكل الفكر والثقافة •

شيئان تحس أن العقاد قد بذل حياته كلها من أجل توضيحهما وتقريبهما من أذهان الناس : أولا الشاعرية وثانيا المسئولية • كان العقاد يشبه نبيا من أنبياء الشاعرية والمسئولية • لم تكن تمر مناسبة من أجل التوعية فى هذين المجالين دون أن يستفيد منها • ولم تفت العقاد أية ملاحظة يسوقها بصدد هذين الأمرين دون أن يلتقطها ويدنيها للأفهام •

كان يعلم الشاعرية كأنه نبيها الذى لا يعرف شيئا يعلوها • وحين عرض للشاعرية والتدين معا وضعهما حيث لا يطغى التدين على الشاعرية ولا تفسد الشاعرية مع التدين • وضم اليهما المسئولية فى النهاية كأنه على موعد مع وازع الدين وبواعث الشاعرية من جهة والمسئولية من جهة اخرى . قال فى اللغة الشاعرة (ص ١٠٣ – ١٠٤) :

(والشعر والدين كيف يتفقان ؟

« نعم كيف يتفقان وفي الشعر قسوة نيتشه ورهبانية شوبنهور واباحية ابيقور المفروضة فى التقاليد ؟

« نعم يتفقان وفى الصدر سعة وعلى الثغر ابتسامة • لأن القرآن يصف الشعراء بأنهم « فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون » •

« فللشاعر أن يقول ما يشاء • وللقارىء أن يستريح الى سماعه اذا شاء لأنه لاينظر اليه نظرة المعارض المصادم للدين • وانما ينظر اليه كأنه يتفرج على منظر حسن من مناظر الفنون » •

« ان الايديولوجية الدينية كثيرا ما تصيب النفس الانسانية بما يشبه داء الفصام لأنها لا تقرر لها مكانها بين عالم الطبيعة وعالم ما وراء الطبيعة ولا تقرر لها مكانها بين حق الفرد وحق الجماعة » •

« الا أن الاسلام لا يترك نفس الانسان فى هذا التيه على غير هدى •

ان هذه الدنيا ــ عالم الطبيعة ــ طيبة يجب على الانسان أن يأخذ نصيبه منها • ويأمره القرآن قائلا « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ويأمره الأثر قائلا « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » •

« وحق الفـرد ــ حق الحرية القـــائم على المسئولية ــ يطلق روح الانسان من كل خطيئة ليست في عمله كما تكرر ذلك فى القرآن الكريم غير مرة :

« كل نفس بما كسبت رهينة »

« ولا تزر وازرة وزر أخرى »

« وأن ليس للانسان الا ما سعى »

« وهكذا تستطيع الأيديولوجية من جانبها الديني وجانبها الفنى أن تقيم الانسان على رأس طريق لا ظلام فيه » •

ولا نبالغ اذا قلنا ان العقاد قد صرف حياته كلها فى هذا المنحى ، وتعب الكثيرون فى مناوأته • ولكن فكر العقاد وحيويته التى لا تنفـــد واعتداده الذى لا يرضخ •• كل ذلك قد ساعده على أن يقف وســـط العواصف دون أن يناله منها أذى • واستفاد من جملة هذه المواقف أشياء لم تخطر لأعدائه وكارهيه على بال • تعلم أول ما تعلم قوة الأمل فى الحياة وأهمية التفاؤل ازاء الأحداث أيما كانت خطورتها • وأصبح يرى البـأس من مطابقات الظروف وموافقاتها بل ومن وضع الشىء فى موضعه على نحو من الأنحاء • فكان يحسب المتاعب والآلام من مهيئات الجو كما يعد المنغصات ألوانا من التوابل والأفاويه التى نستعذب من أجلها الحياة •

وأعانه النضال على اكتساب تلك المقدرة الهائلة على تفنيـــد الآراء وتسخيف الأفكار مما كان له أبعد الأثر فى تكوين أفكاره الفلسفية وفى تثقيف ميوله وآرائه ومواقفه • ثم لم يلبث العقاد أن اكتشف فى كيانه تعبيرا عن روح مصرية أصيلة لاتكف عن الخلق والابداع فيما ينشىء قواما ذاتيا فى الفكر العربى المعاصر • وبذلك صار العقاد الأديب المطبـــوع الوحيد الذى لا يغنى الاطلاع على آداب اللغات الأجنبية عن قراءاته لأن ما سجله قلمه انفرد بمعالم الفكر الشخصى الأصيل بين معاصريه •

ونضيف الى هذا أن العقاد لم ينخدع انخداعا مغناطيسيا بعلمـــاء الغرب ومفكريه بحيث يذوب فى آرائهم ويختفى بين معالم فكرهم • لم ينبهر العقاد بالغرب وأدبه وفنه وفلسفته على نحو ما فعل الكثيرون ممن

اكتفوا بالوقوف خلف المذاهب الأوربية والاقتداء والتفانى فى حكمائه وكتابه ومؤرخيه • وظل أبرز ما فى العقاد حتى اليوم الأخير من حياته هو تلك الحرارة الجياشة التى يدافع بها عن أصالة الفكر العربى واللغة العربية ومظاهر الابداع فى آداب العرب وحضاراتهم وفلسفاتهم •

ولم تجد قضية الاسلام فى العصر الحديث مفكرا يحمل امانتها كما فعل أستاذنا العقاد • وعاب عليه الكثيرون مماسته غير الأكاديمية للعروبة ولكرامة الأدب والفكر العربيين وللامح الأصالة والقوة والجمال فى الشعر والدين واللغة والفلسفة والتاريخ والعبقرية عند أبناء الشرق • وظنوا أن مرجع ذلك بداهة الى نقص التربية الأكاديمية • ولكن الواقع أن العقاد قد مر بمرحلة أكاديمية فى مطلع حياته ثم تخطاها الى الاعتداد بالنفس والثقة بالبيان الذى يلقيه فى غير استناد أو رغبة فى الاستناد • كذلك أدت الحماسة به الى اللحاق بأبواب وأعماق لم يكن يصل اليها بالهدوء والتؤدة والروية • بل أدت به الحماسة الى اكتشاف أبعاد لم تكن تبين للعين العادية • وكأنما استخدم العقاد المنهج الميكروفيزيائى لأول مرة فى عالم الأدب • فألقى الضوء على ما استصغرت شأنه الدراسات الأكاديمية • واستخدم أسلوبه فى الدلالات لاستخلاص الحقائق الكبيرة وانتقاء الوقائع الضخمة بحيث تؤدى الدور الذى خلقت له فى الفكر البشرى • وسيقضى الأكاديميون أعمارهم فى بحث النزر اليسير مما تركه العقاد •

أما العقاد نفسه فقد كان يحمد الله على أن الحياة قد أعفته من طرق الدراسات والأبحاث الجامعية • وكثيرا ما أشار فى فخار الى أنه قد تخلص من هذه القيود الضارة والمنهجية الفاسدة التى حكم الله بها على أقرانه فى البحث والدرس • فان أكره شىء الى قلبه هو التفكير الميكروفيزيائى الذى يقتضى توسيع نقطة صغيرة فى بحث كامل • وكم شكر الله على أنه لم يقع بين براثن أهل الجامعة الحرفيين الجامدين ولم ينخرط فى سلكهم • وهكذا أطلق لخياله وقلمه العنان فى الدفاع عن جوانب الحضارة العربية من جميع أطرافها ووقف ندا لأكبر حملة الاقلام من مفكرى الغرب وفلاسفته • وبين للعالم أجمع أن هذه البقعة من الأرض فى الشرق الأوسط معالم حياة كاملة لها كل مقومات النضج والأصالة والجمال •

وقد عاش العقاد حياة طويلة معقدة لأنها ــ على ما يتصف به من حب للعزلة والوحدة ــ قد اتصلت اتصالا مباشرا بالأحداث الجارية التى اكتنفت بلادنا فى النصف الأول من هذا القرن • لم يكن من طبع العقاد أن يتدخل فى أمر من الأمور ما لم يدفع به الى التدخل شعور بالضرورة

العقلية واحساس بالمسئولية الفكرية أو الاجتماعية أو الدوقية · ولم يكن من عادته قط أن يبدأ انسانا بالعدوان مالم يستثره هذا الانسان ويحمله حملا على الدخول فى معركة أدبية أو سياسية أو علمية · فهو فى الجملة شخص وديع غاية فى دماثة الخلق وحب الفكاهة والسرور · ولا يشحذ ملكته فى النزال سوى أقوال معتد جائر ·

ولكن كيف كان يمكنه أن يخلد الى الانتاج العلمى وحسب فى ظروف تشابه ظروفه ؟

لقد جاء العقاد بمذهب جديد فى الأدب والنقد الأدبى لم يعرفه النقاد العرب · كان بينهم ابن الرومى أجيالا وأجيالا ، ولكن العقاد هو الذى رفع عنه الغطاء وأظهر معدنه النفيس ونفذ الى قرار شاعريته وادرك مضمون فنه وعمله · ووقف العقاد بمفرده وسط تيارات سياسية شديدة العنف والقسوة مؤمنا بالحرية الفردية والكرامة الشخصية وحق الناس فى حياة سليمة آمنة · ولا يخفى أن المشكلة الكبرى فى العصر الحديث انما هى مشكلة العلاقة بين حرية الفرد ومصلحة الجماعة كما يقول العقاد فى اللغة الشاعرة (ص ١٠٥) · والاسلام لا يقيد المسلمين بنظام معين لحل هذه المشكلة ، ولكنه يحرم السلطان المطلق كل التحريم ، ويحرم استئثار طبقة معينة بخيرات المجتمع · ولا يحاسب الفرد الا بما هو مسئول عنه مختار فيه · ولا يفرض عليه واجبا فوق طاقته ·

وصال العقاد وجال فى أكثر من مجال من مجالات الفكر حتى ثار عليه المتخصصون ولم يرض عنه أصحاب الدرجات الجامعية · وكانت عبقريته خلاقة بمعنى الكلمة كما كانت عقليته من تلك العقليات المتفتحة لأكثر من فن واحد · انه من صنف المفكرين الكبار الذين لم يتركوا مجالا من مجالات الفكر الا طرقوه واستوفوا أصوله وقواعد بحثه وعرضوا له بالتحليل والدراسة وسجلوا بعد ذلك آراءهم فيه · لم يعد هذا النمط من الأفذاذ موجودا فى العصر الحاضر ولم تعد أحوال الحضارة المعاصرة تسمح بظهور مثل هؤلاء الرجال · لقد أفلت العقاد فى غفلة من الحضارة· ومع ذلك فقد كانت ظروف الحياة بمصر تستدعى وجود مثل هذا الرجل· أى أن العقاد لم يوجد بعلة سببية وانما ظهر لعلة غائية · فهو قد أفلت من يد الظروف لغاية أهم وأرفع من الظروف ذاتها · كانت الأوضاع كلها تستلزم ظهور هذه الشخصية التى كان من همها الاكتشاف وفتح الأبواب والقاء الأضواء على جملة من المجالات التى ظلت مجهولة أمدا طويلا ·

ويقول العقاد فى تفسير معنى العبقرية كما تمثلت فى شخص عمر بن الخطاب (ص ١٨) : « ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين • فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب •• أتراها على كلا المعنيين شيئا غـير التفرد والسبق والابتكار ؟ كلا •• ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات • ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية انه يكتب تاريخا « لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا » حتى ينتهى بسرد هذه « الأوليات » الى عداد العشرات •

« وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فريها أحد كمـا قال صاحبـه وأعرف الناس به صلوات الله عليه ».

ولو عددنا أول ما ادخله العقاد فى مضمار الفكر العربى عامة لكان أولى بنا أن نستفيد من هـذا الكلام فى وصف العقاد نفسه • فلم يقتحم العقاد بابا من الأبواب الا أطبق بفكره الحاد على لبابه وجوهره وأعمل فيه ذهنه وروحه حتى اشتف كل ما فيه من الفرائد التى تعجب وتروق •

ولم تنتـه الأحداث من حياة العقاد حتى آخر يوم قضـاه بيننا ولم يتوقف قط عن متابعة كل مايدور من حوله فى ذكاء وتفكير جلى •

لقد واجه العقاد موته بشجاعة وعلينا أن نواجه الفراغ الذى تركه بعد موته بشجاعة أيضا • فان أهم عنصر فى حياة العقاد الأدبية والفكرية يكمن فى حقيقـة واحدة هى انه كان رقما قياسـيا فريدا فى عالم الفـن والكتابة • استطاع الأدب العربى أن يدلل بوجود هذا العبقرى على قدرة البيان والأسلوب معا على التعبير الجميل والأداء السليم فى جملة أبواب التذوق والمعرفة • كان العقاد رمزا لقدرة الأدب العربى على بلوغ أعلى وأرفع الدرجات • كانت اللغة العربية فى محنة حتى ظهر العقاد فأعطاها الشهادة ـ وهو الذى لم يحصل على شهادات ـ بأنها لغة طيعة حيـة قادرة على التعبير والافصاح فى جميع الاجواء والمجالات .

ان أحدا لم يمنح العقاد شهادة رسمية عن الشوط الطويل المرهق الذى قطعه • ولم يحفل النقاد بأن يبرزوا كوامن شخصيته الفريدة • ولكنه هو بنفسه وهب للأدب العربى من الشهادات مالا حصر له • ووقف العقاد اليوم بعد موته كعلامة مثبتة على جانب الطريق الطويل فى دنيا الثقافة والفلسفة والشعر • صار علامة تشير الى مقدار حيوية اللغةالعربية وشباب الفكر العربى ورقى حضارة العرب • لم يستطع أحد أن يبلغ

هذا المدى في تاريخ الاسلام والعروبة • ولم يعد من الممكن أن توصف لغتنا بالعجز عن أداء معنى من المعاني أو بالقصور في مضمار الفكر أو الفن أو الفلسفة أو الصحافة أو السياسة •

هذا العقاد علامة راسخة في طريق الحضارة العربية الشاق كأنما صعد قمة عالية من قمم الجبال الشاهقة وسجل عليها حروف اسمه قائلا : الى هنا وصلت وعليكم ان توالوا الصعود .

من شاء فلينكر ومن شاء فليواصل التصعيد ••



العقاد (١)

اذا شيعونى يوم تقضى منيتى ... وقالوا أراح الله ذاك المعــذبا
فلا تحملونى صامتين الى الثرى ... فانى أخاف اللحـد أن يتهيبا
وغنوا فان الموت كأس شهية ... وما زال يحلو أن يغنى ويشربا
وماالنعش الاالمهد مهدبنى الردى ... فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكرونى بالبــكاء وانما ... أعيدوا على سمعى القصيدفاطربا

لا تبكوا العقاد يا صحاب ! فهذا ما أوصانا به · لا تسمعوه النحيب وانما أعيدوا غناء قصائده وأغانيه حتى ينصت الى نبرات روحه التى عانت كل ألوان الكفاح والجلد فى هذه الحياة · اجعلوه يطرب فى ممـاته كما كان يتهلل فرحا سعيدا بالكلمة الحلوة والفكاهة المليحة · هيا نغنى جميعـا بصـوت واحد أنشودته « يوم ميـلادى » كما فعلنا فى الاحتفال بعيد ميلاده الثالث والسبعين والرابع والسبعين وكما كنا نود أن نفعل فى عيد ميلاده الخامس والسبعين القادم فى شهر يونية · لنردد ألحانه

---

(١) مجلة معاصرة عدد (٣) فى ١٧ . . سنة ١٩٦٤ .

الآسية الحاضرة التى كانت وراء مظهر الشجاعة والنبل الدى ظل العقاد يحتفظ به فى أحلك ساعات العمر ٠

كم فرح العقاد وفرحنا بفرحه ، كم غنى معنا ونحن ننشد :

يـــوم ميـــــلادى تقـــــدم	**وتـــاخر ٠ ٠ ٠ وتكلم**
لا تقل لى قبـــل عـــام	**كيـف كنـــا ؟ انـا اعلم**
لا تقل لى بعـــد عمـــرى	**كيف نمسى ؟ لســت تعلم**
غايـــة الأمـــــر اظانـــ	**ين وبعض الظـــن يـاثم**
ســوف نمسى مثلمــــا كنـ	**ــا ولم نولـــد ونفطم**
تظلم الموت اذا قلـــــــ	**ت ظلوم ليس يرحـــم**
نحـــن لا بالمــــوت أعطينـ	**ـــا ولا بالمــــوت نحرم**
من يعـد يومـا كمــا كا	**ن فقـــــدتم وتمم**
صـــــفقة الأعمار فيهـــا	**قلــــة الخسران مغـنم**

كان يحب الحياة ويسلم بقواعدها وقوانينها وأصولها ويشعر مع ذلك بحلاوتها وجمالها ٠ نبع الفن من قلبه قبل أن يـــكون كلمات عـلى لسانه ٠ أحس بالمتعة فى رؤية النــور وعز عليه فى أية لحظـة أن يهجر البيت الذى تنفذ اليه الشمس فى كل ساعات النهار ٠ أحب الحياة حبا ملك عليه فؤاده ولبه ولذلك أعطاها حقها من الاهتمام الذى أولاه حشرات الأرض وسكان الفضاء ٠ كم تذوق ساعات الصفو والهدوء وكم اهتز قلبه وخاطره مستبشرا عندما كان يرى ما يحب أو من يحب ٠ كان مرأى الزهور يعيد اليه الشعور بالربيع والأمل والحب ٠ وكان حديث الشباب والصبا يجدد فى احساساته كل معانى النضال العاطفى كأنه ابن العشرين ٠

عجب أن يمضى العقـــاد اليوم من بيننـــا ٠ عجب أن ننظر الآن فى وسط تلاميذه من الشباب والمريدين فلا نلقاه ٠ عجب أن يأتى يوم الجمعة من كل أسبوع فلا تسوقنا الأقدام طوعا الى محفله الدائم بمصر الجديدة ٠

منذ هذه اللحظة سنقول للعقاد ما لم يعتد سماعه ٠ لم يكن يحب فى أقوال محدثيه الا ما يبعث الأمل فى القلب وما يجعل المستقبل باسما مضيئا مزهرا ٠ آن لنا أن نتكلم عن العقاد كما كنا نحب له أن يعرف فى معاشه ٠ ان ما عرفه عن حبنا له وتقديرنا لم يكن الا القليل أو أقل من القليل ٠ فليعرف اذا شاء أصدقاء العقاد وخصومه اننا لم نبد حتى اليوم الا أقل القليل من الحب والود والاخلاص لأســـتاذنا العظيم ٠ أما بقية

الشعور الذى نكنه له فسنبديهـا اليوم من أوسع الأبواب فلا يقول القائلون انه الزلف والتقرب وما ملك العقاد يوما منفعة من المنافع لمحبيه من الصادقين فى احساسهم بالوفاء له .

رأينا فى العقاد أبا ولم يكن يوما بالأب . وعرفنا فى طبعه الحنان والصدق مما كان يفيض على فؤاده فيضا فى وحدته وعزلته وانقطاعه عن الناس . ورأينا فى العقاد المعلم المطبوع والأديب والشاعر . وأحسسنا بأن امتناعه عن مخالطة النـاس وعيوفه عن المزاحمة فى نطاق المجتمع ودوائره ليس كبرا عن المخالطة أو غطرسة . كان ذلك شعورا حقيقيا بالتأثر حيال الأزمات يخفيه بقدر المستطاع . هذا الرجل الذى طالما نزل المعارك والمناقشات وتصدى للنقد فى عنف كان يشعر فى حنـايا قلبه بالتأثر الشديد والضعف الحاد أمام مآسى الناس واحزانهم .

وحدث هذا منذ أسبوعين فقط عندما كنا فى بيته بمصر الجديدة . أن اجتمع الاخوان حوله وظللنا نذكر أمامه أبياتا من شعر شبابه حتى رأينا الدموع تبلل خديه فجأة ونهض معتذرا الى غرفته . لم يطق العقـاد أن يتحمل ذكريات حبه القديم وقصص أصدقائه الراحلين .

وكان فى شـدة المرض حينما دخلت حجرة نومه منذ عشرة أيام ورأيته جالسا فى مقعد مجاور لسريره يتندر ويتفكه كعادته وكأن ليس به مرض . وداعبنى كعادته فمزحت معه ولم أكن أعرف أن هذا اللقـاء بينى وبينه كان آخر لقاء . وسألته كيف الحال ؟ فأجاب : ماذا تعنى الحمد لله باللغة الألمانية ؟ فقلت : جوت زاى دانك . فظل يرددها ويقول : لابد أن توجد عبارة الحمد لله فى كل اللغات .

لم يعرف الناس العقاد الانسان فظنوه قاسيا عنيفا مع انى رأيت فيه الوداعة التى لم تكن تخطر لبشر . ولم تقتل الوحشة فى حياته معانى النبل وصلات المودة للأقارب والأصدقاء . وعلى الرغم من ابتعـاده عن المجتمع فقد كان يتصرف مع زواره تصرف رجل المجتمع الرقيق المهـذب وكانت معاملاته مع السيدات والرجال معـاملات ذات نمط ودود رفيع لا يلتبس على أحد . لا شك فى أنه كان هناك اختلاف كبير بين حديثه مع مريديه من أبناء الندوة وبين حديثه الى الزائرين الخارجين عن نطاق الندوة. فقد أراد العقاد أن يشعر الجميع بأن الندوة ليست ملكا لأحد وان وقوعها فى بيت العقاد لا يعنى أنه صاحبها ومديرها . كان الجميع سواسية فى النقاش والجدل حتى هو نفسه أراد دائما أن يتمتع بهـذه الحرية التى

يفرضها مبدؤه الأساسي . لذلك كانت المناقشات تزداد أحيانا فى التوتر والقوة ولكن العقاد كان يعطي نفسه وبعطى الآخرين مطلق القـــدرة على التفكير فى القضايا العامة وتدبير الحجج وتأييد مايرونه صحيحا .

عشنا حتى اليوم مع العقاد . وسنعيش منذ اليوم بغير العقاد . لن نقول ما يحبه العقاد لأننا نميل الى ما يرضيه ويبعث الفرحة فى صـــدره وروحه . ولكننا سنقول ما لم يسمعه العقاد عن حقيقة قلبه وفكره مما صار الآن فى ذمة من عاشوا قريبين منه وفى ذمة ما كان يخبئه لنا التاريخ .

رحم الله عباسا وجعل لنا من أبنائه وتلاميذه عوضا عن ذاته .

العقاد صورة للنضال الشعبي (١)

يعد المفكر الجليل الاستاذ عباس محمود العقاد صورة من صور الكفاح الذى ارتسم على جبين الأمة العربية منذ مطلع هذا القرن حتى الآن • هو فى الواقع نمط من أنماط القـــوة والخصب العقلى فى هذا الشعب العربى •

لم يولد بملعقة ذهبية فى فمه بل انه ولد بغير ملاعق على الاطلاق • لم يحظ بأى سلاح من أسلحة الحياة التى يحتمى فيها الناس عادة ولم يجد فى معاشه الطويل نوعا واحدا من أنواع الحماية والطمأنينة •

فى الوقت الذى يحمل فيه الشبان شهادات عدة تقيهم مغبة الحرمان من العمل والرزق كان العقاد بلا شهادات على الاطلاق • ولم يولد فى أسرة غنية توفر له أقل ضرورات الحياة أو أبسطها واضطر الى قطع التعلم للعمل بجنيهات قليلة فى الوظائف المتواضعة • فلا جاه ولا منصب ولا أقارب من ذوى الأهمية يعاونونه عند الحاجة والحرمان • هذا الى جانب كبرياء وشدة فى التمسك بأهدافه ومبادئه وأريحية طبيعته حيال أصدقائه وزائريه •

---

(١) مجلة الثقافة ـ العدد (٤٠) فى ٢١ أبريل ١٩٦٤ •

فضلا عن الوسط الذى لم يكن يدبر له الحياة السهلة اتسم العقاد بطابع الكرم الأصيل واحتفظ لروحه بمعنى الكرامة والكبرياء ٠

وهكذا لم ينشأ العقاد نشأة سهلة ميسرة ولم ير فى أوائل حياته مظاهر الراحة والهدوء والطمأنينة ولم يذق طعوم الضمانات لظروف معاشه على نحو من الأنحاء ٠ وبالاضافة الى ذلك كان التحدى فى سبيل ما يعتقد أنه الحق وما يراه صحيحا أصغر خصاله ٠ كان يبلغ به التحدى للظروف درجة لم يعرفها الا القليلون فقاوم الطغيان وتصدى لأخطر رجال فى البلاد وحارب الفساد الذى استشرى فى أثناء حكم الأحزاب والملوك ٠

ولو رزق الله العقاد أهلا أرفع مكانة وأكثر غنى من أهله لاستطاع أن يستعين بهم فى ظروف حلكته وأوقات تعسه وخلال أزماته ٠ ولكن العقاد لم يجد بر أمان يلجأ اليه ولم يعرف شاطئا يعتصم به عند وقوع الكوارث وهياج العواصف ٠ ولو آتى الله العقاد بعض درجات العلم لشق طريقا سهلا ميسورا الى أعلى الوظائف ٠ فالعقاد الذى صار أستاذ الفكر الأول فى الشرق العربى لم يملك شهادة غير الابتدائية ولم يعرف من دوائر التعليم سوى أبسط درجاته وصوره ٠

فاذا تخيلنا العقاد وهو يشق طريق العلم والأدب والصحافة بغير صاحب يؤازره أو قريب يعاونه أو رفيق يؤنسه لعرفنا أى جهد تطلبه بروز العقاد على مسرح الفكر ٠ وأشد من ذلك صعوبة ألا يملك العقاد ما يدفع به كيد الكائدين وهو يسعى ليل نهار كيما يضع نفسه فى صف الرعيل الأول من العلماء والمفكرين ٠ وكأن ذلك كله لم يكن كافيا فنسبب جسمه النحيل فى المرض والقعود مرات فى أثناء شبابه وحجبه الداء العياء عن متابعة خطواته نحو سلم المعرفة الذى اتخذه لنفسه عملا وحرفة٠ عاقه المرض عن أداء أقل ما ينبغى له من فروض التزود فى مطلع شبابه وتطلب علاجه الكثير من الوقت والمال ٠

واذا بهذا الرجل نفسه لا يكف عن مناوأة المظالم ولا يهدأ له بال حتى يحطم عروش الملك والجاه والسياسة والأدب ٠

فقد كان العقاد فقيرا حين حمل حملته المشهورة على شوقى ولم يجامل فى ذلك أحدا حتى سعد زغلول ٠

وكان قليل الشأن حين قذف فى حق الملك فؤاد حتى أدى به الأمر الى معرفة السجون ٠

ودوخ سماسرة السياسة وأصحاب المصانع في وقت كانوا يملكون فيه كل سيطرة وسلطان .

وتحدى أهل الفكر ممن كانوا يحملون التقديرات والألقاب وهو خاوى الوفاض من أصغر الرتب والدرجات .

كان يكفيه للاثقال من أعبائه فى الحياة الا يعرف سبيل التعليم الثانوى والجامعي الذى يضمن له وظيفة من وظائف الدولة . ويجعل له الحق فى التدرج الى المستوى الذى يليق به بعد سنوات . أو الا يسلك طريق الهادئين من أصحاب المطامع لكسب الرضا عند رجال المال والمناصب أو أن يقع فريسة للمرض الذى يعوقه عن الاستعداد الملائم لتبعات العيش والحياة .

كان يكفيه ذلك كله لاجهاده على نحو لا مثيل له . أما أن يضيف هو بنفسه الى أعبائه أنفة تدفعه الى اعلان الحرب على الفساد وتجعله اماما من أئمة الاصلاح والتنوير ابان حركات التجديد فهذا هو ما لم يكن أحد يتصوره . كانوا يظنونه سهلا لين . فيبعثون اليه بالاغراء تلو الاغراء وحسبوه يقبل انصاف الحلول اذا لوحوا له بالمنافع والطيبات. ولكنه صمد فى مواقفه لا يغير ولا يبدل من طبيعته القوية.وعزيمته الصادقة الى أن انقادت له الأزمات وأوقات الشدائد .

اعتز العقاد بصلته بسعد زغلول ، ولكنه لم يخش أن يجاهره برأيه صريحا في شعر شوقى . واختلف معه فى مواقف حاسمة على الرغم من ايمانه بأنه قوة لا يستهان بها فى عالم السياسة . وبقي فى حزب الوفد بعد وفاة سعد زغلول حتى تبين له ان ساسة الحزب لم يكونوا يهدفون الى الصالح العام بقدر حرصهم على مصالحهم الخاصة فانشق على الوفد وهو أحوج ما يكون الى من يناصره ويدفع عنه غائلة الجوع .

وحقيقة كل ذلك ان شوقى كان يمثل العلية ابان الحرب الاولى وبعدها وظل يمثل أرباب الجاه والقصور ويستعين بالمال فى القضاء على خصومه ومخالفيه ويملأ الصحف قسرا بالمدح والثناء على شعره. حتى ظهر العقاد . فاذا به يثور ثورة حقيقية ليهدم سلطان شوقى فى عالم الأدب والشعر . واذا به يعلن حربا عوانا على الفن الشعرى الذى يمثله شوقى . فقد بلغ شوقى الغاية في الاستبداد والاستهانة بالأدب والادباء ..

وحزم العقاد الأمر فاذا به يقدم فصولا فى النقد لشعر شوقى لم

تعرفها اللغة العربية من قبل . وانهزم شوقى هزيمة منكرة وعرف الناس خبايا الاوضاع الادبية في زمانه . واتضح من ذلك كله ان العقاد لايحارب شوقى من اجل منفعة يريدها او جاه يطمع فيه . انما اراد العقـاد ان يقيم أسس الأعمال الشعرية من جديد وأن يستخرج القواعد والأصول الجديدة التى لم يعرفها العصر برمته .

ولم يخش العقاد ان تظهر امامه مجموعات جديدة من الأعـداء والخصوم . وكأنما كان يستخف بما مر به من صعوبات واهوال . فتكونت الهيئـات والجماعات التى أخذت على عاتقها مناصـبة العقاد العداء .

ومع ذلك فهو لايلين وحمل حملته المشهورة على جميع الاتجاهات الأدبية السائدة فى ذلك الحين وأخذ على عاتقه مهمة تصفية الفكر العربى من الغثاث وصنوف الزيف والتقليد والرجعية . فكان نتيجة ذلك حركة نقديةكبيرة أظهرت نواحى الضعف فى فنون الجيل‌الماضى بأكملها ووضعت المعالم الجديدة لحركة نابعة من صميم الاوضـاع الاجتماعية والروحية فقد جاءت حملة العقاد على شوقى وأنصاره واصحاب البدع التقليدية كخطوة أولى للتمهيد لكل معانى الأصالة والابتكار .

ولم تكن علاقاته واتصالاته السياسية تجبره على اتباع أوامـر الحزب وقال يوما لسـعد زغلول : ليس بعجيب ان تكون للسـياسة خصومات وان يكون لهذه الخصومات اهلها والقادرون عليها . ولكن الحق أيضا اننى لا أنصر رأيا على رأى رعاية للبرامج الحزبية أو المناوشـات الموقوتة فانها لا تستغرق انسـانا مشتغلا بالأدب والخيال . انما أنصر الرأى على الرأى رعاية للقيم الانسانية العليا التى هى عندى ارفع من القيم الحزبية بل ارفع حتى من القيم الوطنية .

ولم يعبأ العقاد بعد خروجه من السجن بأصحاب السلطان فى‌البلاد بعد موت الملك فؤاد فأخذ يعدد نقط الضعف فى شـخصيته عند عقده موازنة صريحة بينه وبين سعد زغلول . فيقول : ان سعدا لم يكن منفردا بالكراهية والغضب عند الملك فؤاد ولكنه كان صاحب النصيب الأوفى منه على قدر نصيبه من تمثيل قوة الدستور . وكثير من الوزراء والكبراء لم يكونوا محببين ولا مقربين فى كثير من الأحايين لأنهم ليسوا من الرجال الذين يعتمد عليهم فى توجيه الدستور وتحريك دواليب الحكومة الى حيث يريد .

ويذكر العقاد في كتابه عن سعد زغلول مقابلته مع اميل لودفيج فيقول : وحدثني اميل لودفيج حين لقيته في القاهرة بعد لقائه للملك فؤاد فسألني « ما رأيك فيمن يغلب غدا على مسرح السياسة المصرية ؟ » قلت : المستقبل للحرية بعد عراك طويل » • وهذا كله في الواقع بمثابة الارهاص بما تطورت اليه شئون البلاد بعد ثورة ١٩٥٢ •

ويخوض العقاد مرة أخرى في سيرة الملك فؤاد فيقول : الا أن الحساب الذي كان يختل أبدا في ميزان الملك فؤاد الدقيق انما هو حساب العاطفة وما لها من الأثر القهار في أطوار الجماعات والأفراد • فلو كانت العلاقات السياسية والدوافع الشعبية قائمة كلها على العقول والمصالح والمساومات لما اختل حساب الملك فؤاد قيد شعرة في جليل ولا دقيق من الأمور • ولكن العقول والمصالح والمساومات ليست كل شيء في كل ما يجري على مسرح السياسة وان كان شاغلوه من الشيوخ المحنكين والعقلاء المدربين •• ولهذا طرأ الاختلال على بعض التقديرات التي عول عليها الملك فؤاد أكبر تعويل • وكأنما كان الملك الراحل طيارا ماهرا يحسب حساب الآلات والوقت والمسافة أدق حساب • ولكنه لا يعطي عوارض الأجواء حقها من الحسبان والاهتمام • فتقف به الطائرة دون الغاية كلما تغيرت الأجواء والأهواء •

وهذا الوصف للملك فؤاد بقلم العقاد في حياة الملك فاروق دليل على غاية الجرأة في الكشف عن طبائعه عندما لاتحسب حساب الظروف الطارئة والأوضاع المستجدة التي تغيب عن التفاته كملك • ونستطيع من هذه الكلمات أن نعرف الى أي حد كان العقاد يشعر بالكراهية للملك الراحل • وكان العقاد ينوي اعادة طبع كتابه عن سعد زغلول بعد أن يزيل التوريات من أسلوبه وبعد أن يضيف اليه كل الأحداث التي لم يكن يستطيع ان يقولها قبل ثورة سنة ١٩٥٢ • ومن هذه الأحداث ما رواه لنا العقاد في ندوته عن اشتراك الملك فؤاد في المؤامرات السياسية التي أدت الى الفتك بأعداء السراي وقتل الأحرار •

ويحق لنا بهذه المناسبة أن نذكر عرض فاروق على العقاد بأن يؤلف كتابا عن أبيه الراحل في نظير مبلغ طيب من المال ورتبة الباشوية فقابل العقاد عرضه ذلك بالرفض • ولم يكتف بهذا بل صار يسب فاروقا بأبشع ألوان السباب على مسامع الحاضرين في ندواته الأسبوعية • وكانت أقل سبة يصف بها الملك في ندوات يوم الجمعة هي أنه رقيع ابن رقيعة

فاجر ابن فاجرة . ولم يكف فى أخريات عهد الملكية بمصر عن ذكر وقائع الملكة السابقة نازلى أم فاروق مع أصدقائها ومغامراتها التى لم نكن نعرفها الا منه شخصيا . وقص علينا غير قليل من المخازى التى جرت داخل القصور دون خشية أن يسوقوه مرة أخرى الى ماوراء القضبان .

وليس ذلك بعجيب على رجل يؤمن بالاشتراكية على نحو ما آمن بها العقاد . وقد أوضح ذلك حين قال « لقد كانت الاشتراكية الفابية نصب عينى حين كتبت فى تعزيز الفلسفة الاشتراكية والرد على خصومها قبل أكثر من خمسين سنة . ولا تزال الفابية كما بقيت الى اليوم أقرب الى اعتقادى من سائر الجماعات . ومبادئها تقوم على الأسس الأخلاقية قبل قيامها على الأسس المادية الاقتصادية . ووجهتها الكبرى هى بناء المجتمع على أرفع المثل العليا فى الآداب الانسانية والفابيون تطوريون وليسوا بانقلابيين . وعندهم أن نشر المعرفة وتأليب الأنصار من جميع الطبقات والتوسل بالوسائل الديمقراطية الى ولاية الحكومة للمرافق العامة أصلح لتحقيق الغرض المقصود من الاشتراكية وهو منع الاستغلال والاحتكار والتسوية بين الناس فى فرص الأعمال والمشاركة فى ادارة الأداة الحكومية » .

ومن رأى العقاد أن الاشتراكية كانت معروفة عند عدد غير قليل من مفكرى العرب الذين جاهدوا ضد الفقر والاستغلال الطبقى منذ أربعين عاما أو أكثر . وليس من الضرورى احتساب هؤلاء المفكرين من غير الاشتراكيين لعدم استخدامهم هذه الكلمة . ويكفى أن نلمس منهم فهما للاشتراكية العملية فى دعوتهم الى تطبيقها عن طريق تنظيم رأس المال وانصاف العمال وتحريم احتكار الثروة العامة .

ومفهومه للاشتراكية واضح مرن مستخرج من طبيعة البيئة ذاتها قبل أن يكون نظاما اجباريا . « لهذه الاشتراكية - فى رأيه - أو لهذه الاشتراكيات على الأصح عشرون تطبيقا على الأقل فى أنحاء العالم لا يتشابه بينها تطبيقان على نحو واحد . اذ كل أمة يناسبها نظامها الحكومى وظروفها الاقتصادية وعلاقاتها الخارجية التى لا تناسب أمة غيرها . ولا يزال كل تطبيق من هذه التطبيقات قابلا للتعديل بين عام وآخر الى غير أمد ممدود » .

ويشرح العقاد فكرة الاشتراكية الاصيلة فى العدل والمساواة فيقول « وانما المساواة شرف حين ترتفع بالادنى الى ماهو أعلى منه وحين تعطى

الرفيع حقه وتأبى عليه أن يجور على حق غيره وحين تكون انصافا للعاجز لأنها تستنهضه الى القدرة وانصافا للقادر لانها تكافئه على المزية ولا تعاقبه عليها بحرمانه من جزائها • وحين تكون في أعماقها انصافا للفطرة السليمة التى فطرت على التفاوت والتنوع من أجرام الفضاء الى ذرات العناصر فى المادة الصماء • وذلك هو انصاف الحق والخير وهو انصـــاف الاسلام (كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم) •

فمن هذا كله نعرف أن العقاد كان صورة للنضال الشعبى الحقيقى كما كان حركة دائبة للنهوض بأعباء الفكر والأدب والسياسة الاشتراكية بالبلاد وعلى الرغم من كل ظروفه التى لم تكن تشجع أحدا على البدء فى تحقيق مثل هذه الرغبات الجادة فضلا عن أن يمضى فيها حتى غاياتها فقد تمكن العقاد من تثبيت الدعائم التي لا يمكن أن تختفى من عالم اليوم : عالم النضال والكفاح الثوريين •

شخصية العقاد

شخصية العقاد غريبة متناقضة . كأنما جاءت من عالم علوى لتسمو بين الناس متأملة حائرة .

رجل تجلس اليه مرة فتحسبه محاربا لا يزال فى الميدان بعد أن انتهت الحرب وتفرقت الجموع وانصرف الناس . وتجلس اليه مرة أخرى فتحسبه سابحا فى ملكوت الروح والخيال لايرى من عالم الأحياء الا الأطراف والقمم . وتنظر اليه وهو يضطرب منفعلا ازاء غضبة تنتابه فكأنما تحول الى أسد يزأر فى غابة مليئة بالوحوش الضوارى . واذا داعب الأطفال من حوله ترقق حتى تصحو على صفحة محياه وعلى أسارير وجهه مظاهر الحنو والبر والاستسلام . واذا داعب واستثار أصدقاءه وتلاميذه أخذ يضحك بصوت جميل متدفق كهدير الجداول الرقراقة فوق صخور القمم . واذا استعاد غروره وكبرياءه واشتد شموخه ظهرت بوادر التعالى فى كلماته وحركاته وملامح وجهه كأنما لا يحسب فى الوجود من يدانيه . واذا رأى المرأة فى حضرته استحثه وجودها الى النزال كما يستجيب القط الى قتال الفأر بالغريزة والمزاج . واذا أرضت غروره الرجلى استعذب لفتاتها ونبض قلبه بالثقة والاعتزاز .

شخصية العقاد غاية فى التناقض وان كانت تبدو فى منظرها العام

غاية فى الانسجام والالتئام والتماسك • لقد تعاونت عناصر كثيرة على وضع شخصيته بهذه الصورة ولم يستطع عامل الزمن وعامل التطور أن يستكملا هذه الفجوات القائمة بقلبه وعقله • لم تتوصل هذه السنوات الخمس والسبعون الى حل الاشكالات المتراكمة فى قرارة نفسه منذ شبابه الأول •

وقد نجمت هذه الاشكالات فى أصلها عن طبيعة العقاد الحرة التى لا تريد أن تخضع لمقياس معين • صدرت هذه الاشكالات عن أساس عقليته فى النزوع نحو الكتابة بالصورة التى تلائم فكره وحسب • ولكن ظلت خطوط التفكير العقادى مرتبطة ارتباطا وثيقا بكيان بلاده • وتلاقت هذه الخطوط مع التعبير التلقائى الأصيل فى بداهتها وفى روحها فلم يكن بد من أن يقترن شعور الناس نحوه باحساس بالهيبة والتوقير • وأخذ هذا الاحساس فى التزايد والنمو حتى استفحل أمره وتحول العقاد فى أذهان الناس الى كاتب كبير • والكاتب الكبير رجل مسئول • مسئول أخلاقيا ومسئول دينيا ومسئول اجتماعيا • تضاف الى ذلك مسئولية العقاد نفسه نحو احساسه بالتبادل الشعورى بينه وبين مشاكل عصره وبينه وبين تقاليد أسرته وقومه وصحبه • فاذا عرفنا جملة المشاكل المصرية وحالة البلاد الفكرية فىالنصف الأول من القرن العشرين استطعنا أن ننفذ الى حقيقة الاشكال فى باطن العقاد •

فى النصف الأول من القرن العشرين تنبه المصريون الى الحرية • ولكنهم لم يدركوا من الحرية سوى ذلك المظهر الدستورى الذى يضمن حكم الأمة للأمة • وكان للعقاد فى ترسيخ معالم هذه الحرية باع طويل • ولكن الحرية الطبيعية للمواطن ظلت طول هذه الآماد مجهولة كما جهل الناس أية دلالة لحرية الانسان العاطفية • ولم يستطع الناس أن يدركوا علاقة الحرية بتأويل التصرفات الانسانية وبالحديث عن الآخرين فى الصغائر التى لا تخصهم ولا تخص أى انسان آخر • بل ان المصريين كانوا فى تلك الأيام يعيب بعضهم على بعض خصالا عائلية • وسرابات أسرية وأشياء من صميم الكيان البيتى • فكانت الصحف تظهر كل صباح مترعة بما يستطيع أى صحفى أن يلتقطه من أسرار البيوت • أو ما يعد أسرارا فى نظرهم حين ذاك وبالشتائم وصنوف القذف التى لاتعلو على عبارات السوقة فى التخاصم أو التمازح •

أما التسامح والتغاضى عما لا يخص الآخرين وعدم النظر الى ما يحتسب حقا من العيوب والخطايا أو ما لايحتسب وأسلوب المجتمع النامى

فى عدم الخوض فى صلات الناس وعلاقاتهم وتصرفاتهم فهذا كله لم يعرفه المصريون فى الخمسين سنة الأولى من القرن العشرين • كان الناس كلهم عيونا وآذانا لما يقع ويحدث • ولا يبصر أحدهم بمشهد فى الطريق حتى يتطلع الى بقاياه ودلالته ، ولا يرى أحدهم عيبا فى أحد أو فى شخص الا ظل يحمل ذكراه عن وعى وارادة من أجل التشويه والاتهام عند اللزوم • وهذه من صفات المجتمع البدائى الذى لم يعرف الانصراف الى ما يخصه ، وهى من أهم مميزات الحياة الحزبية والطائفية التى تظهر بين أنصاف المثقفين وأشباه المتمدينين •

ولهذا حبس العقاد ميوله وطموحه الاجتماعى فى قمقم • وخفف كذلك من غلواء احساساته الحادة الصارخة ، ونبرات هيامه وولعه بالجمال والحب والأنس والابتهاج • وأخفى أيضا لمحات الحزن والأسى والألم الدفين فى حياة مريرة شقية تعسة • ولم يملك العقاد اذن ــ وقد صار كاتبا كبيرا معروفا ذا اتجاه ــ أن يبقى على روح الغناء الأصيلة فى قلبه الأسيان مع زحمة الكتابة فى مشاكل الفكر والمجتمع • ومع ذلك فقد ظلت هذه الروح بينة المعالم فى كل كتاباته ،ولكنه لم يخصها بجانب النماء والتحلية وبالأنماط الأدبية التى تستخرجها وتبرزها لهذه الأسباب الاجتماعية • وانصهرت هذه الروح فى كتاباته وصارت تنعكس على صفحات كتبه فى معرض الحديث عن الشخصيات الأخرى دون أن تمس قرارة نفسه •

ولو بقى العقاد كاتبا وشاعرا فحسب دون كل هذه المسئوليات الضخام فى توجيه الأمة والشباب واصلاح الناس والأفهام والوقوف موقف الكاتب العربى الاسلامى لاختفت جميع الاشكالات من قلبه • بل لعله كان يستطيع حين ذاك أن يظل غنائيا فى كل لمحات فكره وعقله كما يعرفه المقربون دون أن ينحرف قيد أنملة عن طبيعة فنه • وبهذا الدافع نفسه ظل العقاد ينظم فى الغزل الى أخريات أيامه كمنفس لهذه الصفة الشخصية الأصيلة • ولو لم يكن يفرض دائما على نفسه كثيرا من أصول اللياقات بشخصه الذى صار كذا وكذا والذى لا يجوز له أن يصرخ بأشجان الألم والحنين والوجد لكسبنا من الغنائية العقادية أجمل الألحان وأطربها للنفس والخاطر فوق ما أخذناه وكسبناه •

وقال الكثيرون عن العقاد انه معقد نفسيا أمام الشهادات العلمية التى حظى بها من هم دونه فى الملكات والاستعداد والمعرفة • قالوا انه كان يتألم لمرأى المكانة الاجتماعية التى تمتعوا بها وللعلم بالمكافآت التى

كانت من نصيبهم وهم الذين لايصح مقارنته بهم · قالوا ذلك وهم يحسبون أنهم قد وضعوا أيديهم على أصل الاشكال فى نفسية العقاد ·

والواقع أن مثل هذه الأوضاع كانت تحز فعلا فى قلب العقاد كما أنها كانت تنال من نفسيته الشيء الكثير وتخلق له مختلف الاشكالات · بيد أنه من غير المستحب فى هذه المناسبة أن ننسى ثلاثة عوامل أساسية فى تركيب العقاد النفسى لا يسهل معها التسليم بهذه النتائج الساذجة · وأول هذه العوامل قوة بنائه العصبى الذى يصحو بالعراك والنزال حتى يشتد ميله للأكل واقباله على متع الحياة وميله بعد ذلك الى الدعابة والمزاح · وكان وجهه يتورد وتعلو جبهته ويتفتق ذهنه بعد كل خصام· فشموخ العقاد الفكرى لا يهتز ولا يلين بل يزيد ويرتفع فى مثل هذه المواقف · وكان العقاد بطبيعته ينظر فى قرارة نفسه باعجاب قليل وضئيل الى كثيرين من الكتاب المعاصرين له على الرغم من حصولهم على أعلى الدرجات العلمية · وكان استصغر شأنهم استصغارا يردع الكثيرين من المحيطين به ويبقى أصحاب الدرجات العلمية على حذر من آرائه وأفكاره ومن أن يضعوا أنفسهم موضع المقارنة به ·

وقد ضايقت العقاد ولا شك أسبقية الدكتور طه حسين والدكتور زكى مبارك عليه فى كثير من المناسبات وبخاصة المناسبات الرسمية والمواقف التقليدية · فامتنع عن الدخول فى تسابق رسمى معهما ومع من يشبههما من حملة الألقاب والدرجات العلمية · وابتعد بلباقة عن المزاحمات العلنية فى المجالس والمحافل واكتفى بتصويب مقذوفاته النقدية الى نظرياتهم ومعارفهم وبتفنيد آرائهم فى المجالس واللجان · ولكن تلميحاته الصحفية كانت تكفى لقذف الرعب فى قلوبهم جميعا واشاراته الى المسائل المعروضة كانت فصل الخطاب · وصار الجميع يخشونه عن جدارة حقيقية لالمامه بالأصول الفكرية والمذهبية والفنية والتاريخية الماما لم يدرك أطرافا منه الا القليلون فى كل أبحاثهم التى قضوا فيها سنوات طويلة من التخصص · والواقع أن ذكاء العقاد الفطرى كان يعلو على كل العقول التى عاصرته كما كان يبلغ أقصى آماد الوصف والبيان والتعريف والابتكار فى عدة لمسات رقيقة لأى موضوع يعرضونه عليه دون حاجة الى تمشدق ولف ولبس مسوح رجال العلم المتنطسين ·

وثانى هذه العوامل أن العقاد شعر بأن هذا الحرمان من الدرجات العلمية هو الذى يشحذ قواه ويمده بالطاقة التى لا تنفد من الخلق والابتكار· وكان عنده ثقة لاحد لها بأن هذا الذى يكتبه ويؤلفه لا يمكن أن يوازيه

فيه أكبر الأدباء والكتاب المعاصرين له ولو كانوا من أصحاب الألقاب والمناصب الهامة . كانت ثقته في قلمه وعلمه ومقدرته لا نهاية لها وكان تيقنه من قيمة ما يكتبه ومن جماله وأصالته فوق أى شك . وظلت كتابات العقاد فى فترة طويلة بين الحربين نوعا من المناجاة الخاصة بينه وبين نفسه او لعلها كانت نمطا من أنماط المنولوج الفكرى . فمعظم هذه الكتابات كانت تتعلق بموضوعات ودراسات لا يفهمها الجمهور ولا يعرفها ويشعر بالاستغراب أمامها . ومع ذلك فلم يكف العقاد عن مواصلة معالجته لأقوى المشكلات الفكرية كأنما يعالج موضوعات غاية فى البساطة ويتناول بقلمه شروح الآراء والنظريات التى تعد من صميم الفلسفات الدقيقة وكأنه يتناول مسائل فى منتهى السهولة واليسر . بل كان يستغرب هو نفسه كيف أن الناس يجدون صعوبة أو شذوذا فى تناول موضوعات المعرفة الخالصة التى تهم كيان الفكر والثقافة والأدب .

فقد ظل العقاد اذن يجول ويصول فى ميادين أصول الفلسفة ومذاهبها وفى تحليل جزئياتها الخاصة بالسببية وعناصر الوجود وطبيعة الحياة ونظريات نيتشه وشوبنهور وكانت وداروين وماكس نورداو وآراء جون استيوارت مل وهيوم دون أى اعتبار لملاحقة الجمهور له أو عدم ملاحقته له . وقد تولد هذا الشعور فى نفسية العقاد منذ الصغر . فقد كان تلميذا بالمدرسة الابتدائية حينما عرض المدرس على الفصل الذى كان فيه مسألة من مسائل الحساب . وكانت المسألة تحمل مجهولين لا مجهولا واحدا كالمعتاد فى المسائل التى سبق عرضها على التلاميذ فى تلك الآونة . وانكب التلاميذ جميعا على المسألة يقلبونها على شتى الأوجه من أجل حلها . ولكنهم لم يصلوا الى الحل . وظل العقاد يقدح ذهنه فى حل المسألة عصر ذلك اليوم بالبيت وسهر عليها الى ساعة متأخرة من الليل حتى وصل الى طريقة فى الكشف عن نتيجتها . وفرح بذلك فرح التلميذ الذى وصل الى اكتشاف كبير . وفى الصباح ذهب مسرعا الى المدرس يعرض عليه الحل الذى توصل اليه فاذا بالأستاذ لا يشجعه أو يبدى له الاعجاب وانما يقول هذه العبارة : « وايه يعنى ياسى عباس » . وتأكد عباس من شىء واحد وهو أن جدوى مايعمله تعود عليه هو نفسه ولا تتوقف على أى تقدير أو تشجيع أو ثناء . ولذلك استمرت جهوده العقلية تهمه هو وحده ويعرف أنها ستؤدى الى نتيجة كبرى عندما يحين حينها . وقد وجدت أفكاره فعلا تربة صالحة فى أفكار شبان الفلسفة والأدب الذين لم يتأثروا بنظرات التجهم التى اعتاد أن يراها فى عيون جمهور ما بين الحربين .

كذلك لم يغفل العقاد قيمة التفكير المنهجي وأحس بأنه قد يكون ثمة قصور في موقفه العلمي ازاء أبناء الجامعات . فبدلا من الاكتراث بتصحيح وضعه بين معاصريه على أساس نقدهم عليه نراه يقبل على تأليف كتاب كامل عن فرنسيس بيكون أستاذ المناهج والأصول الفعلية للأبحاث والدراسات . فهو يغطي قصوره بتقديم دراسة واعية عن أصول البحث العلمي عند أكبر دارسي المنهج في العصر الحديث . وكان ذلك في مقام التلبية لاحتياجاته الشخصية ازاء علماء الجامعات .

والعامل الثالث الذي استأثر بعقل العقاد فحماه من الوقــوع في أمراض الاحساس بالقصور والنقص وأنقذه من الشــعور بالحرج أمام أصحاب الشهادات هو أن العقاد نفسه اتجه الى التأليف عن الشخصـيات وعمل ترجمات حياة للشعراء والأنبياء وكبار المفكرين . وتنبه العقاد الى شيء هام جدا في حياته وهو أنه هو نفسه الذي لا شهادات له يقــوم بمنح الشهادات الى كبار العباقرة والمفكرين والقواد والشخصيات . لقد كانت ترجمته وكتابته لسيرة من السير نوعا من الشهادة للشخصية التي يكتب عنها . واختص باكتشاف الجوانب الرائعة في كل شخصية من هذه الشخصيات حتى أحس العقاد بأنه يستعرض ملامح من يترجم له على نحو يثبت عبقريته في ناحية من النواحي ولا يبزه فيها أحد .

كانت كتب العبقريات ودراساته عن ابن الرومي وجوته وشكسبير وبرنارد شو ترفعه الى مستوى من يقدم الى هؤلاء جميعا الشهادات التي تميزهم بالعبقرية والنبوغ والامتياز . ووجد لذة كبيرة في كتابة التراجم والسير . لهذا كان حماسه في اثبات دعواه التي يفتتح بها ترجمته لكل هؤلاء نوعا من استعراض قدرته وقواه العلمية في اثبات كفايته هو نفسه في تقدير النابهين والأذكياء . وكأنما يقدم في كل كتاب دعوى تشــبه دعوى الأكاديميين في بحوثهم الجامعية للدكتوراه . وكأنما يفتقر هؤلاء العباقرة الى شهاداته التي لولاها لظلوا مغموطي الحق مجهولين من الناس . فدراساته هي شهادات لمن تلزمه ورأيه في شخص ما يكاد يكون من الاتزان والدقة بحيث لا يصح له أن يجنح به نحو الهوى في معاملة معاصريه .

ولكن من حقنا هنا أن ننوه بأن العقاد في ســـنواته الأخيرة كان يفضل تشجيع الشبان وتزويدهم بالنصيحة في عملهم على الاستمرار في استخدام حرفية مناهجه ومقاييسه . وظل العقاد في أخريات أيامه ينادي في كل اللجان والمجالس بضرورة فتح المجالات أمام الشباب لخلق جيل

جديد من الكتاب والباحثين والمؤلفين والشعراء • وقد حكم كل الذين شهدوا العقاد فى أمثال هذه المواقف أنه تنازل عن كثير من احكامه ودعاواه • ولكن الواقع أن العقاد كان ينظر الى الناس فى أخريات أيامه كأب شبع من الدنيا ويود لو يترك فيها من ينهض بالأمور ويحمل أمانة الفكر ويكتب فى أبواب الشعر والأدب بحيث تبقى حضارة العرب وآدابهم فى مأمن من عبث العابثين •

والعقاد الذى حبس نفسه ساعات طوالا فى سنيه الكثيرة من أجل الدرس والبحث كان يشعر بمسئوليته أمام الحياة وأمام الأجيال التى تليه وأمام رغبات روحه التى تود الاستمتاع بجوانب الوجود • وكان يبحث عن الأعماق والأبعاد ولا يود أن يقبل على سخافات الحياة على نحو ما يفعل الكثيرون • وأدرك العقاد دقة الرسالة التى يتحمس لها فى اعطاء الشباب نماذج من الجرأة والاقدام والاخلاص والتضحية والانسانية فجعل من شخصه نموذجا يحرص على أن يظل فى عقول الجميع محل الهيبة والاحترام • ومع ذلك فلم يحرم نفسه الأخذ من الدنيا بالنصيب الذى يشبع رغباته ونزواته •

وأذكر أننى ذهبت للقاء « الأستاذ » فى يوم من أيام شهر أكتوبر سنة ١٩٤٩ • وقد ذهبت الى الموعد فى الوقت المحدد تماما ولكنه لم يكن متعجلا لانهاء اللقاء وأخذ ينساب فى حديثه كالمعتاد كأنما التقينا للدراسة والاستقصاء • وصار ينتقل من موضوع الى موضوع بلباقته المعهودة دون أن يذكر شيئا عن الصورة الكبيرة التى كنت قد طلبتها منه ودعانى فى ذلك الموعد لاستلامها • فقد شعرت بحاجة ماسة الى تزيين غرفة الزيارة ببيتى باحدى صوره الكبيرة لأننى كنت أجتمع فيها بمجموعة كبيرة من الأصدقاء ليلة الخميس من كل أسبوع • وكثيرا ما كنا نتحدث عن العقاد وأغلب الحاضرين كانوا من المحبين له والمعجبين به • وعندما طلبت اليه هذه الصورة أعدها لى خصيصا فى أحد أيام وسط الأسبوع ثم قال من بين كلماته فى ذلك اليوم منبها اياى الى حقيقة وضع الأديب : ياسيد ديدى (هكذا كان يدعونى) الأدب فردية وانفراد ولا تشغلنك الحياة العامة بمطالبها والتزاماتها عن مهمة الأدب الحقيقية • فاذا شئت أن تصير أديبا فاحرص على الابتعاد عن الناس ومقابلاتهم وحاجاتهم والزم العيش فى فردية تحقق لك غاياتك •

وقد مضى على ذلك اللقاء وقت طويل • ولكن هذه الكلمات التى قالها لى وهو فى مقام الارشاد والتوجيه أشعرتنى بأن الرجل فى قرارة

نفسه كان يشعر بالمهمة الأساسية التي أوقف حياته لها وكرس كل جهوده لاشباعها واستيفاء جوانبها . كانت هذه الكلمات أكثر تعبيرا عن مضمون رسالته هو نفسه وعن حقيقة فهمه وتفسيره لعلمه كأديب .

وكان العقاد شديد التأثر بكل ما يحيط به ويفرط في الاهتمام بكل شيء يقع في دائرة ادراكه ومعرفته . كان يبذل من نفسه الشيء الكثير كما كان يبدي غير قليل من الانشغال بما يقع في حدود المامه الشخصي . وهذه الرقة المفرطة من قبل مشاعره نحو المشـــغوليات العامة هي التي كانت تدفعه بل لعلها كانت تجبره على التخفف منها بضـــرورة الانزواء والابتعاد .

فالعقاد أحد الناس الذين يبذلون قصارى ما يملكون حينما تشغلهم عاطفة أو احساس نحو أي انسان أو أية مشكلة . انه يعطي كل نفســـه للحادث الذي يشغله أو للانسان الذي يقدر متاعبه أو حاجته . ولذلك كان يعطي نفسه هذا المظهر الكبير من الجدية والصرامة والبأس . والسبب الحقيقي لعدم زواجه هو خوفه من اضافة مشـــغوليات الى مشـغولياته واهتماماته . فهو رجل عطوف جدا ويخشى أن يترك العنان لعواطفه . وكانت ترد في كلماته أحيانا عبارات تشير الى استصغاره لبعض الناس من العمال والفلاحين أو من أصحاب المناصب الكبيرة . كثيرا مانقل عنه بعض الكتاب عبارات يلمس القارىء فيها عنجهية أو شـــموخا وكبرياء بنفسه على أوساط بسيطة أو عاجزة من الناس . وكلماته كانت تشير أحيانا الى شعور بالوضاعة لبعض العاملين في مضـــمار الخدمات أو الصناعات .

ولكنني لا أحسب هذه الكلمات الا نوعا من التخفيف لغلواء اهتمامه هو شخصيا بهؤلاء الأقوام العاملين في الخدمة والزراعة والصناعة . كان شديد التأثر بأقل الكوارث أو الأحداث التي تنزل بالفقراء ولم يشـــعر قط بقدرته على حل اشكالات هؤلاء الناس طالما كان الوضع الاجتماعي كله بغير أساس وبغير استقرار . كان يبحث عن العلاج ويهتز في قرارة نفسه لمظهر البؤس العام في بلادنا . واذا كانت العبارات التي اعتادت أن تفلت من فمه على الصورة التي نقلها بعض الكتاب بحيث يبدو العقاد للناس صاحب شموخ وغطرسة . . فما أحسب هذا كله الا نوعا من التعبير لنفسه ولمن حوله . كان يجد في هذا الأسلوب ضربا من العزاء الحقيقي للمشاكل التي كانت تضنيه . لقد تغلب على آلام احساسه بمأساة مجتمعنا على هذا

النحو مما يسميه البعض غطرسة . ولكن الذى يعرف داخلية نفس العقاد ومقدار ما ينفقه شخصيا من الاعانات لأقاربه وصحبه وبعض الأسر الفقيرة التي كان يعولها يدرك مدى خفقان قلب هذا الرجل الشديد لكل نوع من أنواع الألم .

في الواقع كان العقاد ينصهر ويجزع جزعا شديدا لأنواع الألم والفقر وضيق الحياة ببعض الناس . بل كان يبلغ ذلك به حد المرض . لذلك لا يعرف العقاد من يحكم عليه من كلماته التى كان يدارى بها جزعه هو شخصيا لمرأى التعس والبؤس . كان لا يطيق أى مظهر من مظاهر المعاناة . ومع ذلك فقد احتاج دائما أن يعوض نفسه وصحبه عن معاني الألم فبث فيهم كل مشاعر الكبرياء والعلو وعدم الشعور بالحرج أمام متاعب الوجود . أراد أن يجعل الجميع يشحذون قواهم للارتفاع بالهموم الى درجة السمو النفسي واعتبارها طاقات للعمل والخلق . وكاد يوما يحسبها سبة أن أبلغه أحد الجالسين في ندوته أن صحيفة لبنانية نشرت عنه حديثا فيه كثير من التفسير لهموم الشباب ومتاعبهم . وقال : هموم ايه يامولانا . فليذهب الشباب الى حيث يتخلصون من متاعبهم الجنسية وسيجدون بعد ذلك أن الأسطورة وحدها هي التى تبرر لهم الكلام عما يسمونه بالهموم !

وكاد يحسبها سبة وتجريحا أن ينسب اليه كلام عن هموم الشبان . وهو أعرف الناس حقا بآلام حياته عندما كان شابا يسلك سبيله نحو تثبيت قدميه في ميدان الأدب والفكر بل ومن أجل أن يحقق لنفسه القوت والعلاج الضروريين ، وكان أعجب شيء في تاريخ حياة الفكر المعاصر أن العقاد الذى نشأ فقيرا وكافح طويلا طول حياته يكابد ويعانى من أجل تقرير الأفكار والمثل والاحتفاظ بطابع معرفى صادق في كتاباته دون أن ينزل عن مستواه من أجل الرزق واجتلاب المال على نحو ما يفعل الأغنياء المترفون من أدبائنا . كانت حياة الفكر والمبادىء أول ما يخطر على باله من المشاغل والهموم اذا صح أن في الحياة هموما ترعى ومشاغل تقضى . أحس بأن وجوده كله معلق في هذا الخيط الدقيق خيط أصحاب الرسالات العليا ولم يرد أن يصبغ أعماله بالغناء الفنى المتألم من أجل أن يقهر كل ضروب التردد والعجز والجبن في الحياة .

لذلك ضحى العقاد بالكثير من أجل مسئولياته ورسالاته وأوفى كل مطالب الشباب وحاجاتهم الى الزاد الروحى والعقلى الأصيل من أجل

الابتعاد عن الانكسار والحزن واليأس . وكنت تجد تلاميذ العقاد يخرجون من عنده ظهر أيام الجمع وقد امتلأت قلوبهم بالمصل الواقي من الشذوذ والانحراف . كان منبعا من منابع الروح والاخصاب الفكري وكان معينا لا ينفد من المبادىء والقدرة على الصراع والشجاعة أمام الحياة . وهكذا انتصر لنفسه وانتصر لتلاميذه وظل الجميع من حـــوله ينظـــرون اليه ويشعرون بأنه يقول بلسانه ويكتب بقلمه كل ما يحبون أن يقـــولوه ويكتبوه . وسكتوا هم لأنهم أحسوا بأن الأستاذ يغنيهم عن أن يقولوا أي شيء . حسبهم أن يتابعوه بالنظر والقلب والحب الدفين الصادق .

العقاد وبرنارد شو (١)

صادف كتاب برنارد شو للعقاد شعورا بالاستغراب لدى الناس وأثار فيهم غير قليل من الدهشة عندما عرفوا مؤلفه .

فلم يكن من المتوقع أن يخص العقاد برنارد شو بكتاب كامل ، ولو كان على صورة تعريف وجيز . لأن التقارب بين الذهنين بعيد ، ولأن الاختلاف بين كل من شخصية العقاد وشخصية برنارد شو فى العمل الفنى محسوس . ونلاحظ بعد ذلك أن العقاد قليل الاحترام والتوقير لبرنارد شو كرجل مفكر مسئول . ويلى هذا فى تعليل الغرابة التى وجدها الناس من كتاب العقاد أنهم وجدوا أنفسهم بازاء نمط جديد فى الترجمة لم يكونوا قد اعتادوه من قبل عندما قرءوا العبقريات . فالكتاب جديد أولا فى نوع الشخصية التى يتناولها ، وخصوصا اذا عرفنا أن العقاد لا يكتب عن انسان الا عندما يحصل التوافق الذهنى أو التجاوب النفسى بينه وبين صاحب الترجمة . ولعين هذا السبب تردد فى أن يخص عثمان ابن عفان بكتاب من كتبه التى ألفها عن شخصيات المسلمين القدماء .

(١) نشرت بمجلة الثقافة القديمة فى العدد ٥٩٦ بتاريخ ٢٩ مايو سنة ١٩٥٠ .

وجديد من ناحية ثانية فى طريقة الترجمة التى اتبعها العقاد وانتهجها من ناحية تبويبه وتأليفه • فلم ير القراء كتابا للعقاد مليئا بهذه الصورة ، محتشدا بهذه الغزارة ، ماضيا بهذه السرعة ، الا كتابيه عن جوته وفرنسيس باكون • وكأنما شاء العقاد أن يشترك فى حركة النقل التى يقوم بها المصريون للتراث الغربى ، وأن يوقف أبناء العربية على هذه الشخصية الفريدة المعاصرة ، حتى يفهموا صاحبها ويقبلوا على كتبه ، ويبحثوا أدبه ، وينظروا فى حقيقة فنه وقيمة أعماله وروح العصر التى تمثلت فيه • فجاء الكتاب وافيا بهذا الغرض على أجمل نحو يستطيعه كاتب •

والحق أن الكتاب محتاج الى توضيح حتى تزول الغرابة التى نشأت عنه فى قلوب الناس • فلا بد من أن نراعى دائما ذلك الفارق الطبيعى الذى يوجد بين كتاب خاص بفرد كل قيمته حياته، وبين كتاب آخر يخص فردا كل قيمته فكره • فترجمة الحياة شىء وترجمة الفكر شىء آخر • وشتان بين الكتاب الذى تضعه لتؤرخ حياة واحد من الناس ، وتبرزها فى صورة روائية فنية ، وتدرس أفعاله دراسة نفسية ، وبين الكتاب الذى تؤلفه من أجل أن تكشف عن فكر ذلك الانسان فتخرج أعماله الأدبية اخراجا دقيقا مبحوثا ، وتبين آراءه بشكل منهجى ظاهر ، وتعرض وجهات نظره فى المسائل المختلفة • انك مضطر ولا شك اذا كنت بصدد انسان ذى حياة خطرة عميقة ومعاش قيم صاخب أن تجعل الكتاب بأسلوب يغاير ذلك الأسلوب الذى تتبعه وانت بصدد الترجمة لانسان يكاد يكون عديم الحياة. وقدر فى نفسك أنك تضع كتابين أولهما عن شاعر كبير أو كاتب مثل أوسكار وايلد ، وثانيهما عن فيلسوف مثل « كانت » ، فهل تمضى فى الكتابين على سنة واحدة ؟ وهل تنظر الى الترجمة الأولى نفس النظرة الى الترجمة الثانية ؟ فهناك فارق هائل اذن بين الكتابة عن الأفراد من ذوى الحياة ، وبين الكتابة عن الأفراد من ذوى العمل الفكرى أو الأدبى •

ليس هذا فحسب ، انما ينبغى أن نراعى شيئا آخر • وهو أن الكتابة عن الأديب المعاصر الذى لا يزال حيا تخالف الكتابة المتعلقة بواحد من الذين قضوا وأصبحت حياتهم موضوعا من موضوعات التاريخ • ولذلك تستحيل حياة الانسان الذى تترجم له الى موضوع فنى عقب موته مباشرة، ويستطيع المترجم فى هذه الساعة أن يسجل على صاحب الترجمة أشياء قد يكون من العبث أو من غير المستحب أن يعرض لها بالذكر وأن يتناولها بالتعليق والنقد فى أثناء معاشه • ويندر أن يحاول كاتب ما أن يترجم

الانسان حى ترجمة وافية مفصلة • ويسرى هذا الشعور بين الكتاب كما لو كان اتفاقا مرسوما • وعلى الرغم من أن هذه الطريقة شائعة فى فرنسا اليوم ، أعنى أنهم يجعلون من مفكريهم موضوعات لدراسات وكتب كثيرة ، فمن الصعب أن تجد فى واحد من هذه الكتب كلاما يتعلق بحياة هذا المفكر الخاصة •

ونضيف الى هذا كله شيئا آخر وهو أن الكتابة التى تتناول انسانا لم يكتب عنه فى لغة المؤلف ، لا يمكن أن تكون شبيهة بالكتابة التى تتناول انسانا قد قيل فيه الشيء الكثير باللغة نفسها • فالمؤلف الذى يضع كتابا عن شخصية معروفة لدى القراء يتبع منهجا خاصا ، ويحاول أن يجعل من ترجمته فنا ، وأن يتصرف فيها بقدر ما يستطيع حتى تؤيد فكرة فى باله وحتى تلائم صورة فى خياله • أما الذى يكتب عن انسان لأول مرة فى اللغة التى يكتب بها فمضطر الى أسلوب بالذات ، وملزم باتخاذ منهج معين ، وتفرض عليه فروض أخرى غير تلك التى تصادف من يترجم لشخصية معروفة • ونلحظ هذا من الاختلاف الشاسع الأطراف بين كتابين من كتب العقاد نفسه كعبقرية محمد وبرنارد شو • فعندما شاء العقاد أن يضع كتابه عن محمد كانت الدراسات والبحوث قد انتشرت باللغة العربية وباللغات الأخرى عن النبى العربى • فأمكنه هو أن يسير على منهج فنى خالص ، وأن يتبع أسلوبا ذاتيا واضحا ، وأن يمضى فى عمله بطريقة تلائم عقله وروحه وتفكيره ومزاجه • أما فى كتابه عن برنارد شو فلم يستطع أن يمضى على سنة خاصة ، ولا أن يكون صاحب أسلوب ذاتى بائن ، وانما راح يستعرض شخصية برنارد شو من جميع وجوهها ، وأخذ يسقط أضواءه الكاشفة على نواحيها المختلفة ، ويجرى بريشته على صفحة روحه ، حتى أخرجها فى هذا الثوب الجميل الرائع • والكاتب فى هذه الحالة ينظر الى نفسه بوصفه ناقلا أكثر مما يحسب نفسه صاحب فن وابتكار • ولذلك يعمل كل ما فى وسعه من أجل أن يوقف المصريين على جوانب تلك الشخصية المتفتحة فى عالم الغرب ، والتى تتأثر بها التيارات الفكرية هنالك • فالكتاب الأول فى لغته عن شخصية من الشخصيات الغربية لا يمكن أن يكون متخصصا ، ويستحيل من ثم أن يكون العمل الذاتى بارزا فيه واضحا فى ثناياه •

واذا استعرضت فى قلبك هذه الحقائق ووعيتها فى صدرك استطعت فى النهاية أن تدرك عمل العقاد فى هذا الكتاب • فهو يمضى أولا بروح عامة تجعلك تقف على نفسية صاحب الترجمة ، وتجعلك تفهم مدار

شخصيته ومحيط فـــكره • وهى فى الوقت نفسه تنيح لك ـ من جهة ثانية ـ أن تلم بجميع النواحى المتعلقة ببرنارد شـو فى فنـه وعلمـه وفلسفته • وتعطيك فى تلك الحالة مفاتيح لكل المنافذ التى يمكنك بها أن تدخل الى الرجل فى شتى مناحى الابتـكار والابداع فى مؤلفاته • ولهذا يمثل الكتاب عتبة للكتب التى وضعها برنارد شو ومقدمة لدراسته بصورة واعية ذات هدف •

فينبغى من ثم أن يفهم الذين أغضبهم أسلوب العقاد فى هذه الترجمة الجديدة لبرنارد شو أن الكتاب قد خضع لمؤثرات معينة ، وأنه قد جرت عليه ضرورات ليس من شأنها أن تصادف كل من يختص بكتابة التراجم على الدوام• ولذلك جاء الكتاب بهذا الشكل الخارج على حدود المنهج المعتاد فى تراجم العقاد • وينبغى أن نفهم أيضا أن العقاد ليس بالكاتب الذى نخاف عليه من محاولة التصوير الشامل واستعراض أفكار الآخرين • فالعقاد لا ينسى نفسه أبدا، وهو هو فى كتاباته منأهونها شأنا الى أعظمها مقاما ، ولا يمكن الا أن يكون صاحب ، ـكرة تبدو من وراء الـكلام الذى يورده على لسان غيره • فهو كاتب ذو اتجاه ، وكثيرا ما يسقط هذا الاتجاه على الذين يترجم لهم حتي لتحسبه هو نفسه المتكلم وليسوا هم • وفىأغلب الأحوال كان ينطلق فى الـكلام عن تجاربه الشخصية اذا ما تشـابهت مواقفه ومناسباته الجزئية مع ظروف الانسان الذى يترجم له •

فمثلا لو حاولت أن تقرأ هـذا الكلام التالى من غير ذكر للمصـدر لحسـبته من كلام العقـاد ذاته : « ان العقل وحده لا يكفى لفهم جميع الحقـائق ، فالعقل يبين لك الطريق ، ولكنه لا يبين لك البـواعث التى تحركك الى ذلك الطريق • أو بعبارة أخرى يبين لك الوسـائل ولا يبين لك المبادىء والغايات » • كذلك يرد ضمن كلامه أن الديانات التى تؤمن بها الجماعات البشرية عامة لازمة ، محترمة فى نظره وتقديره • ويغلب أن يكون لزومها عنده لزوم المصلحة الاجتماعية والنفسانية التى لا غنى عنها للجماعات أو الآحاد • ولا يصلح الانسان على كل حال بغير ايمان •

فها هنا فى غضون هذا الكلام يبرز لنا العقـاد برأسه ، ويظهر أمامنا بفكره وأسـلوبه ورأيه • فالعقـاد قد يختفى وراء ستار ،ولكنه يخرج الينا ويطل علينا كلما أحس أنه بصدد مجال من المجـالات التى ينبغى له أن يؤكدها وان يقـوى من ايمان الناس بها • وهذا ضرورى فى حالة ما يكون الانسان بصدد عرض فكرى أو عمل يراد فيه التعريف بالآخرين أكثر مما يراد منه التعريف بالكاتب نفسه •

وعندما قرأت كلمة العقاد التالية « ان أعاجيب برنارد شو كثيرة ، وأعجبها فيما نظن هذا التناقض التام بين الصورة التي يستوحيها قارئه عن حياته الخاصة من كتبه وآرائه ، وبين الصورة الحقيقية التي يعرفها كل من عاشروه واختبروه • فالقارىء يستوحى من كتبه وآرائه صورة رجل غارق فى الاباحة والشذوذ عن العرف ، والمتعة بما تمهده له وسائل الشهرة والثروة • ولكنها أكذب صورة للرجل كما عرفه صحابته ومعاشروه •» •• وجدت نفسى أقول : وأى فرق بين العقاد وبين برناردشو فى هذه الصفات التى اعتاد الناس أن يلصقوها بكل منهما ؟ اننى لو حاولت أن أكتب عن العقاد نفسه شيئا لقلت عين هذا الكلام بصدد تاريخ حياته وعند التعرض لآراء الناس فيه • ولا تكاد تجد تعبيرا ينفعك عندما ترغب فى الوقوف على نفسية العقاد ذاته مثل هذا الكلام الذى جاء على لسانه ، كأنما يترجم خاطرا فى قلبه ويحكى به حقيقة معاشه ويفصح به عن احساس يساوره •

فهذه المشكلة ذاتها يتعرض لها العقاد فى كل يوم ، بل أستطيع أن أزعم انطباقها على العقاد أكثر من انطباقها على سواه • ولم أجد انسانا قط يعرف العقاد معرفة صحيحة من الكتب والمقالات التى ظل ينشرها بين الناس منذ فجر هذا القرن ، ولا من الأحاديث التى تتناوله عادة وتجرى باسمه فى المجالس والندوات • حتى لتحسب من شدة الغرابة التى تتسم بها معلومات الناس عنه ، ومن شدة التناقض بين حقيقته وبين صورته فى أذهان القراء ، أنه لا يعيش فى مصر ولا يحيا بين أهلها •

ويختتم العقاد كتابه بفصول تعد ضرورية فى كل ترجمة • فهو أولا يعقد فصلا يبين به وجهات نظر النقاد فى برنارد شو ، وآراءه هو نفسه فى الآخرين ، من أجل الوقوف على مبلغ فهمه وطوية نفسه وطبيعة خلقه ومقياسه الذى يقيس به الرجال والأعمال • فها هنا ، وهو يتكلم عن الآخرين ، ويبدى رأيه فيهم ، ويشرح فكرته عنهم ، نواجه أهم ما فى طبائعه وخصاله ، وأعنى به وحى تفكيره وشعوره وخلجات ضميره ، فالحق أنه من المهم جدا أن يعرف الناس حكم الآخرين فى صاحب الترجمة وحكم صاحب الترجمة فى الآخرين • فمن ذلك كله تتضح شخصيته وهو فى مجال الاختبار ، وتتبدى أخلاقه من كيفية حكمه على سواه من الناس وهو فى مجال التقدير والوزن • والمقياس الذى تحتكم اليه أنت نفسك فى تقدير الآخرين له أهميته فى الدلالة على باطن قلبك ومدى تصورك وجانب تفكيرك واتجاه عقلك •

ثم يأتي بعد ذلك فصل عن برنارد شو ومصر • وهو فصل مهم غاية الأهمية ، ممتع الى أقصى حدود المتعة • ففيه تجد تعريفا هاما بما دار فى أثناء حادث دنشواى ، وبما جرى من صدام بين المصريين والانجليز ، وبما تولد عن ذلك من النتائج • ثم فضلا عن ذلك نحس فى كلمات برنارد شو عن مصر ابان تلك الأزمة ما يكشف لنا عن ضـمير الرجل وقلبه ، يقول العقاد بعد هذا مباشرة : « والتعريف بهذه الناحية الانسانية لازم فيما يكتب عن برنارد شو حيثما كان كاتبوه ، غير أنه ألزم ما يكون فى كتاب ينشر فى مصر لقراء اللغة العربية » • وقد اعترف له العقاد بأن أحدا لم يكتب عن قضية دنشواى ما يضارع حملته ، فى صدق الدفاع ومضـاء الحجة وشدة الغيرة على المظلومين فى الحادث المشئوم • وقال : ان حملته قد شـملت الوزارة البريطانية والبرلـان الانجليزى لأنهم لم يمنعـوا تنفيذ الحكم بعد تبليغه ، وأنه طلب الافراج عن السجناء من أهل القرية بوصف ذلك أقل تكفير ينتظر عن هذه الكارثة البربرية •

ثم قال العقاد : « وقد يرد على الخاطر أن برنارد شـو وقف من قضية دنشواى موقف الايرلندى الحنق من الدولة البريطانية ، فمن خطر له ذلك ليغض من غيرته الانسانية فى موقفه هذا فتصحيح خطئه يزيد الرجل فضلا على فضله، وبيانا لغيرته الانسانية الخالصة فى دفاعه • اذ كان بين الضباط البريطانيين المشتركين فى الحادث اثنان ايرلنديان من أبناء قومه ، فشملهما باللوم الذى شمل الآخرين » •

ويبقى بعد ذلك فصلان من الكتاب • أما أولهما فيحاول العقاد فيه أن يعطى صورة مجملة عن شخصية الرجل كما وردت فى كتبه وكمـا استطاع العقاد أن يدركها وأن يفهم ملامحها وأن يتبين خطوطها • ولم يكن بد من أن يتعرض العقاد فى هذا الفصل لروح النكتة عند برنارد شو ليستكمل بذلك ما جاء فى الفصل الخاص بأحاديثه • فهى من أبرز صفات الرجل ، ولعلها أن تأسر الكثيرين من محبيه أكثر من أية صفة أخرى فيه • ويفسرها العقاد بعد أن يوازن بينها وبين نكتة فولتير فيقول : « ويبقى بعد هذا جميعه أن البراعة الفنية هى غاية ما ينشده برنارد شو من نكاته ولذعاته ، وأنه قد ينسى الواقع والصـواب ، بل ينسى التبعة الأدبية فى سبيل البراعة واللعبة البهلوانية المتقنة • ويبدو لنا أن تعليل هذه الخصلة فى الرجل والكاتب على السواء غير عسير ، فانه ورث من أبيه وأمه معـا قلة الاكتراث بالأوضاع القائمة ، وقلة الشـعور بالتبعة والمسئولية ، وكثيرا من الاسـتخفاف بما يهم الناس ويلعجهم ويضطرهم الى الجهـد والتدبر الطويل • أما تعليل تلك الخصلة من الناحية الفنية فقد نلتمسه

فى شيئين اثنين : أحدهما نشأته الموسيقية وانصرافه الى العزف والايقاع منذ صباه الباكر ، فأصبح الوقع عنده مقدمـــا على الجوهـــر واللباب ، ولا سيما الوقع الذى يتوخاه من لم يبلغ من الفن الموسيقى مبلغ الرجل الذى يؤدى فيه معانى الجوهر واللباب • وثانيهما أنه بلغ سن الكتابة والاشتغال بالمسائل العامة فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، وهى الفترة التى كثرت فيها الدعوة الى نبذ كل قديم والتعلق بكل جديد ، فأصبح الاغراب والابداع مقدمين على التحقيق والتمحيص، وأصبحت الحاجة الى التنبيه والاعلان لازمة من لوازم الصحافة والمسرح وما يتصل بهما من أبواب الكتابة » •

وأما ثانيهما ـ أعنى ثانى الفصلين الباقيين من الكتاب ـ فهـــو مجموعة من السطور والشذور التى انتقاها العقـــاد بذوقه وبفكره من جملة ما كتبه برنارد شو • وهذه هى عادة العقـــاد دائمـــا فى معظم ترجماته السابقة ، وخصوصا اذا تعلقت الترجمة بشاعر من الشعراء أو مفكر من المفكرين • فجاءت العبارات المنتقـــاة متممة لعمل المترجم عندما يحب لقارئه أن يلقى صاحب الترجمة وجها لوجه من الزوايا التى يحددها ويكشف عنها فى كتابه • وهذه هى النقطة الأولى والأخيرة ، أو لعلها الغرض الأول والأخير من كتابة الترجمة • فاذا استطاع المؤلف أن يوجد اتصالا بينك وبين صاحب الترجمة ، وأن يجرى بينكما صلة ، وأن يرفع من بينكما حجابا ،وأن يدفعك دفعا الى الاقبال عليه والاستزادة منه فقد بلغ أقصى ما يراد من ترجمة تبغى الفن أو تبغى التعريف •

ثم تنتهى من الكتاب وكأنك لم تنته •• فستثور فى قلبك رغبـــة حامية ، وأنت تطوى صفحاته الأخيرة ، لتهب فتأتى بكتاب لبرنارد شو ذاته وتبدأ فى قراءته • ان الكتاب مشجع لنا على النفاذ من تلك الأبواب الجديدة ، وعلى المرور من الفتحات المستحدثة فى عالمنا الفكرى والتى من شأنها أن تخرج بنا الى محيط الغرب الواسع وحياة أوربا الوضاءة •

العقاد والعقائد

نشأ العقاد في شبابه الاول وسط المذاهب المادية ومذاهب النشوء والارتقاء . فاكتسب طبيعة التفكير العلمي المستند الى الأدلة والبراهين . وصار بطبيعته ينفر من الشك كمنهج في التفكير . ثم اجتمعت هاتان الصفتان ليؤيد بهما عقيدة ثابتة وطيدة في خاطره وقلمه وهى عقيدته حيال العرب والاسلام .

أما عن طبيعة التفكير العلمى المستند على الأدلة والبراهين فتظهر من مقـدرة العقاد على استيفاء العناصر التى يقوم عليها موضـوعه من ناحية كما تظهر من ناحية اخرى فى قدرته على التنفيذ والابتكار والتوغل

يمسك العقاد بأى طرف فى قضية من قضايا الفكر أو الأدب واذا به بعد لحظات قد أقر هذه القضية على أسسها العامة ووضعها فى موضعها الأصـيل . ومن عاداته أن يقر الموقف الذى يؤمن به ثم يؤيده بكل ما يستطيع أن يسوقه من الحجج . ويعود فيقلب الوضع وينظر فى النتائج التى تترتب على انكار هذا الموقف . أو هو يحاول أن يبحث الموضـوع ما لم نسلم بهذا الوضع ويأخذ فى استخلاص النتائج التى تنشأ من عدم الأخذ بهذه النظرية ويكشف عن معدنها الذى لايستقيم . واذا بالقارىء لا يجد مندوحة عن التسليم بالراى الذى ساند به القضية المعروضة .

فهو لا يكتفي عادة بالاثبات الايجابي للراي الذي يأخذ به وانما يتبعه بالاثبات العدمي الذي ينبني على عدم الأخذ به فاذا به في صالح الموقف الأصيل . وهو يتبع هذه الخطة في كل ما يكتب حتى لتبدو آراؤه ومؤلفاته كالصروح والأبنية التي تستمد قوتها من الدعائم الضاربة في أعماق الأرض . شيء مخيف مذهل اسمه منطق العقاد . وهو منطق لا تخفى عليه ناحية من نواحي القضية ولا يفلت منه احتمال .

وهذا المنطق لا يعمل في اتجاه واحد وانما في اتجاهين متكاملين : يزكي ويعزز من جهة حتى يضمن اقرار السليم وتأييد النافع ويقاوم او يناوىء من جهة أخرى حتى يطمئن الى ابعاد ما لا يستقيم وتسخيف ما لا يليق . وهو يعبر عن موقفه هذا في كتابه « في بيتي » حين يقول (ص ٥٢) : « وهبنا لم نعرف طريق الصلاح ، أفيمنعنا هذا أن نحذر طريق الفساد ؟» .

ويتساءل العقاد (ص ٥٨) «: ألا يمكن أن يعيش الانسان على هذه الأرض وهو في غنى عن هذه الفلسفة التي يسمونها سر الوجود ؟ » ويجيب على ذلك بقوله « بل هي آخر شيء يستغنى عنه الانسان . وما انت مستطيع أن تطل من هذه النافذة أو تبدأ عملك في الصباح ما لم تكن لك فلسفة وجود على نحو من الأنحاء .

« مرحلة الحياة يا صاحبي كجميع المراحل التي نقطعها من مكان الى مكان . لا تركب القطار حتى تحصل على التذكرة ولا تحصل على التذكرة حتى تعرف الغاية التي تسير اليها . غاية ما هنالك من فرق بين راكبين أن أحدهما يقرأ التذكرة والثاني لا يقرؤها . أو أن أحدهما يؤدي ثمنها من ماله والثاني يؤدي له الثمن من مال غيره . وان أبيت المجازات فاحد الراكبين في مرحلة الحياة يبحث عن غايتها بنفسه والآخر توصف له غايتها بلسان غيره .. لا بد يا صاحبي من هذه الفلسفة التي تريد أن تلقي بها في اليم وأنت على الشاطىء . وثق يا صاحبي انها آخر شيء يلقيه راكب السفينة حين تلعب به الأعاصير في البحار اللجية . بل هي الشيء الذي لا يتركه ولو ترك السفينة أو تركته الى الأعماق . ألم تسمع قولهم في الأمثال : « انهم كالنواتية لا يذكرون الله الا ساعة الغرق ؟ » .. فاعلم يا صاحبي ان هذا الذكر هو فلسفة الحياة التي تبقى مع راكب السفينة بعد كل بضاعة يستغنى عنها وبعد السفينة نفسها اذا حان حينها ! » .

واذا شئنا ان نصف العقاد بتسميات العصر الحديث لقلنا عنه انه يميني متطرف . ومع ذلك فهو لا يبلغ درجة الثقل أو الجمود التى يبلغها عادة أصحاب اليمين . وهو كذلك متحرر الى درجة بلوغ اقصى اليسار فى بعض الأحيان وكثيرا ما كان تلاميذه يشهدون متناقضات مذهلة من هذه الناحية . والواقع أن العقاد هو الذى كان سببا فى زعزعة اركان العقيدة والجمود فى نفسيات معظم تلاميذه ومحبيه . ولكنه هو نفسه أيضا كان سببا فى اقامة الدوافع العقيدية فى قلوبهم من جديد على نحو طليق فريد متحرر . والعقاد لا يتخبط أبدا ولديه الجواب فى كل لحظة لكل سؤال وبشأن كل مشكلة . والتردد والشك ليسبا من سماته . ولكنه كان يمر بحالات تعجب فيها من أن هذا البدن وهذه الارادة تستطيع ان تفل هذا الكيان العقلى الى هذا الحد . فقد كان عقل العقاد وروحه يحتاجان الى قوى من السماء لتمدهما بما يكفل له الهدوء والاستقرار فضلا عن خدمة قضايا الفكر والروح والايمان . كان عقل العقاد وقلبه يحتاجان الى قوى خارقة للتحكم فى ميوله وقواه ونزواته وثوراته فؤاده واعجب شيء فى حياة العقاد أنه استطاع بنفسه أن يوازن بين هذه القوى الثائرة الجامحة التى لا تهدأ ولا تسكن فى قرار ضميره .

طاقة من الكهارب والذبذبات والبراكين والحمم والثورات والحروب اسمها العقاد . لهيب بارق وفورات جامحات ونوازع مضطربة متناقضة سكنت هذه النفس السخية الأبية وكأنها فى مأواها الأمين ، الذى لم تجد اليق منه مستقرا ، حومة من حومات الوغى الحامى فى عصر الذرة والصواريخ قد استقرت فى باطن العقاد ولم تجد ميدانا لها أنسب من عقله وضميره .

هذا هو العقاد .

وقد صب ما بنفسه أحيانا أو بعض ما بنفسه فألهب منهم الهمم وشحذ مواهبهم وأجلى ملكاتهم وظهر أمام محدثيه وتلاميذه بكل خلجات عقله وهفوات خاطره كأنه مجمع لشتى النوازع والميول والرغبات . اذا شئت أن تنسبه الى أى مذهب من مذاهب الأرض لوجدت فى كلماته وافكاره ما ينم عن بذور وأصول تلك المذاهب ولأمكنك أن تضعه فى قائمة أصحابها والمنادين بها . حتى السلبيات الهندية وحتى مراتب الحكمة الصينية يمكنك أن تضعه فى صفوفها كأنه أحد أبطالها الساكنين القانعين .

وأحسن مثل أدبى تركه العقاد تعبيرا عن كيانه الباطن مخففا الى نحو واحد من اعشار حقيقته الذائبة الهدارة المائجة هو المحادثة الشخصية التى دارت بينه وبين نفسه فى الفصل الثانى بعنوان «دعوة» فى قصة سارة .

ولكن العقاد لم يكن يميل الى آداب التعبير الحزين او القانط أو اليائس وكان اذا أمسك بالقلم أحس بمسئوليات الأرض والسماء تهبط على أكتافه كملائكة الرحمة .. لا تفارقه ولا يتهاون فى رعايته لها وحدبه عليها . فاذا بكل الهموم تزول من خاطره واذا بكل حماقات الطيش والنزق تختفى من محياه ولا يبقى له سوى المنطق السلس المستقيم والفكر الواضح البين والآراء الهادئة المستتبة .

وكأنما كانت الاغلال تقتاده الى التطرف اليمينى . ولكن الواقع أن هذه اليمينية كانت مسرحا لفكره الخلاق البناء . والواقع أن العقاد ما كان ليحتمل مواقف الشك او الافكار المقفلة . وكانت طبيعة ذهنه تستقيم وتتلاءم مع ميله الأصيل الى التدعيم والارساخ .

واشار العقاد الى هذه الحقيقة فى كتابه « فى بيتى » (ص ٨٧) :
« قال صاحبى وهو يومىء الى الصور واحدة بعد واحدة : هذا موسيقى المانى وهذا حكيم انجليزى وهذا مصلح افغانى وهذا وزير وهذا مفت وهما مصريان ؟ فما الذى جمعهم فى صعيد واحد وهم بهذا التفرق فى المواطن والشواغل والأهداف ؟

قلت الجد والكفاح ونبل السليقة وقلة الاستخفاف .

لذلك اهتم العقاد بشرح مذهب وليم جيمس فى ارادة الاعتقاد حين قال (ص ٨٩ – ٩١ من كتاب « القرن العشرون ما كان وما سيكون »)
واحرى بالمفكر العصرى أن يتوسع فى مذهب الفيلسوف الكبير وليم جيمس الذى شرحه قبل هذا القرن العشرين فى مقاله البديع عن ارادة الاعتقاد (سنة ١٨٩٧) وسماها أحيانا بشجاعة الاعتقاد . وحجة المفكر العصرى فى ذلك أن الزمن قد تقدم بنا كثيرا فى هذه الوجهة وفرض علينا شجاعة أدبية غير الشجاعة الأدبية التى كانت مفروضة علينا فى عصور الحجر الظالم والتقليد الأعمى والاستسلام الذليل للخرافات والأوهام خوفا من اغضاب الطغاة أو اثارة الدهماء . ففى تلك العصور كان الشك واجبا عقليا وكان اعلان الشك شجاعة أدبية نفسية . ولكن هذه الشجاعة فى عصرنا هذا سيف يضرب فى الهواء وحرب فى ميدان.

حتو من الاعداء . وانما الشبح الجديد الذى ينقاضانا شجاعتنا الأدبية هو شـــبح العناد فى الانكار والانطلاق الى الطرف الآخر . وهو طرف الاحجام عن اظهار الاعتقاد أو الميل اليه خوفا من مظنة التأخر والجحود فاصبح الانكار مجاراة للعرف أيام الجهالة والجمود .

« يقول وليم جيمس : ان القضية التى ادافع عنها هى ان طبيعتنا الوجدانية لا يحق لها بل يجب عليها أيضا أن تفصل فى مسألة الاختيار بين الآراء كلما كان الاختيار بينها داعية صدق لا تقبل الحل بالوسائل العقلية . لأننا اذا قلنا فى هذه الحالة : دعونا نترك الباب مفتوحا . فهذه حالة وجدانية لا تختلف عن القول بنعم أو بلا . وفيهمـا نفس المجازفة بفقدان الحقيقة ».

فالعقاد لا يحب أن يهمل اثبات نظرته والحماس لها ولا يكره شيئا قدر كراهيته للتأرجح بين الآراء فى غير تحديد لموقف بالذات . وكذلك لا يحب العقاد الاستخفاف بمسائل الرأى والنظر العقلى واللامبالاة فى شئون العقيدة . انه يحســم دائما فى كل الأمور ولا ينتهى به بحث قط دون تسجيل وجهة نظر معينة ازاء كل ما سرده من الحقائق .

وهو يقول فى هذا المعنى فى مقدمة كتابه عن عقائد المفكرين (ص٦)
« ان الانكار نفى والنفى لا يزداد ولا ينتظر الزيادة . وانما تكون الزيادة فى جانب الاثبات والتقرير . فما كان محاولة غامضة فى زمن من الأزمان يصبح محاولة واضـحة فى زمن آخـر . ثم يصـبح محاولة ناجحـة أو متفائلة بالنجاح فى زمن يليه . ثم ينتقل من المحاولة الضـعيفة الى محاولة قوية ومن المحاولة المتفرقة الى المحاولة المجتمعة ومن المحاولة جملة الى الثبوت والقرار على وجه من الوجوه .

« فقد انتهى انكار المنكرين عند النفى الحاسم ووقف عنـده فلا مزيد عليه ».

« أما العقيدة فهى التى تحاول وتجتهد وهى التى تفتح الأبواب الجديدة بابا بعد باب وهى تلتمس الطـريق ولا تقف عند الغـابة التى لا طريق بعدها كما فعل المنكرون ».

ويعود فيقول فى التعقيب النهائى على المعتقدات فى نفس الكتاب (ص ١٦١) : « ان عقائد القيم الانسانية تقف بالانسان دون الغابة سواء

نظرنا الى طبيعة العقيدة وما تتطلبه من القوة والشمول أو نظرنا الى أطوار الانسان فى علاقاته بما حوله .

« نعم ان القيم الانسانية تؤسس فى خلائق الانسان الايمان بالواجب وان قيامه بواجبه يبعث فيه الثقة والطمأنينة والعزاء . وانه متى عرف القيم الانسانية عرف الأحسن والأكمل وأعرض عن القبح والنقيصة ومتى اهتدى الى الواجب بين ما هو حسن وما هو قبيح صمد له وتبين طريقه فى ظلمات المجهول .

« ولكنه ولا ريب لا يكتفى بهذا الواجب لو علم بما هو أكثر منه وأكبر . وانه لا يستغنى معه عن سند له وسند للنوع الانسانى كله . ولا يجد هذا السند فى شىء كما يجده فى عقيدة تشمل الكون وما فيه بل تشمل الكون وما وراءه وتحيط بالزمن بغير ابتداء ولا انتهاء . وتلك عقيدة لا تملكها القيم الانسانية ولا تدعيها اذا ملكتها فانما تملكها بالرمز والاشارة وترفعها باختيارها فوق القيم الانسانية جمعاء».

واذا استند العقاد فى كتاباته عن التراجم الى القيم الانسانية المحضة فهو فى مجال العقيدة يستند الى ما هو أكثر من القيم الانسانية. انه يستند الى حقيقة الوعى الفردى ازاء الكون من جهة وازاء النوع من جهة أخرى . وفى رايه أن مسألة وجود الله مسألة وعى قبل كل شىء فالانسان — كما يقول العقاد (ص ٢٠٩) فى كتاب « الله » — له وعى يقينى بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ولا يخلو من وعى يقينى بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية لأنه متصل بهذا الوجود بل قائم عليه .

والوعى والعقل عنده لا يتناقضان وان كان الوعى أعم من العقل فى ادراكه . لأنه مستمد من كيان الانسان كله ومن ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه . ويبقى بعدذلك أن الوعى أعم من العقل المجمل وأعمق منه وأعرق فى أصالة وجوده مع الحياة الانسانية منذ نشأتها الأولى . ويعتقد العقاد (ص ٢١٠ كتاب الله) أن الوعى الكونى المركب فى طبيعة الانسان هو مصدر الايمان بوجود الحقيقة الكبرى التى تحبط بكل موجود.وما زالت صورة الكمال المطلق مقترنة بصورة الحقائق السرمدية فى بدائه العقول . واذا رجعنا الى تاريخ الايمان فى بنى الانسان وجدنا ان اعتماده على الوعى الكونى أعظم جدا من اعتماده على القضايا المنطقية والبراهين العقلية وانه أقوى جدا من كل يقين يتأتى من جانب التحليل والتقسيم .

والعقاد لا يهمه في هــذا أن يخضــع للآداب والخطط والمراســيم الاسلوبية التي يصطنعها أصحاب النظر العقلي المدرسي وهواة التصنيف المنهجي ولا يعبأ الا بأن يتابع خطوط تفكيره الاساسية . فالعقاد ــ كما سنرى بعد قليل ــ لا يحفر لنفسه قنوات مذهبية متكاملة وانما يحقق استكمال غزواته الفكرية ليرى الثمرة وقد أينعت مع التعميق والرعاية والتعهد . فقد تقول عنه انه مادى مبالغ في تقدير أوضــاع الحيــاة بلوازمها وضروراتها ولكنه يرفع رأســه حينئذ ليقول : نعم مادى يرى الجمال والحرية فى الخلاص من المآرب المادية واستشــعار القدرة على مغالبة الطبيعة والحياة . واذا قلت عنه انه روحى رفع رأسه ليقول : نعم ولكننى أمسك بتلابيب المنطق والعقل وأستخرج منهما طاقات الانسان العليا فى الاستدلال على الوقائع والاحداث وأبحث عن مظاهر الســلوك الفردى فى الكائنات الدنيا والكائنات العليا على السواء .

واشتغال العقاد بالآراء والمعتقدات قديم . ونلمح قدرته فى هــذا الجانب من مقال كتبه سنة ١٩٢٦ عند صدور الترجمة العربية لكتــاب الآراء والمعتقدات للمفكر الفرنسى جــ ستاف لوبون . وقد اعتــرض العقاد فى ذلك المقال على فصل جوستاف لوبون فى كتابه بين العقيــدة والرأى . فهما فى نظر لوبون معدنان مختلفان من المبدأ الى النهاية . أما العقــاد فيبرز موقفه حين يقــول (ســاعات بين الكتب ص ٢٤) : « ان الرأى والعقيدة يرجعان فى أساسهما الى معدن واحد لأن رأيك فى شيء واعتقادك اياه كلاهمــا أثر ذلك الشيء الذى يلقيه فى روعــك من طريق واحدة بوسيلة واحدة هى وسيلة المعرفة الفذة المتاحة للانســان . وانما يبدأ الفرق بين الرأى والعقيدة عند التمحيص والامتحان اذ تكون وسائل التمحيص والامتحان ميسورة فى الآراء فتتوقف عليها وغير ميسورة فى العقائد فتقوى على مكافحة النقد وتستعصى على التجربة والبرهان . الفرق بينهما أن وسائل التمحيص والامتحان فى الدعوى الأولى محصورة يمكن التيقن منها بالحس والمشــاهدة ، وأن الدعــوى الثانية وسائل تمحيصــها وامتحانها غير محصــورة ولا هى مما يخضــع لحكم الحس واليقين .

« وعلى هذا يصح أن يقال ان العقيــدة أثر نفسى أو مجموعة آثار يصعب على صاحبها حصر المواد اللازمة لتحليل جميع عناصرها وحد جميع جوانبها . وأن الرأى عقيــدة محدودة العناصر والجوانب يرجع فيها الى مقياس مطرد متواضع عليه . ولزيادة التوضيح نسأل :

هل يمكنك الايمان بالشيء الذى ثبت بطلانه من طريق الراى كل البطلان؟ نعم أن العقـــائد لا تثبت بالبرهـــان · ولكن هل تقوم على الشيء الذى اثبت البرهان بطلانه ؟ لا ولا ريب . فهى اذن معدن لا ينفصل عن معدن المعرفة كل الانفصال وكونها لا تقوم على البرهان لا يدل الا على أمر واحد . وهو أن البرهان ليس بعنصرها الوحيد » .

والأصل فى الاعتقاد بالله عند العقاد هو صلة العطف الانسانى . « فربما أتى على الانسان زمان كان يؤمن فيه بآلهة لا حكمة لها ولا عظمة بل بآلهة خرقاء ظالمة تجور على الناس بغير قانون ولا نظام . ولكنه لم يؤمن قط باله خلا من صلة العطف الانســـانى كيفما كان ادراكه لنو العطف الذى يرجوه عند ذلك الاله .

« ان الكون عظيم لا تحده العقول ولكن عظمته لم تغننا عن الايمان بالله لاننا حين نؤمن انما نطلب شيئا غير العظمة فيمن نؤمن به . وذلك الشيء هو العاطفة والصلة النفســية واليقين بأن الحكمة الالهية مرتبطة بحياة كل فرد منا وليست حكمة نضيع نحن فى اغراضها ومراميها .

«وعندى أن الايمان فطرة فى الانسان لأن الايمان فى صميمه هو التلاؤم بين النفس وبين الوجود الذى هى مخلوقة فيه . ولن يعقل ان يكون تنافر بين موجود وبين الوجود . وانمـــا يعترينا القلق حين نريد التصديق ونحتم على أنفسنا أن تصدق بأمور معينة لامحيد عنها . فعند هذا يكف المرء عن التصديق بتلك الأمور اذا لم تواته الأدلة والبينات .

ولكنه لن يكف عن الايمان وفيه أمل ولن يكف عن الأمل وفيه حياة » .

(ساعات بين الكتب ص ٣١٧ ــ ٣١٨) .

ويكره العقاد مذاهب الشك بطبعه . وهو ينفر من الشك نفورا يقربه من فلاسفة الفكر المحدثين . وستقرأ فى كلامنا عن كتابه « اللغة الشاعرة » مقارنة بينه وبين الفيلســوف الألمانى هو سرل فى جملة من المواقف . ونجد أنفسنا الآن مسوقين الى التمهيد لهذه المقارنة بنظرة كل من الرجلين الى الشك .

ففى مطلع هذا القرن كانت الشيخوخة قــد حلت بالفلسفة . لم تعد الفلسفة قادرة على مواجهة الصعوبات التى وضعها الفلاسفة انفسهم فى طريقها . وكان من الطبيعى أن تبتعــد الفلســـفة عن محيط العلوم

الجدية بعد أن فارقها كل من علوم النفس وعلوم الاجتماع واصبح من العار أن ينتسب علم من العلوم الى مجالات الميتافيزيقا .

وكاد العلماء والفلاسفة يستسلمون لهذا المصير الذى أصاب الفلسفة على يد ابنائها . فشيخوخة الفلسفة قد صارت مضرب المثل فى الانحراف والمرض والخوف . واستعمل الكثيرون أدق الأسلحة وأخطرها حتى أتوا على كل ما تبقى فى قلب الفلسفة من مقاومة ورغبة فى الحياة . ولكن الله لم يرد أن تنتهى الفلسفة بهذه الصورة وعاد فرزقها بابن من ابر ابنائها بها واكثرهم رعاية لها وحدبا عليها وهو الفيلسوف الألمانى ادموند هوسرل الذى أردنا الموازنة بين موقفه وموقف العقاد فى الشك. فقد رفض هوسرل أن يقبل ما تواضع عليه الجميع من احتضار الميتافيزيقا وأقبل بكل ما أوتى من قوى على مجالاتها المختلفة حتى بث فيها الروح القوية من جديد وتمكن من ان يعيد الى الفلسفة شبابها الحق . ولم ينتصف القرن العشرون حتى كانت الفلسفة قد استكملت رونقها وازدهارها .

والتفرقة بين مجال العلم الخالص والفلسفة الخالصة التى كانت تنغص على الفلسفة حياتها لم تعد تقدما وارتقاء بالنسبة الى العلم وحده بل بالنسبة الى الفلسفة ذاتها كذلك . وقد أصبح الفلاسفة يجدون من بينهم من يشكر العلماء والداعين الى الفلسفة الحسية والمادية على جهدهم الذى بذلوه لابعاد الفلسفة عن العلم . لقد كان هذا الابتعاد نفسه سببا فى ان تقف الفلسفة على قدميها من جديد مثل شاب فى أينع سنى حياته . أو بعبارة أخرى كان هذا الموقف ذاته اول خطوة أدت الى أستعادة التفكير فى أبواب الميتافيزيقا داخل اطار فلسفة الظاهريات.

وانشقت الوجودية عن جانب من جوانب الظاهريات على يدهيدجر تلميذ هوسرل .

ورسمت الظاهرية لنفسها منهجا يدعو الى الاستمساك بأسلوب الفكر الحديث فى تناول المشكلات وطرح مالا يعرض منها للعقل البشرى فى أسلوب تلقائى وتجنب الهياكل والقوالب والمقولات والمبادىء القبلية فى مضمار الميتافيزيقا . وألحت الظاهرية على اعتبار الفلسفة علما للماهيات أولا وقبل كل شيء واعتبار العقل قادرا على استشفاف ماهيات الموجودات من ناحية أخرى . فبهذا العنصر الجديد تصبح الفلسفة علما له كل مقومات المنهج .

وفى سنة ١٩٢٩ القى هوسرل عدة محاضرات عن الظاهرية فى باريس وفى ستراسبورج تحت عنوان مقدمة الى الفلسفة المتعالية . وكانت هذه المحاضرات تعالج فلسفة الظاهريات على ضوء أفكار ديكارت الفلسفية . ثم عاد هوسرل فطبع هذه المحاضرات سنة ١٩٣١ تحت عنوان : (تأملات ديكارتية) والمشكلة التى واجهته فى هذا الكتاب هى كيف يمكنه اعادة التبنى لعلم الفلسفة على نحو ما فعل ديكارت حتى يضمن لها أقصر طريق لاستعادة الشباب والحيوية بين العلوم المختلفة . فصار من الواضح بهذا العنوان أن هوسرل يطمع فى أن يكون أبا للفلسفة المعاصرة على نحو ماكان ديكارت أبا للفلسفة الحديثة . كذلك أراد هوسرل أن تستقر الفلسفة كعلم ثابت بين العلوم له كل مقومات الاصالة والجدية والقوة والحياة .

ولكن أهم من هذا كله هو أن هوسرل أراد أن ينتزع الفلسفة من براثن الشك الديكارتى وأن يستبقى منها مع ذلك قوة الـ (أنا أفكر) أو الكوجيتو وأصالته كدعامة لموضوعية وجودية حقيقية . فيكون الكوجيتو بذلك هو العنصر الذى لا يقبل الشك ويثبت كل موضوعية حقيقية فى عالم الوجود وفى عالم المعرفة . وتنبنى حقيقة العلاقات بين الذوات الانسانية على حقيقة الكوجيتو الفردى فتصطبغ من ثم بصبغة الجدية وعدم احتمال الشك .

وفكرة الموضوعية نفسها تستمد حقيقتها عند هوسرل من الذات. لأن كل الحقائق تبدأ من الظاهرة التى تتقدم الى الحواس الانسانية . أى أن المدركات الحسية هى الأصل فى بناء الكيان الخاص بالعالم الخارجى . ولكن الظاهرة نفسها لا تصبح ظاهرة الا اذا تخللتها الموضوعية . والموضوعية لا تنشأ الا بأن تكون الظاهرة خاضعة لاشراف الوعى الانسانى . فهى مستمدة من الوعى الذى يتجه اليها وهى لا تقوم الا بالاحالة المتبادلة بين الظاهرة وبين الوعى الذاتى . والوعى الذاتى هو الحقيقة الصلبة التى تنبنى عليها كل حقائق الوجود والمعرفة وكل مسائل النظر والفكر . ولكنه هو نفسه ليس أكثر من مجموع ما يتجمع فى الشعور من مدركات . فتكون الذات بذلك جملة ما ينعكس من العالم الخارجى وقد تجمع على صورة اهتمامات واتجاهات نحو المحسوسات.

والاحالة المتبادلة لا تتكون بين الوعى وبين الأشياء المحسوسة فقط وانما أيضا بين الوعى عند أحد الأفراد وبين الوعى عند فرد آخر أو مجموعة أفراد آخرين . فتشابك الذوات الانسانية يتم عن طريق

الاحالة المتبادلة بين هذه الذوات . وهذه الحقيقة هي التى تؤدى الى تداخل الذوات تداخلا يسمح باقرار مانسميه بالوعى الجماعى وباقرار أسلوب الفكر العالمى وقواعد العقل الأساسية .

فهل يمكن أن نشك فى هذا العالم الذى يرافقنا باستمرار فى كل مراحل تجربتنا العادية ؟ ويجيب هوسرل بأن ديكارت كان قد الح على فكرة الشك بقوة ولكن يمكننا أن نقول ان محاولته فى الشك الكلى هي فى الواقع محاولة انكار أو نفى كلى . أما نحن فنكتفى برفع فكرة الشك ونضع محلها فكرة الوضع بين أقواس . ولكن هذا الوضع بين الأقواس لا ينبنى على الشك بحال ، وانما يقوم على أساس اعتبار مسألة من المسائل موضع نظر . فلا شيء يستطيع أن يطرأ على موضوع من الموضوعات أو أن يهزه طالما استبنت له عناصر الوضوح .

والشك نفسه لم يوجه هجومه الى هذا العالم الذى نعيش فيه وانما اشار فقط الى نسبيته او الى مواقفه النسبية . أى أن هجوم المتشككين أراد أن يخلع على الوجود صفة النسبية . ولا تستطيع النزعة الشكية أن تذهب الى أبعد من ذلك .. اما النظرة الموضوعية فهى التى تستند الى حركة الفكر الطبيعى على أرض عالم المعطيات وهى تتأدى من تلقاء نفسها وفى وضوح عن طريق التجربة . ووضوح التجربة المؤداة الى الفكر يكفى للحكم بأصالتها وصدقها .

والعقاد يرى أيضا أن وضوح المعالم الخاصة بالتجربة كفيل بنقض كل شك يثور حولها . وهو يرفض الشك بطبعه وينفر منه ويراه انكارا ونفيا يؤدى الى تعطيل البحث أكثر مما يؤدى الى تقدمه . وقد عاش العقاد كل تجارب الشكاك والمتشككين خلال الأزمات التى مرت بالفكر العربى الحديث قبل الحرب العالمية الأولى بقليل ثم ما بين الحربين . وأحس بوطأة الشك ولكنه استخف بدواعيه ولم ير فيه أصالة أو جدية توحى بأهميته المنهجية واعتبره انهاء للبحث قبل الشروع فيه .

ولكن ذلك لم يجعله يغفل الأثر الحقيقى الناجم عن الاقدام على الشك . ان الشك فى حد ذاته عملية بسيطة ولكنها فى عصور الظلم والطغيان والكبت أدت الى مالم تؤد اليه اضخم الثورات والحروب وقد لعب الشك دورا خطيرا فى حياة البشرية وعندما ظهرت النهضة العلمية الحديثة كان أول أثر من آثارها — فى رأى العقاد — هو اطلاق الذهن الفردى من التقاليد التى ظلت مفروضة عليه عدة قرون فاستباح لنفسه الشك والمناقشة .

ولذلك تراه يقدر ديكارت من هذه الناحية وحدها فقال (رينيه ديكارت بمجلة الكتاب عدد ابريل ١٩٥٠) : « وكذلك أدخل ديكارت فكرة الشك فلم يأت بشيء رائع ولاشيء جديد . ولكن كم قد ترتب على هذه الفكرة من تقدير حق الفكر الانساني بعد أن كان مسلوب الحقوق ؟ وكم قد ترتب على الاعتراف بحقوق الفكر من التغير الحاسم فى النظر الى طبائع الأشياء ؟

« ان ديكارت كان يبحث عن حقيقة واحدة موثوق بها ثم يتكفل اذا وجدها بعرض جميع الحقائق عليها والخروج بها من ظلمات الشك التى تحيط بها الى ساحة النور .

« وقد اعتقد انه وجد تلك الفكرة حين قال : « انا أفكر انا موجود» واثبت وجود فكره أولا بهذه البديهية المسلمة فى نظره .

« فان كان قد أصاب أو كان قد أخطأ فليس المهم هنا صوابه أو خطأه . وانما المهم أنه أعلن حق الفكر في زمن كانت جميع الحقوق الفكرية فيه مستمدة من التقليد الأعمى والتقيد بكل حرف من حروف الأقدمين .

« وسيبقى الاعتراف للعقل بحق الشك أكبر دليل على الايمان بعقل الانسان على تعدد صور الايمان . فاذا قلت «شك حتى توقن» أو قلت : « جرب حتى تثبت » أو قلت : « ابحث حتى تعرف » فأنت على وفاق مع ديكارت على مبدأ واحد متعدد الاساليب . ولهذا كان أيضا ممهد الطريق الى أساطين العلم التجريبى ومناطقة الحس والاختبار » .

هذه المشاكل تتعلق بالفكر حين يعانى من وطأة الأوضاع والتقاليد والقيود . أو هى تتعلق بالمراحل البسيطة من مراحل التقدم العقلى وبالخطوات التى لا ترتسم فيها معالم الوضوح . أما التعمق العلمى فيتطلب مزيدا من التعمق والجدية والايجابية ويستلزم عدم التوقف بدعوى الشك . واذا ارتبط الشك بمصائر البشرية فهو عامل ايجابى فى خلق الحقوق الفردية نحو التثبت واليقين .

واذا ارتفع الأمر الى اثارة الشك من أجل اغراض مغايرة لهذا الغرض البشرى النبيل فالعقاد يفطن بسرعة الى الهدف المقصود ويكرس كل منطقة لخدمة القضية التى يؤمن بها أو التى يرى أن تهديدها هو تهديد لدعامة روحية أو قومية عند العرب . ومن الممكن فى كثير من

المواقف أن تلمس يسارية واضحة عند العقاد ولكن اليمينية تعني عنده أكثر من مجرد انشغال بقضايا البلاد . انها تعني عنده القدرة على تخطي العقبات في مضمار البحث وتنمية العناصر التي تدعم المعرفة وتساندها . أو هي تعني استزادة التعميق للاتجاه الذي يمضي فيه المرء حتى يقطع أشواطا مستحدثة ولا يكف عن التوسع بحجة الانكار .

وحينما ثارت مشكلة الشعر الجاهلي لم يذهب الى احقاق الموقف الذي تردى فيه الدكتور طه حسين في العشرينات من هذا القرن . ولكنه تنبه الى ازدواج المشكلة حين ارتطمت باوضاع السياسة . فموضوع حرية الفكر وعدم اخضاع أهل القلم والبحث لأصحاب السلطان يهزه هزا عنيفا . ولعب العقاد دورا خطيرا في مساندة الدكتور طه حسين صاحب البحث أمام الجهات الرسمية وتحت قبة البرلمان . وكان العقاد يعتقد أن هزيمة الفكر في هذه الازمة هي هزيمة منكرة سيعقبها افتيات أصحاب الحكم على رجال الاقلام .

ولكن من جهة أخرى لم يكن العقاد يعتقد في سلامة النظرية ذاتها . وقال العقاد في رهط من صحبه هم الأستاذ على أدهم والأستاذ عبد الرحمن صدقي والمرحوم عبد القادر المازني وغيرهم اننا اذا اتبعنا خطة الدكتور طه حسين على نحو ما يفعل حيال الشعراء الجاهليين لشككنا في وجوده هو شخصيا . فالبعض يقول انه أزهري وآخرون يقولون انه درس بالسوربون والبعض يقول انه صعيدي وآخرون يقولون انه متزوج من سيدة فرنسية والبعض يقول انه مسلم وآخرون يقولون انه رزق بولد اسمه كلود وبابنة ذات اسم فرنسي ، والبعض يقول انه ضرير وهو يقول في كتاباته عن المؤلفات والمراجع والمسرحيات : قرأت وشهدت ... فمن هذه الروايات المختلفة الى حد التناقض يمكن القول بأنه غير موجود .

والتقط هذه الفكرة المرحوم المازني وصاغها في مقال طويل هجوما على نظرية الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي بجريدة البلاغ .

والواقع أن العقاد أحس بالدوافع غير السليمة التي تكمن وراء نظرية الدكتور طه حسين وشعر بأنها ترتكن الى مواقف المستشرقين المغرضين . ولم يكن العقاد معترفا بأحقية المستشرقين بالحكم على آدابنا منا نحن أنفسنا . وكان يقول لو أن المستشرق كان قادرا على النقد والفهم للأدب لاشتغل بآداب بلاده ولأبدى قدرته على التذوق في معالجة الانتاج

الأدبي في لغته الاصلية • وكان يرى أن بعض المستشرقين فضلاء حقا فى تقديمهم للمناهج العلمية والنظرات الخاصة بأسلوب البحث الى جمهور المثقفين العرب • ولكنه كأن يلمس عند غيرهم غير قليـــل من الرغبة فى زعزعة العقائد وتشويه الحقائق التـــاريخية العربية المتصـــلة بالتراث ورجاله •

ويقول العقاد (ص٧٢ – ٧٤ من مطلع النور – طبعة الهلال) :
« وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى أمر اللغة العربيـــة قبـــل الاسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم انهم يحسبون أن علماء المســـلمين يلقون في بحث تلك الأبيات وصبا واصبا ليتكروا نسبتها الى الجاهليـــة ولا يلهمهم الذوق الأدبى أن نظرة واحدة كافية لليقين بادحاض نسبتها الى امرىء القيس أو غيره من شعراء الجاهلية •

« وهذه النظرة الكافية هى التى تعيى الناقدين المستشرقين وهى أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر فى الأدب كل التعويل ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير •

« كذلك يتسع سبيل الجدل فى انكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط • وكذلك يجوز الخطأ فى محاكاة كلمة أو بضع كلمات ولا يجوز فى السطور والصفحات •

« أما المستحيل ، أو شبيه المستحيل ، فهو تزوير أدب كامل ينسب الى الجاهلية ويصطبغ فى جملته بالصبغة التى تشمله على تباين القائلين والشعراء • فاذا جمعنا الشعر المنسوب الى الجاهلية كله فى ديوان واحد فمن المستحيل أو شبيه المستحيل أن نجمع ديوانا يمـــــاثله من كلام العباســـيين أو كلام الأمويين المتأخرين • واذا قل الفارق بين الشـــعر المخضرم والشعر الاموى الاول والشـــعر الجاهلى فتلك آية على صـــحة العلامات التى تميز الشعر الجاهلى وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذى لم يفترق عنـــه افتراقا بعيدا بزمانه وثقـــافة قائليه وبيئاتهـــم فى المعيشة ومناسبات التعبير • فلا يتشـــابه الشعر الجاهلى والشـــعر المخضرم ان لم يكن بينهما ميزان مشترك مع انتمائه الى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين •

« ان الملامح الشخصية التى تميز بين الفرزدق والأخطل وجرير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفـــوارق التى تميز بين امرىء القيس وعمرو بن كلثـــوم وزهير • فمن يرى ان خلق دواوين الفرزدق

والأخطل وجرير في وسع راوية واحد فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعا الى راوية أورواة • ولكنه يذهب في الحالين مذهبا لاسند له ولا سابقة من مثله في آداب الأمم ولا نصيب له من الذوق الأدبي غير النبو والاستغراب • »

وقد تفرعت هذه الحمية في الدفاع عن كيان الفكر العربي ومظاهر الروح العربية حتى شملت كل الأسس والدعامات والأصول والمقومات التي تستند اليها حضارة العرب • صار العقاد رويدا رويدا أكبر مدافع عن مكونات الأدب والفكر والثقافة والعقيدة المرتبطة بأرض العرب • وسخر قلمه وعقله ومنطقه لدفع كل ما يمس هذا الكيان بسوء كما أوقف كل جهوده على بث روح الايمان والثقة في نفوس أبناء العربية وأخذ على عاتقه مهمة استيقاظ المشاعر واستنهاض الهمم لدى الشباب الحائر الموزع الأحاسيس • فكتب في المسائل الدينية وجعل الايمان بالاسلام فضيلة يتباهى بها المرء وجعل الانتماء الى العروبة ميزة تعلو على كثير من مميزات الأجناس والجماعات الأخرى •

وظل يناضل في سبيل تقوية الدعائم والمقومات التي يستند اليها الشاب العربي في كفاحه واثبات شخصيته بين جميع الشعوب • وأعطى الكبار والصغار الأمل والقدوة ونفض الخمول والاستكانة والاستسلام للمصير وبعث كل الخصال والطبائع الاقليمية كأنها مكملات ضرورية لرسالة الانسان في الأرض •

ولعل الدافع الوطني والقومي هو الذي زج بالعقاد الى هذا الوضع ولعله كان يستفيد أكثر من ذلك مرات لو ظل يكتب الدراسات والبحوث في أبواب الفنون والمعارف مستقلا عن طابع الكفاح والنضال • ولكنه فضل خدمة قضية العقيدة التي آمن بها وأداء رسالته التي اضطلع بعبئها واستيفاء مسئوليته حيال الجيل الذي عاش بينه على كثير من الفوائد الأخرى • لقد أحس بضرورة أخلاقية تفرض عليه واجبا نحو خدمة الشباب وتثبيت العقيدة والاعتزاز بالعناصر الفكرية القومية وتقوية البراعم الوليدة • واستمد من احساسه بالزهو والمساواة مع أساطين الفكر والأدب بالعالم احساسا أقوى وأكبر بحقيقة الروح العربية وهي في مفترق الطريق •

الفرد في مذهب العقاد

لا ريب اننا بحاجة ماسة الى تحليل موقف العقاد من الفرد وبخاصة أنه قد أثار غير قليل من التكهنات • فالعقاد عاش حياة بها غير قليل من آثار التخلف والخضوع لأحكام العرف والتقاليد ، ولكنه استبقى مظهرا

حضاريا مبنيا على احساسه الذوقي في الاستمتاع بالحياة • فظل دون زواج خشية الطغيان الأسرى على أهوائه الفردية وأحب بقلبه ومزاجه حياة الانفراد والعزلة من أجل المهمة القدسية التي توجه اليها بكيانه وروحه وكل امكانياته • كذلك ظل العقاد يناوىء كل حركة سياسية أو اجتماعية أو فكرية ترمي الى الاستهتار بكرامة الفرد والاستخفاف بقدسية الحق الطبيعي في الرأى للانسان في مظهره الفردى • وانطلاق العقاد في الحياة على حدة جعله يشعر بضرورة تأكيد الوجود الفردى أمام التحولات التاريخية في المجتمع العربي المعاصر حتى لا يصبح للمجتمع سلطان على حريات الافراد باسم المجتمع نفسه • كان يخشى أشد ما يخشى أن يتسلط على زمام الأمور أقوام يأخذون من أى مظهر جماعي حجة من أجل تطويق جميع الجهود والآراء وكبت الحريات والتحكم باسم أى مبدأ ديني أو سياسي في مصائر رجال الفكر والقلم ورجال العلم والريادة الروحية •

وكان العقاد يشعر بأن العصر الحاضر هو عصر التكتلات البشرية التى قد تلتهم فى طريقها كل رغبات الفرد وحرياته • فأراد الدفاع عن الفرد كأنه ذخيرة الحياة الحقة التى تتكون منها وحدات المجتمع ذاته • وعلى الرغم من كراهية العقاد للمذهب الوجودى كبدعة وكفكر الحادى متطرف وكتبرير للانحلال وطغيان النزوات فقد أعلن أن هذا المذهب فى حقيقته الفلسفية أقرب المذاهب الى اعتقاده فى الفردية وفى ضرورة حماية الفردية أمام مذاهب الجموع الحاشدة فى العصر الحاضر • وقال العقاد انه وجودى طالما كانت الوجودية ايمانا بالفردية ، وقال ان المجتمع ليس سوى مجموع الأفراد وأن رعاية الأفراد هى خير وسيلة لبناء المجتمع السليم •

وقد أشارت « سيمون دى بوفوار » الى هذا المعنى تماما ضمن بحث لها عن المثالية الأخلاقية والواقعية السياسية حين قالت : « ليست الجماعية مصنوعة من نسيج آخر سوى الأفراد الذين تتكون منهم • وليس المستقبل نسيجا آخر سوى الحاضر الذى تسعى الى مده • فالجماعية هى مجموع الأفراد الذين لاتزيد حقيقة أحدهم على حقيقة الآخر • والمستقبل ليس الا تتابعا فى اللحظات التى تصبح كل منها لحظة حاضرة على التوالى أى لحظة عبور مؤقت • واذا فضل أحد الواقعيين بهدوء الكل على الأجزاء فذلك لأنه قد تبنى وجهة نظر مادية وعددية • فألف رجل أكثر من رجل واحد اذا نظرنا الى الانسان كشىء معدود • ولكن الكمية ليست من القيمة فى شىء • فألف فرنك أكثر من الفرنك الواحد عند شراء أشياء هى نفسها ذات قيمة • ولكن ألف فرنك وعشر الفرنك تتعادل فى الصحراء • ان الشلال ليس أكبر قيمة من جدول صغير فى نظر الرجل العطشان • والسراب الحسابى هو الذى يجعلنا نعطى دلالة مطلقة الى الكلمات تقريبا• فاذا لم يكن الانسان غاية الا لنفسه فلمن يساوى الألف رجل أكثر من رجل واحد ؟ وليس لذلك سوى اجابة واحدة : له هو نفسه • ولكن هذا التفضيل العددى ليس اذن مسجلا فى الحقيقة الواقعة كما أنه ليس معطى من المعطيات الحادثة • انه لايزال يتوقف على قرار انسانى ؛ واذا أعلن انسان اذن أن تضحية رجل واحد فى بعض الحالات أكثر أهمية فى عينيه من انتصار عشرة آلاف رجل ففى امكانه رفض هذه التضحية : وعليه أن يختار وأن يقرر ما يراه • فالحديث الجامد لايملى عليه شيئا • »

وسوف نرى عند العقاد كلاما من قبيل هذا الكلام فى دراستنا عن فن التراجم عند العقاد • وسبق أن أحسسنا مثل هذه المواقف الوجودية فى خبرة العقاد ازاء القيم • ولكن العقاد لايتردد فى الحسم بما لايدع

مجالا للشك وبخاصة اذا كان الأمر متعلقا بالسياسة والحكم وحرية الأفراد .
وتناول العقاد هذا الباب فى كتابه عن فلاسفة الحكم فى العصر الحديث حين تعرض لآراء الفيلسوف الاقتصادى فون هاييك . قال : « فالجمهرة التى تؤيد الدكتاتور هى بطبيعتها جمهرة مسفة فى طبقة الفكر والخلق تهون عليها حريتها وتهون عليها حرية غيرها . ولا تشعر بفقدان الحرية لأن الذى يشعر بفقدانها هو الذى يقدر على استقلال الرأى فيشعر بالحجر عليه » . (ص ١٢٣) .

والواقع أن المرء ليعجب مثلا من رغبة الشيوعيين من الأدباء مثلا تطبيق الشيوعية فى البلاد التى يحيون فيها على أمل واحد وهو تركيز سلطات الحكم فى يد دكتاتور شبيه بستالين يقضى على الأدباء كما يقضى على الحشرات والبراغيث . والأديب الذى ينعم فى بلاده بومضات من الحرية لكفيل بأن يطالب بزيادة الومضات حتى تستحيل الى مشاعل فى الطريق بدلا من أن يطلب اطفاء الأنوار كافة واخماد كل بريق . والشيوعية الماثلة فى روسيا الآن تمثل حركة الفكر والآداب بغير اعطاء للانسان أية فرصة لأن يقول أطرافا مما يشاء . ولا عجب فى أن يشتغل الأدباء بالكتابة كمسجلى أرقام عدادات الكهربا داخل البلاد الروسية . ولكن العجب كل العجب من أولئك الذين يعيشون خارج روسيا ويتمنون أن تتحقق الشيوعية فى بلادهم . كأنما يرجون من وراء ذلك أن يخفف عنهم الحكام وطأة الحريات المعطاة لهم فى غير جدوى . وكأنما يريدون أن يتساووا مع نوابغ الفكر لمجرد شرف حمل القلم . وقد لايكون ذلك راجعا الى الشيوعية ذاتها وانما الى الأفراد الذين ينتهزون فرص الحكم ويفرضون مطامعهم على كل الهيئات والجماعات . ولكن ليس هناك نظام يسمح بوجود مثل هؤلاء الحكام الطغاة كما تسمح بوجوده الانظمة الشيوعية التى تستمد سلطانها من قدسية المجتمع التى تشبه اللاهوت القديم . « فحكم القسوة والاجرام وضيق الحظيرة وقلة الصبر على الآراء المخالفة ـ كما يقول العقاد (نفس المرجع ص ١٢٥) ـ طبيعة ملازمة للحكومة المستبدة . وقد قيل ان الطغيان يفسد صاحبه وان الطغيان المطلق فساد مطلق فى جميع الأحوال . فاذا اتفق مرة أن يتبوأ عرش الطغيان حاكم صالح فلا أمان عليه من عدوى الفساد والانحدار . »

والصورة الجديدة من النظام الاجتماعى والاقتصادى لمذهب الحريين لاتدل على أنهم يرفضون اشراف الدولة على المرافق التى لايستقل بها فرد أو جملة أفراد . وقد أيد العقاد موقفهم فى عدم رفضهم التقييد الذى توحيه المصالح والظروف على حسب الحاجة المتجددة . وقد يبيح فى عام

ما يحظره فى عام ويخضع فى الاباحة والحظر للرقابة العامة التى تصونه عن فساد الاحتكار وفساد الطغيان وفساد التعسف بالأهواء والنزوات •

ويقول العقاد (نفس المرجع ص ١٣٣) : « واسم الحريين كاف لبيان نباب المذهب بحذافيره ٠٠ فالحرية الفردية أو حرية الضمير الانساني هي الغاية القصوى التى تخدمها كل غاية . وتحسين العيوب مع بقاء الحرية أمل مشروع يجارى سنة الحياة التى تقوم على الخطأ والتجربة والاصلاح • ولكن ذهاب الحرية خسارة محققة بغير عوض مضمون لانه مقدمة لذهاب المصلحة الفردية والمصلحة القومية ومن وراء ذلك ذهاب المصلحة الانسانية وخسارة المادة والروح » .

وحرص العقاد على حرية الفرد لاينبع من رغبته فى تزويد الافراد بالقدرة على مجاراة النزوات والأهواء الرخيصة • بل ينبع من رغبته فى حماية المجتمع ذاته •

ان الهدف من الحرية هنا هو عدم احتكار الاشتغال بالسياسة وايقافه على فئة بالذات من الحاكمين • فالحرية الفردية هي ضـــــمان التربية السياسية والاجتماعية لدى الأفراد من أجل خدمة المجتمع السليم . ويقول العقاد فى وضوح تام (نفس المرجع ص ١٤٩) : « ومهما يكن من تعدد المذاهب وتشعبها فى رءوس الحكماء فرأس الحكمة كلها فى السياسة أن الأمة الفاسدة لن تتولاها حكومة صالحة وأن الأمة الصالحة لن تتولاها حكومة فاسدة •

« وما هى الأمة الصالحة ؟

« من الوهم أن يظن أن الأمة الصالحة لا تعدو أن تكون مجموعة أفراد صالحين . فقد يصلح المرء فردا ولا يصلح عضوا فى الأمة ولا تعتبر الامة صالحة الا بفضائلها الاجتماعية التى يكسبها أبناؤها بالمرانة الطويلة على الحياة السياسية •

« فالصلاح للمجتمع استعداد لا يكسبه الفرد بما تعلمه من المدارس والكتب ولكنه حاسة اجتماعية تتولد فى الأمة من مرانتها على مزاولة الشئون العامة أجيالا متعاقبة حتى تصبح رعاية المصلحة العامة عادة فى أبنائها يباشرونها عفو الخاطر كأنهم لا يقصدونها ولا يتكلفونها • مثلهم فى ذلك مثل الأعضاء التى تشترك فى تغذية بنيتها وتوزيع غذائها بين أجزائها فى غير كلفة ولا روية •

« نعم ان علوم المدرسة والكتاب قد تقرب المرء الى فهم هذه الحاسة الاجتماعية • بيد أنها لاتخلقها لسبب بديهي : وهو أن العادة الاجتماعية تتربى بالاشتراك مع المجتمع ولا تتربى بالفهم والسماع » •

فالحرية مطلوبة لتوفير وسائل التثقيف والرعاية للحاسة الاجتماعية • والحرية يراد بها التمهيد جيلا بعد جيل لتعويد الأفراد على حمل المسئوليات والخطو بالمجتمع نحو أصلح الوسائل لضمان التجاوب مع الأمة ومع مجموع الانسانية • والحرية عبء لأنها تقضي على الفرد بالاختيار • ولذلك يتطلب المران على استخدامها والتلبية لندائها وقتا طويلا وتجارب شتى •

والحرية مراس لمباشرة التعاون مع المجتمع الذى يعيش فيه الفرد • وجاء على لسان العقاد في كتابه « في بيتي » (ص ٥٢ ــ ٥٦) : « ان الطريق الوحيد الذى فتح لنا بين هذه المتاهات هو طريق كتبت عليه كلمة واحدة لاتتبدل في مشكلة من المشكلات : وهي كلمة « التعاون ! » •

« فلا خلاص للعالم بعد اليوم الا بهذا الترياق الوحيد حيثما أعضلت عليه مشكلة في السياسة أو في المعيشة أو في الحكومة أو في الأخلاق • »

« التعاون بين الأمم كبارها وصغارها والتعاون بين الطبقات غنيها وفقيرها والتعاون بين السلطات والتعاون بين الأفراد • ولا اختيار للناس في تعاطي هذا الترياق لأنهم مدفوعون اليه مقسورون عليه بعد نزاع بين الأمم ونزاع بين الطبقات ونزاع بين الحكام والمحكومين •

« خذوا الضرائب من الأثرياء وزيدوا الأجور للعاملين فاذا بكم قد حققتم غرض الشيوعية ولم تمسخوا الطبيعة الانسانية • لأن المالك الذى يؤخذ منه معظم ربحه ضريبة للدولة انما هو موظف في ملكها لايتقاضى من الربح أكبر من أجر الوكيل المؤتمن على مصلحة غيره • وكأنما ملكت الدولة مرافق البلاد كلها ولم تحرم المالكين ذلك الحافز « الفردى » الذى يحث المرء على العمل لغيره كأنه يعمل لنفسه ولأبنائه • وما من شيء يستنهض الهمم للتجويد والافتنان كما تستنهضها هذه الحوافز التي تخلو الحياة من كل طعم اذا خلت منها •

« وانشروا سنة التعاون في التجارة وتدبير أسباب المعيشة فاذا بكم قد أغدتم على الشارى فوائد الرخص والغلاء ووقفتم الاستغلال عند حده الذى يرضاه المنتفعون بالبيع والشراء •

« ان سنة التعاون لاتنتظم في هذه الدنيا لأن المستغلين يقبلونها

أو لايقبلونها ولكنها تنتظم على مقدار الحاجة اليها والايمان بها وغلبة المصالح التى توافقها على المصالح التى تناقضها وتقف فى طريقها .

« وربما تهيأت في وطن ولم تتهيأ في غيره . وربما اسرعت هنا وابطأت هناك . وربما تعرضت دونها الصعوبات حينا ولم تتعرض فى حين آخر ... على انها اذا انتظمت بعد ذلك فانما تنتظم للدوام والتمكن والهداية كما تنتظم فضائل الرشد بعد فضائل القصور او ادب الرجولة الناضجة بعد ادب الطفولة الفجة . وانك لتمنع الطفل ان يمرض وتحميه ان يؤذى نفسه بيديه . ولكنه لا يمتنع عن المرض باختياره ولا يحتمى من الأذى بنفسه الا بعد خبرة عسيرة وتجربة طويلة . من يحرمه اياها يحرمه صفوة وجوده وقوام كيانه ولا يقال انه رءوف به عامل لخيره متعجل لنموه ورشاده » .

والعقاد لا يطرق هذا الموضوع لأول مرة حين ذاك وانما سبق له ان اشار اليه فى مقاله عن السعادة بعد الحرب بمجلة الرسالة القديمة سنة ١٩٤٣ حين قال : « اما مسألة البطالة فالتأمين الاجتماعى الذى تتسابق الحكومات في استنباط مشروعاته كفيل بتخفيف اعبائها عن كواهل الصناع والفقراء على الاجمال . وعلاج هذه المسألة ضرورة قومية فى كل امة لا محيص عن الاهتمام العاجل بها بعد استئناف الصناعة الانشائية للتعمير والترميم . وهذه الضرورة القومية وحدها هى التى تلجىء الدولة قسرا الى علاج مشكلة التجارة العالمية .. لأن المصانع لن تدار بغير تنظيم الخامات والاسواق . ومسألة البطالة والتأمين الاجتماعى لن تحل بغير ادارة المصانع واعادتها الى الانشاء والتعمير . وهذه الضرورة العاجلة هى احدى الضرورات التي قلنا انها كفيلة بتنظيم التجارة بين الأسواق العالمية وانها أقوى واقدر على الغلبة والظهور من ارادة الساسة والحكومات . »

وفى نفس المقال يشير العقاد الى رعاية الفرد فيقول : « فالذي اعتقده ان العالم سيتقدم في سبيل الحرية وان الحرية نعمة وتبعة في وقت واحد . فمن حيث هى نعمة فهى ولا ريب سعادة ينعم بها الانسان . ومن حيث هى تبعة فهى ولا ريب باب للهموم والشواغل وقرينة للعناء الذى يغض من سعادة السعداء . كل تقدم فى الحياة فقياسه الأصدق الأوفى عندى زيادة التبعة لا زيادة السعادة . الرجل اقدر على التبعة من الطفل والعالم اقدر على التبعة من الجاهل والقوى أقدر على التبعة من الضعيف والعظيم أقدر على التبعة من الصغير :

وهكذا في كل باب من ابواب التقدم بغير اختلاف وبغير استثناء . فالمرجو أن يزداد نصيب الناس من الحرية وأن يزداد نصيبهم اذن من التبعة . وهنا موضع المزج بين النعمة والعناء وبين زيادة الرجاء وزيادة المخاوف والمقلقات . »

ويعرض العقاد لنظرية الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراند راسل عن الفرد فيبسطها في وضوح على صفحات كتابه عن القرن العشرين (ص ٥٤) . حيث يقول : « انه من اللازم ان يحمى الفرد من طغيان الجماعة كما يحمى من المخاوف التى تساوره في قرارة وجدانه . وهما ضرران بينهما من الارتباط اشد مما يخطر للكثيرين . اذ يغلب على طغيان الجماعة ان يكون وليد الوساوس والخوف . وينبغى اجتناب القسر فى التنسيق والتوحيد بين الشخصيات الفردية مما يحق للمجتمعات المصنعة ان تخشاه ويجب عليها ان تتقيه بما استطاعت من تدبير . ولا بد من فسح المجال للأفذاذ الموهوبين كالشعراء والفنانين الذين لا يظفرون بالتأييد من اصحاب التقاليد . »

ويشعر العقاد أن النظم والأحوال الاجتماعية لا بد ان تكون ماضية فى سبيلها بحيث تضمن انتقال الفرد من الهوان والضياع الى الكرامة والكفاية . فلا شك عنده من أن التاريخ يتنقل بالانسان الفرد من حالة مبهمة مهملة الى حالة الشخصية المستقلة بحقوقها وتبعاتها المتميزة بكيانها وحرمتها . وليس للتفاضل بين الانسان والانسان مقياس واحد اصدق من المقياس الذى نستمده من وجهة التاريخ بالنسبة للانسان الفرد كما كان وكما يكون مع تعاقب الاطوار وتتابع الاجيال .

وأوجز ما يقال فى المقياس الذى نستمده من وجهة التاريخ أنه المقياس الذى ينبىء عن تكامل الشخصية الانسانية في حقوقها وتبعاتها.

فالعلم يعطينا مقياسه الذى نفضل به العالم على الجاهل . والأخلاق تعطينا مقياسها الذى نفضل به خلق الصلاح والنفع على خلق السوء والضرر . والاجتماع يعطينا مقياسه الذى نفضل به الوجاهة والشرف على الضعة والخمول . والمال يعطينا مقياسه الذى نفضل به الملىء المكتفى بنفسه على العاجز المفتقر الى غيره، والعبقرية تعطينا مقياسها الذى نفضل به الفطنة المبدعة على الذهن العقيم والخاطر الكليل .

وهذه كلها ــ كما يقول العقاد ــ (ص ٩٧ من كتاب «القرن العشرين ماكان وماسيكون») مقاييس صادقة للتفاضل بين الناس فى مواضعها وموضوعاتها .

ولكنها كلها لاتبلغ فى الدقة وفي الصحة مايبلغه القياس المستمد من وجهة التاريخ وهو مقيـاس «الشـخصية» المسـئولة الكاملة : الشخصية التى تسأل عن أعمالها وتحاسب بتبعاتها .

فنحن نخطىء في التفضيل مالم يكن مرجع الفضل الى تلك المزية التى نستمدها من وجهة التاريخ وهى مزية الشخصية الكاملة المسئولة عن تبعاتها . فاذا سكت عن كل فضل وكل صفة وقلت عن انسان انه اصلح للنهوض بالتبعة فقد غنيت عن البيان وجمعت الفضائل بأنواعها ودرجاتها في فرد عنوان اى فى معنى واحد .

ويضيف العقاد «وتلك هى المزية الأولى التى تبرز لنا من متابعة النظر الى وجهة التاريخ : انها انتقال من حـالة الكم المهمل والرقم المتكرر الى حالة الشخصية المتميزة بالحق والتبعة . ولعلهـا المزية التى تعيننا فى كل مفاضلة بين مجموعة من الناس وغيرها من المجاميع الانسانية . وليس مبلغها من الصدق ان تعيننا في اسباب المفاضلة بين انسان وانسـان . فمن قال عن امة من الأمم : انهـا أوفر نصيبا من « الشخصيات » الحرة التي تناط بها التبعات فلا حاجة به الى الاسـهاب في تسمية الفضائل والصفات» .

ويرجع العقاد كل نكسة من نكسات المذاهب المتأخرة فى الطغيان على الحرية الفـردية الى اعتبار الحرية الفـردية ومصلحة الجمـاعة طرفين متناقضين فى نظـر اصحاب تلك المذاهب . (المرجع السـابق ص ٩٩) وهذا فى رأيه كما سبق القول هو أكبر الخطأ فى تقدير المسألة. فالفـردية تبلغ اقصى مداها حين تستفيد من الكرامة والتبعة الدلالة من جهة على سـلامة المجتمع القوى تنشأ فيـه كوحدة من وحـداته وللتهيؤ من جهة اخرى لمواجهة التبعات والمسـئوليات التى تربطهـا بصالح المجموع .

ويقول قاموس الشيوعية: « ان الاسرة شكل من الأشكال التاريخية لتنظيم الحياة المشتركة بين الكائنات الانسانية من الجنسين » . .

اما العقاد فيرى ان الأسرة اعم من هـذا واشـمل وان المجتمع لا يتوقف على اختراعات الأفراد وانما هو من ايحاء النوع بأسره - يقول العقاد : «فالغريزة قـد انشأت الأسرة المتعـاونة بين الحشرات حيث لا عمل للاجتماع قط بمعزل عن الغرائز الحيوانية . وقد اصبح للآداب الاجتماعية في النوع الانسـانى عمل غير عمل الغرائز وماشابهها . فجاز

ان يقال فى بعض العادات والمشارب ان هذا من وحى الغريزة وهـذا من وحى الاجتماع . ولكننا اذا رجعنا بالاجتماع الى اصـوله لم تكد نعزله عن الدوافـع الغريزية أو الدوافع الحيوانيـة البيولوجيـة - لأن الاجتماع على التحقيق لم يكن من اختراع الأفراد وانمـا كان من ايحاء النوع بأسره . »

فالعقاد يكتشف كيان المجتمع ذاته من طبيعة النوع ويستهدى بحقيقة الفرد على ضوء الارادة النوعية في تثبيت الروابط بين الفرد والمجموع . وقد حقق العقاد لنفسه اكبر نصيب من الحرية في تقدير الاعتراف بالفرد وفى تدعيم شأنه في المجتمع فى فترة الحرب وما قبلها فى أثناء حكم الديكتاتوريات الارهابية داخل روسيا وايطاليا والمانيا على السواء . واحس العقاد بمسئوليته ككاتب نحو ابناء هذا الجيل واراد الخروج بهم من ربقة القدرية التى تفرض عليهم سلطان الأحوال والظروف والملابسات .

وبغير هذا الالهام في حياة العقـاد نفسـه ترى ماذا كان يصبح العقاد نفسه ؟.

وكتب العقاد مرة في الرسالة القديمة سنة ١٩٤٣ يقول : « يأخذ بعض الناس بالقول القائل ان الفرد نتيجة منفعلة وليس بسبب فاعل فى الحوادث التاريخية . وان العظيم لا ينبغ في امة الا اذا تمهـدت له دواعى الظهور من تكوين تلك الأمـة . فالعوامل الاجتمـاعية اذن هى موضع البحث والالتفات وليست عظمة العظماء ولا جهود الافراد .

«وهـذا مذهب مبالغ فيـه قـد جنح اليه الاشـتراكيون على الخصوص لأنهم يردون العوامل كلهـا الى المجتمع وعنـاصر تكوينـه ومعيشة ابنائه . ولكنهم مهما يبالغوا فى هذا فلن يستطيعوا أن يزعموا ان العظماء والصفراء سواء وان النوابغ لايقدرون على عمل يعجز عنه المحرومون من النبوغ . ومتى كان مسلما ان النوابغ يعملون وان عملهم لايذهب سدى فهذا هو المهم الذى يستحق النوابغ من اجله دراسة الدارسين واعجاب المعجبين .

« يسأل السائلون الفارغون : من صاحب الفضل فى السياحة ؟ المركب أو البحر أو الريح ؟ .

« وهذا سؤال فارغ كما قلنا لأن السياحة كلمة لامعنى لها اذا انفرد المركب أو انفرد البحر أو انفردت الريح .

« ففى الساعة التى نلفظ فيها كلمة السياحة البحرية تتمثل لنا كل هذه العناصر مجتمعات • ولكنهـا تتمثل أو لاتتمثل تعجز كل العجز عن انكار حق المركب فى اتمام السياحة وحق المسافر فى اختيار بين مركب ومركب وحق الشركات فى انشاء المراكب ورصد المسافات كيفما كانت البحار والرياح •

« وكذلك العظمة المشهورة كلمة تســتلزم وجود الآدميين الذين يشتهر بينهم العظيم بغير فلسفة ولا تعمق ولا استطلاع لمغيبات • ولكن ماذا فى هذا مما ينفى أن العظيم أفعل من الصغير وأن هذه الأفعال جديرة بالتقديم والتأخير فى سير الأمور ؟•

« فالفرد شىء والعوامل الاجتماعية شىء • ومن قال ان الفرد لايهم فقد أنكر الغاية من اصلاح المجتمع كله لأن كل اصلاح لاينتهى الى الاهتمام بالأفراد فهو اصلاح تركه وانجازه سواء » •

كان هذا تعليقا ورد ضمن مقال للعقاد عن فلسفة التراجم فى مجلة الرسالة القديمة عام ١٩٤٣• وهو يكف عن مناقشة هذه الفكرة ولاينتهى قط من سؤال نفسه : هل تتعارض رعاية الفرد مع الاهتمام بالمجموع ؟ أليست رعاية الأفراد فردا فردا هى التى تتحول فى النهاية الى اصـلاح اجتماعى شامل ؟ أهناك تعارض منطقى أو فلسفى بين رعاية الأفراد وتكوين المجتمع السليم ؟

ودأب العقاد دائما على مناقشة فكرة الحرية والفردية والمجتمع فى مقالاته • جاء فى مقاله تحت عنوان « ذبح الفقراء لايحل مشكلة الفقر » بالرسالة القديمة سنة ١٩٤٣ • « اننى لاأقول ان الحرية وحدها تكفى الانسان وتغنيه عن الطعام• ولكنى أقول ان المذهب السياسى أوالاجتماعى الذى يسلبنا الحرية يسلبنا أعز نعمة فى الحياة الانسانية • بل يسلبنا كرامة الانسان ويستحق منـا المقت والازدراء • » وأنا لاأقول ان ازالة الفوارق الاقتصادية بين الطبقـات ترمى الى تقييد حرية الفرد • ولكنى أقول ان تقييد الحرية الفردية لازالة هذه الفوارق نقمة لايرحب بها رجل كريم •

« وأنا أدافع عن الديمقراطية لأنها تؤمن بحرية الفرد وتصلح الناس اصلاح الأحرار المكلفين لا اصلاح العبيد المسخرين •

« ولكنى أمقت المذاهب السياسية الأخرى لأنها تســلب الحرية الفردية ولا تحل المشكلة الاقتصادية • فتحرمنا الكرامة ولا تكفل لنـا

الطعام . وهذا هو الحرمان الذى لا عزاء فيه ولا موجب لاحتماله والصبر عليه الى زمن طويل . »

ويمكننا الآن بعد أن سردنا رأى العقاد فى جملة مسائل الفكر والاقتصاد والحرية والفردية والاجتماع أن نرجع الى مقال رئيسى له تحت عنوان « الفرد والدولة » يتعلق بالموضوع مباشرة .

وفى هذا المقال يفكر العقاد فى العلاقة بين الفرد والدولة بالأسلوب الطبيعي الذى لايعتمد على أية ميتافيزيقا ولا يرتبط بأية نزعة مثالية . انه يقرر الواقع الجارى فى شىء من التحديد لم يعرفه الفكر العربى قبله . وكان المشكلة تأخذ فعلا قسطا كبيرا من تفكيره ووقته وجهده حتى تمكنت من الخروج الى الحياة على قلمه بهذا الرونق الجديد المبتكر . وميزة تحليله وتفسيره للعلاقة بين الفرد والدولة انه لم يزعم بها زعما لا ينبع من حقيقة الوضع القائم ولم يات بنظرية تعارض أو تكابر فى مسائل الحياة العادية والمجتمع الماثل . وفهمه لهذه المسألة من أدق ماكتب فى هذا الشان ولعل كتابته فى هذا الصدد كانت من أروع ما سجله كاتب مفكر يعالج مشاكل الروح العملية لأبواب الحياة والاقتصاد والاجتماع. وهو يضع فيه بوضوح كل مقاييسه الأساسية لوزن العلاقة بين المجتمع والفرد وظروف الحياة والمعاش . ويخلص فيه الى قاعدة استمسك بها كمذهب فى الأخلاق والاجتماع يعد مناط التقدم والارتقاء فى كل شعبة من شعب الحياة . ليس فى تفكير العقاد هنا أية مغالاة فى اتجاهه وانما فيه اعتداد بحقيقة القياس الذى وضعه لحقائق الحياة الفردية والحياة الاجتماعية . وأصالة العقاد هى التى أوصلته الى تثبيت قاعدته الذهبية فى التاريخ والاجتماع : احتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع . وهذا هو السر الحقيقى لايمان العقاد بالفردية ولعمله الدائم فكرا وعملا من أجل تثبيت كيان الفرد أمام طغيان الجماعات وسلطان الظروف والأحوال المادية فى الدول الحديثة .

وكان هذا المقال ضمن مقالاته بالرسالة القديمة سنة ١٩٤٣ أيضا حيث قال : « للأحوال الاقتصادية فى كل مجتمع شأن عظيم فى توجيه حياة أفراده وفى اقامة النظم الحكومية والآداب العرفية بين أهله .

« هذه حقيقة لا حاجة بها الى كشف ولا اثبات ولا حاجة بها الى كاشفين ولا مثبتين لانها أقرب الى البديهيات المقررة والأصول المسلمة منها الى نظريات الادلة البراهين .

« ان الأحوال الاقتصادية وراء كل حركة عظيمة من حركات التاريخ .

فما سجل التاريخ قط من نهضة أو دعوة أو ثورة أو انقلاب الا كان للأحوال الاقتصادية فى كل أولئك أثر واضح وسهم كبير ٠

« وليس الفرد لغوا الى جانب المجتمع أو الأحوال الاقتصادية ٠ ولكنه شيء والمجتمع شيء والأحوال الاقتصادية شيء ٠ وليس من الضرورى اللازم لادراك حقيقة من الحقائق الاجتماعية والفلسفية أن نلغى شيئا من هذه الأشياء ٠

« وتغليب الشئون الاقتصادية أو تغليب الدوافع المادية على دوافع الحياة فى الأفراد هو فى الواقع « قدرية » جديدة يلجأ اليها العاجزون فى زماننا هربا من التبعة كما لجأ العاجزون فيما مضى الى قدرية القرون الوسطى ٠

« كان العاجزون فيما مضى يقولون : ماذا نصنع ؟ وما الحيلة ؟ هذا قدر مكتوب لا حيلة فيه ! فأصبح العاجزون فى زماننا يقولون : ماذا نصنع؟ وما الحيلة ؟ هذه ضرورات الاقتصاد التى تسيطر على ارادة الأفراد ٠ فلا لوم عليهم ولا تقصير من قبلهم ٠ وانما اللوم لوم المجتمع والتقصير تقصير الأحوال ٠

« وأحسسنا بخطر هذه القدرية فأثبتنا وجود الفرد الى جانب وجود الدولة أو المجتمع ، ورأينا أن الفرد قد يكون قوة فاعلة كما يكون نتيجة منفعلة وان الاصلاح الذى يلغى حرية الفرد فساد شر من كل فساد ٠

« ومقاييس التقدم كثيرة يقع فيها الاختلاف والاختلال : فاذا قسنا التقدم بالسعادة فقد تتاح السعادة للحقير ويحرمها العظيم ٠ واذا قسناه بالغنى فقد يغنى الجاهل ويفتقر العالم ٠ واذا قسناه بالعلم فقد تعلم الامم المضمحلة الشائخة وتجهل الأمم الوثيقة الفتية ٠ الا مقياسا واحدا لا يقع فيه الاختلاف والاختلال وهو مقياس المسئولية واحتمال التبعة ٠

فانك لا تضاهى بين رجلين أو أمتين الا وجدت أن الأفضل منهما هو صاحب النصيب الأوفى من المسئولية وصاحب القدرة الراجحة على النهوض بتبعاته والاضطلاع بحقوقه وواجباته ٠ ولا اختلاف فى هذا المقياس كلما قست به الفارق بين الطفل القاصر والرجل الرشيد أو بين الهمجى والمدنى أو بين المجنون والعاقل أو بين الجاهل والعالم أو بين العبد والسيد أو بين العاجز والقادر أو بين كل مفضول وكل فاضل على اختلاف أوجه التفضيل ٠

« فاحتمال التبعات هو مناط التقدم المستطاع ٠ »

شعر العقاد في الادب الحديث(١)

كل عمل نقوم به فى نواحى النشـاط الادبى أو الفنى ينبغى ـ أولا وقبـل كل شىء ـ أن يكون متابعـا للحركات الحـديثة التى ظهرت فى أوربا والتى كان من أثرها هذا العدد الضخم من المذاهب والمدارس . ولا سـبيل لان نكون حضارة صالحة البنيان متينة الاساس مالم نلاحق أدباء الغرب فيما استحدثوه من التيارات والنزعات الفـكرية . هذا أمر مفروغ منه ولا يحتاج الى كثير اثبات حتى ليمكننا أن نقول ان كل عمل أو اتجاه فى الادب المصرى لا يبدأ من حيث انتهى هؤلاء مصيره الى الفشل ومآله الى الاخفاق لا محالة .

ولسنا بهذا ننكر الاستفادة من الادب العربى والاطلاع عليه وانما نرجو أن نتخذ لأنفسـنا نقطة البدء في عملنا من حيث انتهى ادباء الغرب في القرن العشرين لا من حيث انتهى شـعراء العرب وأدباؤهم فى القرن الثالث عشر على أكثر تقدير . فالمسألة هنا مسالة مقياس ودرجة وليست مسألة تقدير واعداد ملكات وتغذية مواهب .

---

(١) ظهر الجزء الاول من هذا البحث في صحيفه الأساس فى ١٨ مارس سنه ١٩٤٨

فان شئنا حقا ان نخطو الخطـوة اللازمة كيما نفيد من الآثار التى أنتجتها عقول معاصرة لنا أو سابقة علينا فلا بد من قراءتها وتفهمها بنفس مقبلة مطاوعة ولابد من افساح محل لها بين الأغذية الروحية التى نعد بها أنفسنا للمستقبل حتى تنتهي الى الافضـــل والأكثر ملاءمة بالنسبة الى أذواقنا • أما الاقتصار على العربى لانه عربى وكفى وأما العناية بالقديم لانه عامل من العوامل التى تذكرنا بمجد الاسلام وحسب ، فالفائدة منها محدودة والبدء من عندها يكون مضحكا ومثيرا للسخرية تبعا لاهمال ما جد في الغرب من روائع الآداب والفنون في فترة الركود التي شملت الشرق بأكمله • ومن الكلمات التى قالها «كيركجورد» في كتابه الخوف والارتعاد (ص ٦٧) بعد أن تساءل : ما الحضارة اذن ؟ « لقد اعتقدت انها الدورة [illegible] تعم الفرد كيما نصل به الى معرفة نفسه ، وذلك الذى يرفض متابعتها [illegible] كأنه قد ولد في العصر الأكثر استنارة» • ونحن نريد أن نكسب من عصرنا [illegible] نكسبه فعلينـــا أن نفيد من الحركات التي تحدث في أثنائه والتى من شأنها [illegible] آفاقنا وأن ترقى مشاعرنا دون أن نفوت على أنفســـنا فرصة التنويع والابتدار فبهذا •• وبهذا وحده ، نكون جديرين بأن نعد أعضاء في هذا العصر ولا نتخلف في مضمار الحضارة •

على اننا اذ نحاول أن نفهم شعر العقـاد لا نريد من وراء ذلك أن نفهم الحركة الادبية العامة وحدها وانما نريد أيضا أن نفهم العقاد نفسه في جملة ما كتب . فلابد كيما تقف على روحه وتفهم مسارب نفسه وتقرأ كتبه في السياسة أو في الفلسفة أو في الادب وأنت مدرك تمام الادراك لما يقول ، فعليك أن تبدأ بشعره ، وأن تتعرف على ملامحه الذاتية التى تبدو فى قصائده واضحة ملموسة • فهي وحدها كفيلة بأن تدفعـك الى الاقتراب منه فى سرعة وفى اطمئنان • والسبب في ذلك واضح • فالعقاد قد تأثر تأثرا عميقا بالحركة الرومانتيكية كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود في محاضرة له بالانجليزية عن العقاد الشاعر طبعها المعهد المصرى بلندن • وهى الحركة التى اجتاحت بريطانيا فى أول القرن التاسع عشر وكانت اتجاها خالصا الى النفس الانسانية • والمهم هو أن شعراء هذه الحركة بصفة خاصة كانوا يكتبون وهم متأثرون بمـــا يشع عن الثورة الفرنسية والحروب النابليونية من وهج • وكذلك كان يفعـل العقاد • فقد كتب معظم قصائده وهو تأثر أولا على أوضاع الاحتلال الانجليزى فى مصر ، متحمس للثورة الاهلية والحركات الوطنية ثانيا وكذلك وهو متأثر بما كان شائعا بين الحربين من روح القلق والسخط من جهة ثالثة • ولما

كانت تعم شعره نزعة تشاؤمية تغطى على تفاؤله وفرحه الصوفى بالحياة .. وفى قصيدة « فاز سعد » وكذلك فى « ترجمة شيطان » يبدو بوضوح ما يرمز اليه من الاوضاع وما يرمى اليه من التعبير عن القيود والأغلال المضفرة حول أعناق المصريين جميعا .. انظر اليه فى قصيدة بعنوان خليج ستانلى نظمها ابان كفاحه والمصريين جميعا من أجل الدستور في عهد صدقى قديما حيث يقول متغزلا بمن على الشاطىء وساخرا من صدقى :

ورايت معسول اللمى قانى الشفاه له ازدلف
والشعر من شفق هفا كالشعر من غسق رجف
والنور فى بدر سرى كالنور فى رعد قصف
فتن شهدت زحوفها كالجيش اهول ما زحف
فهتفت فليحى الجمال وقد يعاقب من هتف!!
هذى معارض صنعة لله تبهر من وصف
حى الجمال كما بدا اولا فنونك والجيف .

مهما يكن فى هذا فالذى نعتقده هو أن الفوارق بين الشعر القديم وما يجرى مجراه ، والشعر الحديث فعلا لا رغبة هى نفسها التى تتبدى لنا بين فن فى الالقاء وفن آخر فى الالقاء .. فالشاعر قديما حين كان يعد قصيدته انما كان يراعى انها سوف تلقى على حسب طريقة بالذات وعلى نهج معين يلائم جماعة المستمعين ، أما اليوم فالشاعر الجدير بهذا الاسم يهمه أن القصيدة تقرأ فى كتاب فتخاطب من قارئها نفسه أو حقيقته الانسانية بالمعنى الذى يقصد اليه هيدجر ثم يأخذ القارىء فى تأملها لفهمها والاستفادة منها . فهو لا يؤثر بشعره فى الحواس ولا ينشده فى المجالس ومجالات اللهو حيث يريد القوم متعة وطربا . وذلك ضرورى لان مكانة الشاعر قد غدت تستوجب منا الاحترام وتلزمنا بمراعاة مقامه وكرامته . واذا كان الشاعر القديم قد استؤجر بالمال ليدفع بالناس الى الضحك ويبعث الأمراء على المسرة والفرح عن طريق الكلام المعسول والحكم المنظومة فاليوم ــ على العكس من ذلك ــ يجلس منا الشاعر مجلس الاستاذ الذى يلقى الينا بتجاربه ويفيدنا بالوان من المشاعر والأحاسيس التى ظلت فى وجدانه أمدا طويلا . استمع الى قصيدة «سيان» التى نظمها العقاد فى خلال الحرب الاخيرة :

ان قيل بالحق أو البهتان
دعهم يقولون وقل سيان
سيان مهما افترق الضدان
سيان مهما اختلف الخصمان
سيان ألف هي أو ألفان
سيان بيد هي أو مغان
سيان نور أو ظلام فان
سيان من يلهو ومن يعاني
قلهما ببرهان ولا برهان
وأنت أنت أحكم الزمان
وإن تصدوا لك بالنكران
أو ضحكوا سخرا قل سيان

فلولا أن العقاد لا يراعى سوى أن يخاطب فيك ذوقك ولولا أنه يختلف فى احساسه الباطنى بما يوجبه عليه عصر القراءة والتأمل لا عصر الانشاد أو الغناء ، ولولا أنه يقول لمناسبة تهمه هو نفسيا فى مشاعره ولا تخضع لمناسبة أو حفلة ، أو بعبارة أكثر ايجازا ووضوحا ، لولا أن العقاد يراعى فنا من الالقاء يخالف الفن القديم لكان شأنه فى الشعر غير هذا الشأن ولما استحق عن ثقة لقب شاعر العصر لأن قوام فنه هو الحديث الى النفس فى قراءة عادية بغير ما بهرجة ولا تزويق .

والقصيدة المتقدمة لا يمكنك أن تقرأها الا وأنت فى مقام المستفيد من حالة بلغت درجة كبيرة من السمو والتحليق ، مع قبول لاستشعار أوسع المعانى التى تتفرع من هذه المعانى البسيطة الدقيقة التى ذكرها الشاعر .. فالشعراء عادة لا يقولون كل شىء ولا يعبرون عن كل المعانى فى قصيدة واحدة . وغالبا ما يقتصر الشاعر حين تنتابه حالة نفسية من هذا النوع على ذكر الخطوط الرئيسية والاصول العامة التى يمكنها أن تصور لك باطنه الداخلى بحيث يوكل اليك الامر فى فهم ما يتعلق بها وما يصح أن يستخرج منها . ذلك لأن استجابة الشاعر للمؤثر الخارجى انما تكون على صورة شحنة عاطفية تملأ نفسه وانفعال يشغل ذاته . وهذه الشحنة وهذا الانفعال هما ما يطلق عليهما فى هذه الحالة اسم

الامكان • فهما المادة التى يصاغ منها الشعر وينظم فى معناها القصيد • وعلى هـــذا الوضع تكون القصيدة ممكنة فحسب لم تخرج بعد الى عالم الوجود ولم يتحقق لها الخلق الكامل • فاذا ما تصدى لها الشاعر كيما يحيلها الى واقع انقضى منها ــ بغير شعور منه ــ أشياء معينة هى الاكثر عموما وتجريدا ولا يبقى منها ســـوى ما فيه تخصيص من حيث طبيعته وما فيه تمثيل من حيث فحواه • فالتعين كما يقول فلاسفة الوجود يقتضى استبعاد امكانيات أو نفى قابلات• أو بمعنى أصح ان عملية الخلق الشعرى انما تسبقها أو تقابلها فى نفس الوقت عملية اعدام نفسى يتخلص بهـــا العمل الفنى من كثير من الالفاظ والمعانى التى كان يمكن بالنسبة اليها فى ذاتهـــا أن توجد وأن تخرج مع بقية الكلام الذى نقرؤه قصيدة • والاشياء المعدومة هى نفسها التى يذكرك الشاعر بها وينبهك اليها كيما لا تقتصر فى ادراكك للمعنى واستمتاعك بالعـــالم الذاتى الزاخر الذى يصوره لك على ماهو قيد الاوزان من كلمات والفاظ وكيما تنظر الى ماهو موضوع أمام ناظريك بحسبانه رموزا بمعنى من المعانى لمـا يجـــد فى احساسك من المشاعر وما يجول بخاطرك من المعانى دون أن يكون شيء منه قد ظهر فى النص بوضوح •

ومسألة أخرى أحب أن أنبه اليهـا هنا ــ فى معرض الحديث عن العقاد ــ وهى أن الشاعر القديم كان يراعى دائما أن شعره سوف يحفظ وسوف يروى • فالشعر الذى يقوله ينبغى أن يخضع للوسائل التى تعين على الاستظهار كما يخضع لأساليب القراءة المسموعة • وبقى هذا عندنا حتى اليوم • فقلما تجد ممن تأثروا بالتربية التعليمية الفاسدة شخصا يحاول قراءة ديوان شعرى والتفكير فيما يرمى الشاعر الى تهيئته من الجو الفنى • فان قرأ فبصوت مرتفع مسموع • وان تأمل فيه فليعجب بألفاظه ذات الجرس وكلماته ذات الوقع وقوافيه ذات النغم • وبالجملة فاهتمامهم انما ينصب دائما على الحفظ والانشاد بغير تفهم للمعنى أو محاولة للنظر فى الصور والأجواء التى تخلقها القصائد بما فيهـــا من عنصرى الأداة والفحوى جميعا • ومن هنا اقترن الشعر فى أذهاننا بالحفظ فانصرفنا عنه لما يتطلبه من المجهود عند استيعابه • ولو عرفنـــا انه شيء يقرأ أو يستمتع به فى جو هادىء ككل الآثار الفنية والادبية لاستعاد الشعر بيننا مكانته ولما استشعرنا بتخلفه بعد اليوم • والشـــاعر الذى يراعى هذه المسألة هو شاعر حديث بكل معانى الكلمة فى احساسه الفنى وفى ذوقه التربوى • فهو لا يبـــالى على هذا الوجه أن حفظ الناس قصـــائده او لم يحفظوها ولا يحفل كثيرا بالقائها فى المجالس لأن هذا ثانوى بالنسبة

لعمله وليس الأصل الذى يصدر عنه والذى يحسب حسابه فى قرارة نفسه .

وأبرع مثل لهذا الذى نقوله قصيدة بعنوان «الصدار الذى نسجته» فى أعاصير مغرب . فهى لا يمكن أن يقولها سوى شاعر أسقط من حسابه ما كان القدماء يعملون له ألف حساب .

هنـا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك
هنا هنـا عند قلبى يـكاد يلمس حبى
وفيه منـك دليـل على المـودة حسبى
ألم أنل منك فكره فى كل شـكة ابره
وكل عقـدة خيط وكل جـرة بكره
هنـا مكان صدارك هنا هنا فى جوارك
والقلب فيه أسـير مطوق بحصـارك
هذا الصدار رقيب على الفـؤاد قريب
سليه : هل عرفته الى طيف غريب ؟
نسـجته بيـديك على هـدى ناظريك
اذا احتـوانى فانى ما زلت فى اصبعيك

ويتصل الكلام فى هذا الموضوع بعنصر الموسيقى فى الشـعر . وعندى انه لا موسيقى فى الشعر من حيث هى أنغـام راقصة تبعث على الاهتزاز وتحـريك أعضـاء الجسم ولكن من حيث هى داع من دواعى الانسـجام وعامل من عوامل التناسـق الشعرى الذى يعين صـاحب القصـيدة على خلق الجو اللازم لاستحضـار الحالة المطلوبة فى نفس القارىء . فالذين يتهمون المقلد بأنه ناثر فى شعره يغيب عنهم أمر ذوبال وهو أن الموسيقى التى يراعيها فى فنه ليست موسيقى اللحن .

وانما هى الموسيقى التى لا تحـافظ على اللحن وانمـا تنظر الى الانسجام بوصفه أرفع مثل وأعلى قيمة تسعى لاستحواذها .. وهـم اذ تعودت آذانهم دقات الطبول وصرخات الاوتار فى الشعر القديم لم يستطيعوا أن يتذوقوا معنى لهذا الانسجام .

شأنهم فى هـذا شأن من تسـمعه سمفونية أو كونشرتو لفنان كموتسارت أو بيتهوفن أو تشايكوفسكى وهو متأثر بألحان رخيصة لا تعنى بغير الحشد والتهويل .

ونحن اذ نجاهد في هذا السبيل نانما نريد أن نخلع عنا هذا الرداء الممسوخ الذى بقى لنا من آثار الخـــلاعة والمجون التى كانت تقترن عـلى الدوام بمجالس الشعر والموسيقى والتى كانت تجعل من الشاعر مهرجا أكثر مما تخلق منه انسانا ذا امتيـــاز أو مفكرا ذا أحاسيس وانفعالات دقيقة • ومن هنا لم نفهم كيف تكون للشاعر رسالة فى الحياة تكافىء رسالات العباقرة فى كل ميدان • مع اننا لو شئنا التجديد حقا لوضعنا هذه النقطة فى أول القائمة التى تحدد سمات الحركة وخصائصها •

فلسنا نريد أن نمحو موسيقية التعبير الشعرى وانما نريد أن نبعد عنه الألحان النشاز بقدر الامكان • وأن نجعل الاساس فى الصياغة من التناسق والتوافق ومن الاحساس بأن كل نقطة قد استقرت فى موضعها الذى يلائمها وأن كل عبارة قد أخذت محلا بغير ماقلقلة ولا نشاز • وهذا اللون من الموسيقى هو الذى يظهر بوضوح فى قصيدة العقاد « هذا هو الحب » :

غريرة تسأل ما الحب ؟ بنيتى ! هذا هو الحب !
الحب أن أبصر ما لا يرى أو أغمض العين فـــلا أبصر !
وأن أسيغ الحق ما سرنى فان أبى فالــكذب المفترى
الحب أن افرق من نملة حينــا وقد أصرع ليث الشرى
وأن اراني تارة مقبـــلا وخطـــوتى تمشى بى القهقرى
الحب كالخمر فان قيل لى سكرت ؟ هم القلب أن يشــكرا
وكل عضـــو بعده قائل نعـــم • ولا احفـل أن اسكرا
الحب أن يفرق اعمـــارنا عهدان والعهد وثيـــق العرى
أحسـبنى الأكبر حتى اذا عانقتنى الفيتنى الاصــغرا
الحب أن نصعد فـــوق الذرى الحب ان نهبـــط تحت الثرى
والحب ان نؤثر للذاتنـــا وان نرى الامنا آثرا ••

واذا كنا قد حددنا حتى الآن موضع التفرقة بين المدرسة الحديثة والمدرسة القديمة أو حددنا مفرق الطرق بينها وبين غيرها فى صيغ جامعة عامة ، فانمـــا نأمل فى القريب أن تظهر عندنا طائفة من المجددين الذين يأخذون على أنفسهم الا يأبهوا لأقوال دعاة القديم وأن يسعوا سعيا حثيثا فى ســـبيل ترقية الأذواق والافهـــام الى الحد الذى يجعلها قادرة على استســاغة الشعر الحديث بالمعنى الذى حددناه . وعندئذ يمكن ان يكون للنقد عمل ذو جدوى فى الكشف والتحليل .

(٢)

كنت قد كتبت الفصل السابق عن شعر العقاد سنة ١٩٤٨ ونشرته فى ١٨ مارس من السنة نفسها بالصفحة الاخيرة فى جريدة الاساس . وقد نقلته بحذافيره ليلمس القارىء مشكلة الشعر الجديد كما كنا نواجهها فى ذلك الوقت . وتعمدت ألا أغير من اية كلمة من كلماته حتى نتبين الى أى حد كانت تشغلنا طبيعة العقاد الشعرية .

ونحن الذين عرفنا العقاد معرفة شخصية لا نكاد نعرفه الا بوصفه الشاعر عباس محمود العقاد . العقاد بالنسبة الينا هو الشاعر أو هو القمة الشعرية التى ظهرت فى هذا البلد عفوا . فليس بينه وبين سابقيه الا شبه ضئيل وليس بينه وبين لاحقيه الا ضروب من المتساورات التى لا تعبر عن حقيقة وضع متطور . لا شبه بين العقاد وبين شاعر قديم ولا بينه وبين شاعر حديث أو معاصر . من الجائز أن يكون هناك شعراء من طبقات تعلو على طبقته أو تدانيها ولكن الشاعر عباس العقاد لا مثيل له فى هذه الشاعرية التى يفيض بها مزاجه وتفيض بها كلماته وتفيض بها تعبيراته وهواجسه وانفعالاته .

لا نستطيع أن نفهم العقاد فى كل كتاباته الا اذا أدركنا طبيعته الشاعرة . العقاد الشاعر هو محور الالتقاء فى كل شخصية العقاد . شعره هو العتبة الاولى التى نفهم منها كل ثنايا تفكيره . والسبيل اليه من غير هذا الباب موصود الغاية .

والعقاد فى الشعر يمثل مدرسة لم يكن هو أحد افرادها وانما كان استاذها ورائدها . وقد شب مشاركا فى النزعة والمشرب كلا من المازنى وشكرى . اما المازنى فقد امتاز بخفة الروح الى حد كبير واستأثر بسرقة المعانى الشعرية من الآداب الانجليزية . وحينما توالت الهجمات على شعر المازنى قال العقاد : أليس فى هذا دليل على أن الناقدين لم يكونوا يفهمون أروع المعانى التى وردت فى شعر المازنى مع أنها من شعر كبار الشعراء العالميين ؟

وكان شكرى من أجل شعراء هذه المدرسة الجديدة وتعد اعماله من المؤلفات الشعرية العالمية . ولولا أنه انزوى عن العيون ولم يحتمل الاستمرار فى طريق الانتاج الشعرى لبلغ قبل وفاته درجة عالية لم يبلغها الا القليلون .

أما العقاد فلم يشك لحظة قط في جوهر الشاعرية التي تفيض بها أشطره ونماذجه الفنية · ولم يكن صدامه مع جمهور المثقفين في فترة ظهوره الا نوعا من المكابدة لعملية الانتقال الثقافي والذوقي لجمهور كامل وفئات متعلمة كثيرة ·

ومفهوم الشعر الجديد كما عرفناه حينئذ على يدي العقاد لا يمس جوهر البناء الموسيقي للقصيدة العربية · وصارت كلمة الشعر الجديد تطلق اليوم على الشعر القائم على أساس من التفعيلة المجتزأة ·

ولكنني ما زلت حريصا على استخدام اسم الشعر الجديد للدلالة على الشعر الذى يعبر حضارة الغرب عاطفيا · وأشعر فعلا بأن تعبيرى ذاك غير موفق لانه غير واضح · فما معنى أن نعبر حضارة الغرب عاطفيا ؟ معناه أن تكون تجربة الحضارات جميعها ومن بينها آخر العصور الحضارية فى الغرب ضمن التلافيف الشعورية للاحساس الادبى والذوق الفنى · معناه أن تتألف احساساتنا من طبقات تشبه الطبقات التى تكتشفها فى حفريات الصخور وأن تكون حضارة الغرب طبقة من بين هذه الطبقات · فقولنا ان الشعر الجديد هو الذى يعبر حضارة الغرب الاخيرة عاطفيا معناه أن تدخل الثقافة الملتصقة بالمدنيات الحديثة فى نطاق تجربة الشاعر · أو بعبارة أخرى ·· الشعر الجديد هو الذى مر بتجارب شعراء الغرب واحدة واحدة حتى أصبح قادرا على أن يحمل مسئولية التعبير العاطفى المثقف · وعندى أن التعبير العاطفى المثقف هو الذى عرف المدنية الحديثة واجتازها الى مرحلة الحياة المعاصرة ببلادنا ·

والوزن الشعرى لم يخلق عبثا لانه أول ما يبدر للشاعر حينما يود أن يخلق القصيدة · الوزن الموسيقى يتردد فى ذهن الشاعر قبل أن يملأه بالكلام وقبل أن يصب فيه معانيه · ان النغم هو الغرض الاساسى من نظم الشعر والا تساوت تجربة الشعر والنثر · ففى الفن الادبى الكتابى يريد المؤلف استخدام نبرة كلامية معينة وعبارات والفاظ بالذات· أما فى الشعر فاول ما يداعب خاطر الشاعر هو النغم الذى يريد أن يلقيه فى أسماع قرائه ومطالعيه . انه يجعل القصيدة كلها استجابة للنغم الذى يود أن ينشده · فالشعر يسرى فى قلب الشاعر كنغم موسيقى أولا ثم يستجيب الشاعر لهذا النغم فى استخدام الالفاظ التى تبتعث هذا النغم وتؤديه·· اسمع مثلا قصيدة «نفثة» التى نشرها العقاد سنة١٩١٧:

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا   عذب المدام ولا الأنداء ترويني
لهفان لهفان لا برد الظلال ولا   ريح الشمال من الرمضاء تأويني
حيران حيران لا نجم السماء ولا   معالم الارض في الغماء تهديني
يقظان يقظان لاطيب الرقاد يدا   نيني ، ولا سمر السمار يلهيني
سأمان سأمان لا صفو الحياة ولا   عجائب القدر المكنون تعنيني

غصان غصان لا الأوجاع تبليني
ولا الكوارث والأشجان تبكيني

شعرى دموعى وما بالشعر من عوض
عن الدموع نفاها جفن محزون

يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط
على المناهج أحزان المساكين

هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم
وما استرحت بحزن فى مدفون

أسوان أسوان لا طب الأساة ولا
سحر الرقاة من اللأواء يشفيني

أصاحب الدهر لا قلب فيسعدني
على الزمان ولا خل فيأسوني

يديك فامح ضنى يا موت فى كبدى
فلست تمحوه إلا حين تمحوني

فالشعر يولد فى قلب الشاعر ويفسره على صورة نغم باطني أول الأمر ثم يجد الشاعر بعد ذلك دافعا خفيا يدعوه الى صقله وتخريجه والتفنن فى صهره وتقويمه والباسه الخطرات الملائمة والتصاوير المعبرة . وكثيرا ما يحدث فى حياة الشاعر النفسية أنه يدندن بأنغام خفيفة وكلمات ذات وقع جميل وأن تكون هذه نفسها الأصل فى ابداع شعرى متكامل . ذلك لأن الجمال الفنى ينشأ من الشكل العام ومن الصورة المعطاة . الشكل الصورى أو الصورة الشكلية هي التي تبعث الجمال فى المرئيات المحسوسة وهي التى تبعث الدلالة الفنية فى المشهد الماثل .

ولا نريد أن ننتقل من هذا العنصر حتى نستوفيه ونوضحه . فلنا ان الشاعر يحيا في ذهنه مع الألفاظ كجملة ايقاعات نغمية حتى نستهويه وتدفعه الى استكمال عمله الشعرى . ورنينها في الغالب هو الذى يجذبه حتى يسـتشـعر انسجامها الفني ويضمنها أوهـامه وخيالاته وافكاره . فالألفاظ في الشعر ليست شيئا يراد به سواه كما في المقالات والقصص وفنون الكتابة . انما تراد لذاتها ولما تولده من الرنين المتفق مع طبيعة النغم . في الكتابة لابد أن يكون الكاتب كل أفكاره وآرائه ومعانيه قبل أن يهم بتسجيلها . أما في الشعر فالعمل الفنى متكامل وملتصق قبل كل شيء بالنغم كاطار لعمل فنى بل كاطار ضرورى لخلق الحقيقة الشعرية .

وسأضع الآن بين يديك قصـيدة أخرى للعقـاد اسمها « النهر النائم » :

تمهـل يا نسـيم ولا تكـدر
نعـاس النهـر . بالهمس الضعيف

وقرى يا طيـور على الحوافى
وكفى يا غصـون عن الحفيف

لعل النهـر ينطق وهو غاف
بسر فيـه أو حـلم لطيف

ويحـكى طيف هاتيك الليـالى
ليالى الوصل فى عهد الخريف

لست أقصد طبعا أن أبين لك الشاعرية العالية السامقة فى هذه الأبيات . ولا يعنينى الآن ان أكشف لك عن الخضم المعنوى الهائل الذى تحويه هذه الكلمات ، فهذه أشـعار من أعلى أنماط الشعر وتحتاج الى تحليل خاص فى بحث خاص . فهـذا الرجل المقبل على النهر يدعـو النسيم الى التريث ويدعو الغصـون الى الكف عن حفيفها استعدادا لتلقى الكلمات التى سيهمس بها النهر . وهذه الكلمات ذات أهمية بالغة لأنها سجل لذكرياته فى هذه الأماكن .

ولكن المهم هو أن تلتقط النغم الذى يضعه الشاعر ثوبا لهذه المعانى الوجدانية الرقيقة . وقـارن اذا شئت أن تدرك أهمية النغم فى العمل الشعرى بين هذه الأبيات وبين الأبيات السابقة الحائرة المتلهفة المليئة بالألم واللوعة . ستجد أن النغم مختلف اختلافا جوهريا وأنه هو الذى

يحتضن في كل منهما صرخات الشاعر وهمساته . النبرة الموسيقية في القصيدتين هي التي أملت جوهما وهي التي خلقت الروح الثائرة الفائرة في الأولى والاستكانة المتطلعة المتلفتة في الثانية . الرنين في الأولى حاد جامح متأجج وفي الثانية وهمي ساحر خاطف . والأذن تتهيأ بالموسيقى في القصيدة الأولى لشعور حـــائر يائس وتتهيأ في الثانية لاحســـاس رومانتيكي رقيق . وكلتاهما رومانتيكية في المعاني التي نتخيرها . ومع ذلك فالأولى نفثة تميسة حارة تعطي أوج الشعور بكثافة الوجود . أو لعلها تمثل أقصى مايصل اليه التعبير في الاحســـاس بأن الوجود ليس وجودا على هيئة مطلقة وانما هو مجموعة وجوديات صغيرة تتجسم في الزمان والمكان على صورة معاناة . والعناء هو الصورة الأولى للوجود . ولكنه يأخذ ألوانا وصفات متباينة مركزها ضنى القلب . فلا وجود الا على نحو من أنحاء المعاناة . ومصدر العناء كله هو ما يكمن في القلب من ضني . وبمجـــرد استشعار الوجود ينبثق الضنى في القلب ولا يزول الضنى الا بزوال الوجود ذاته .

أما الثانية فيحاول الشاعر فيها أن يجعل من الطبيعة كائنا يأنس به في وحدته . فهو ينتظر في هذه الأبيات أن يحادثه النهر وأن يسر اليه بذكرى ساعات فرحه مع الحبيب على شاطئه . ان ثقته تتجدد فيما سينقله النهر اليه بعـــد أن يخفت حفيف الأغصـــان وبعد أن تكف الطيور عن الحركة . وأمل الشاعر مركز في أنه يستمع الى حكاية النهر في غفوة الحلم الذي يخيم على القصيدة . لذلك نجد في معنى القصيدة حالة من اليأس التي دفعت الشاعر الى الابتعاد عن كل شيء والاقتراب من الطبيعة والتودد اليها والتطلع الى مشاركتها له في احساساته . فاليأس من كل شيء يقابله هذا الأمل الجديد في أن يبادله الوجود من حوله شعورا بشعور .

ونحن نلاحظ على شعر العقاد أنه خلا من الفلسفة . ولذلك يمكن أن نحكم عليه بأنه لم يبن أفكاره الشعرية على مبادىء فلسفاته . ولكن يمكننا أن نقول أيضا انه أقام نظرياته فلسفته على أحاسيسه الشعرية . واستخلاص فلسفة العقاد من شعره ممكنة على أساس أنه يبدأ من الشعر كفن شعري بحت خال من الصنعة الفلسفية . ومع ذلك فوجدانه الشعري مشرب بالتأمل الفلسفي مليء بالنظرات والمعـــاني الفلسفية . أو بعبارة أخرى العقاد لم يفكر أولا كفيلسوف ثم وضع فلسفته في قوالب شعرية . وانما احس أولا ثم صعد بأحاسيسه الى صميم الوجدان الفلسفي . فهو في فلسفته يستند الى معانيه وصوره الشعرية .

ولا شك الآن عند النقاد جميعا في أن الشعر والفلسفة ينبعان من مصدر واحد في الانســـان وأن الشعر والفلسفة يبدأان الطريق معا • وهما يهـــدفان في الواقع الى غاية واحدة • أي أن الشـــعر والفلسفة متلاصقان في البـــداية وفي النهـــاية • ولكنهما ينفصلان طول الطريق ولا يلتقيان الا في آخر الشوط • فالمنبع واحد في الشعر وفي الفلسفة والمصب أيضا واحد في الغاية التي يلتقيان عندها • بيد أنهما لا يتفقان في الوسائل والأدوات التي يستخدمها كل منهما في أداء مهمته وتحقيق وظيفته • الشعر يستخدم الصور والأخيلة والأحاسيس والتشبيهات في حين تعتمد الفلسفة على الأصول المنطقية والأســـاليب المنهجية • ثم ان الفلسفة تتمسك بطابع التجريد •

وكان العقـــاد لا يميل الى التجريد في شـــعره بل كان يتلمس الاحساسات البديهية في الوقائع العادية وفي الأحداث البسيطة والصور المرئية • كان يكره التجريد في شعره ويعمد الى تجسيد مشاعره تجسيدا حيا في صور حركية •

أنظر قوله في « أحلام الموتى » :

ستغرب شـــمس هـــذا العمر يوما
ويغمض ناظري ليـــل الحمـــام

فهـــل يسري الى قبري خيـــال
من الدنيـــا بأنبـــاء الأنام

ويمسي طيف من أهـــوى سـمـيري
ويؤنس وحشتي ترجيع هـــام

وأحـــلم بالزواهر دائرات
وبالزهر المنـــور والغمـــام

ألا ليت النيام هنـــاك تحظى
بأحلام كأحـــلام النيـــام

وليت الورد يورق فوق رمسي
فتعبـــق في نوافحــــه عظامي

وأبسم في أزاهـــره لدنيـــا
عبست لوجههـــا فوق الرغـــام

وانظر قوله فى « ياكتبى » :

يا كتبى اشكو ولا اغضب
ما أنت من يسمع او يعتب

يا كتبى أورثتنى حسرة
هيهات لا تنسى ولا تذهب

ياكتبى ألبست جلدى الضنى
لم يغن عنى جلدك المذهب

كم ليلة سوداء قضيتها
سهران حتى أدبر الكوكب

كانى الج تحت الدجى
جماجم الموتى بدت تخطب

والناس ما غارق فى الكرى
او غارق فى كاسه يشربه

او عاشق وافاه معشوقه
فنال من دنياه ما يرغب

او سادر يحلم فى ليله
بيومه الماضى وما يعقب

ينتفع المرء بما يقتنى
وانت لا جدوى ولا مارب

الا الأحاديث والا المنى
وخبرة صاحبها متعب

انلت منى مايضمن الورى
به على الله ولم يذنبوا

من ضوء عينى ومن صحتى
سدى ومن وقتى وما أكسب

ومن شباب فيك ضيعته
فما انا الا الفتى الأشيب

لو كنت كالجبار في نقمتي
لكان في النار لها معطب

في ذمة الطرس وفي حفظه
عمري تقضى شطره الأطيب

لا رحم الرحمن فيمن مضى
من علم العالم أن يكتبوا

فستجد أن الشاعر يسقط في هاتين القصيدتين كل أحاسيسه على شكل تصاوير متناثرة حية • وتمتزج بهذه التصاوير روح حركية تبتعث فيها الأخيلة وتخلق في ثناياها معالم الأحداث العادية الجارية • ولو كان الشاعر يعمد الى فلسفته فيستقى منها عناصر شعره لما وجد مجالا أنسب من موضوع الموت أو موضوع الكتب والعلوم ليصب فيها أفكاره المجردة • ولكن احساسه الشاعرى هو الذى يسيطر عليه دائما فى أشعاره ويجعله يتنقل بين هذه اللمحات التصويرية فى رشاقة وابداع •

والواقع أن العقاد كان يقيم في أشعاره على الدوام نوعا من التوازن بين المبادرة وبين الخلق الفنى الارادى • والمبادرة تتمثل فى شيئين هما الاحساس بالبساطة فى مواجهته للعمل الشعرى من ناحية واصطياد النماذج الحية الحركية من بين الأحداث الجارية من ناحية أخرى • أما الخلق الفنى الارادى فيظهر من الموضوعات التى يتخيرها والمشاعر التى تفيض بها أشعاره • وهناك كما نقول تعادل مستمر بين التلقائية الصادرة عن مواجهته لنفسه ومواجهته للعالم الخارجى وبين ضرورة الأداء الفنى لمعنى من المعانى • فلا التصاوير التعبيرية تطغى على المعانى الأصيلة الدافقة فى سياق الكلمات ولا المعانى تفسد الحركة السائدة فى الأخيلة والتشبيهات • وكيما نتحقق من هذه الظاهرة فى فن العقاد الشعرى نرجع الى الأشعار التى قالها العقاد فى الموضوعات التى قصدها قصدا من أجل التفلسف مثل قصيدته عن « النور » التى يقول فيها :

النور سر الهدى — النور سر الحياه
النور لب النهى — النور وحى الصلاه
النور شوق الفتى — النور شوق الفتاه
المحسه بالروح لا — لمح العيون الخواه

ما تبصر العين من معنـــاه الا أداه
هذا سـبيل الهـدي لا ما افتراه الهـداه

أو قصيدته عن « فلسفة حياة » :

لغــرام الملك والملك الضــياع
هـات لى الحسن الذى ليس يضـيع
ليلة قمراء أو سحر سـماع
أو قصيدا راق أو زهر ربيع
قال قوم زينـة الدنيـا خداع
قلت خـير ! بالذى نشرى نبيـع

***

زاهد الهند نعى الدنيـا وصام
أنا أنعاها ولكن لا أصـــوم
طامع الغرب رثى الدنيـا وهام
أنا ارعــاها ولــكن لا أهيم
بين هذين لنـا حـد قـوام
وليلم من كل حـزب من يلـوم

***

أيها الســائل : ما بعد الممــات ؟
يمم الصــحراء وانظر قفرها
ما وراء القبـــر فى قــول الثقــات
حالة تجحـــــــد يوما سرها
لست بالراضى حيــاة كالحيــاة
لا ولا ترضى حيــــاة غيرها

***

وانا أعبـــد مالســت أخاف
يعبــــد الأقوام مايخشـــونه
فعلام البــحث فيه والخلاف
ليس ينسى الله من ينســـونه
لم يقــف دون مقام أو مطاف
ان وصــــلتم او وقفتم دونه

فلا تجد فى هذه الأبيات سوى الصور الحسية المنفردة لشخوص من الواقع أو المشاهد الحركية للأمور التى تجرى فى الحياة . ولن تجد الأفكار

الا وقد تجسدت وقائع عادية مما يراه الانسان • أما اصطناع الفلسفة والغوص على المعانى فلا محل له فى شعر العقاد •

شعر العقاد اذن من النوع الذى يستخدم التصاوير لاظهار الأغوار البعيدة والاعماق الحية • كان يعمد الى الصور الحركية فيبدى عن طريقها آماد الشعور من جهة وابعاد الفكر من ناحية أخرى • خذ لذلك مرة أخرى هذا المثل البسيط فى قصيدة : « نصف رغيف » •

عجبى للحياة أشرف ماتحـ ـوى به وقف على الحقير الطفيف
صفحات السماء والأرض طرا والمعانى من تالد وطريف
والوجوه التى تشوقك حسنا تنطوى ان فقدت نصف رغيف

الصورة هنا واضحة ومؤداها ان كل هذه الحضارات والمدنيات وسبل الاستمتاع بالحياة ومظاهر الفكر والأدب والفن ومشاهد الحب والسعادة ترجع فى النهاية الى اللقمة التى يتناولها الانسان • واذا اختفت هذه اللقيمات ستختفى كل المعانى وستضيع كل القيم • فهذه الأمجاد الكبيرة التى حققها الانسان وتلك المعالم العريضة التى بلغها فى وجوده مصدرها هذا الوقود التافه وهو الخبز • فبدونه تتوقف الحياة الانسانية عن الحركة وبدون الانسان يضيع الكون ويصبح العالم كله خواء وتفقد الأشياء والكائنات حقيقتها • ولكن العقاد لم يشأ أن يذكر سوى هذا الحدث البسيط فى غرابة احتياج الانسان الى ما يقيم أوده من الخبز حتى يتحقق كل ما يروعنا فى الحياة من مظاهر التقدم ودلالات العظمة • فهذه الصورة الصغيرة وحدها كفيلة بأن تشيع فى قلبك بقية الأغوار من احساس الشاعر بالارتباط الحيوى بما يمسك رمقه ومن شعوره بالاندهاش أمام احتياج العالم بأكمله الى ما يضمن حياة الانسان عن طريق الرغيف • وذلك لأن كل القيم الحيوية فى المجتمع ودلائل الجمال والحسن فى الكون مصدرها وجود الانسان نفسه • ويبطل كل شىء ببطلان حياة الانسان •

وهذا الموقف الذى يفسر به العقاد كل مظاهر الوجود على أساس البدء من عنصر الوجود الانسانى مرجعه نزعة العقاد الرومانتيكية • وقد استقى العقاد كل أجوائه الشعرية من الرومانتيكية الفرنسية التى تميزت بالعنصر الشخصى والذاتى • ويمكن أن نضيف الى الشعراء الرومانتيك الفرنسيين بيرون وهينى • فهذان الشاعران امتازا بما يمتاز به الشعراء الفرنسيون من التعبير العاطفى المتأجج •

وقد تأثر العقاد بهذه المجموعة من الشعراء تأثرا كبيرا • ولكنه

اختص هينى بعناية فائقة وباهتمام بالغ . ومن هينى أخذ العقاد طبيعته في استقصاء المعنى الشعرى عن طريق التصويرات الحركية الحسية . وكذلك استشعر العقاد فى مؤلفات هينى ثورته ضد المصير واستقلاله حيال المعتقدات . ومن هنا نفهم روح العقاد الساخرة التى تتجاوب مع مواقف هينى فى غير افتعال .

وحكى لنا العقاد أنه في شبابه كان دائم الاطلاع على شعر هينى . وذكر فى أحاديثه أنه كان مريضا بأسوان فى شبابه بعد الحرب العالمية الأولى . وكان فى فترة حالكة من حياته حينئذ . وفى أثناء هذه الوعكة القاسية فقد العقاد الوعى مرارا وحسبوه أحيانا ميتا فوضعوه نائما فى اتجاه القبلة . وكتب حين ذاك خطابا الى صديقه الشاعر محمود عماد يقول له : « اننى محتاج الى تغيير الهواء فى عالم غير هذا العالم . وسبب امتناعى عن الكتابة :

برغم شبيب فارق السيف كفه ... وكانا على العلات يصطحبان

وذكر العقاد هذه الحادثة فى كتابه « أنا » الذى أصدرته دار الهلال فى شهر يوليو ١٩٦٤ (ص ٥١) حين قال : « وقوة الايمان فى والدتى هى التى بثت فيها العزيمة ليلة احتضارى .

« نعم أيها القارىء الكريم ولا تعجب ... فقد احتضرت قبل نيف وثلاثين سنة كما تخيل عوادى فى تلك الليلة . فاذا بالوالدة هى الانسان الوحيد الذى يتحامل على نفسه الى جانب سريرى ليقنعنى اننى بخير .. وتنطوى على ذلك ساعات وهى على عزيمتها . حتى جاء الطبيب أخيرا وأنبأهم أنه عارض غير ذى بال . فاذا بالمحتضر قد نجا واذا بالمواسية قد سقطت مغمى عليها » .

واعتاد أن يلبس الجلباب والبالطو ويخرج للجلوس فى احدى الحدائق على شاطىء النيل بأسوان فى أثناء ذلك المرض . وكان هينى نفسه سبب تحول كبير فى حياة العقاد . فقد مر به أحد الأطباء الألمان الذين كانوا يرافقون أميرا نمساويا فى أسوان وتعجب أشد العجب من الشاب الذى يقرأ هينى فى ملابس أهل البلاد بالمنتزه العام . واستغرب الطبيب للقاء هذا الفتى النحيل المتئس واستوقفه المشهد فتحدث الى العقاد حديثا وديا . واستفسر منه عن سر اعجابه بالشاعر الألمانى وعن سبب انزوائه فأبلغه العقاد بقصة مرضه الصدرى . فاهتم الطبيب به اهتماما كبيرا وكشف على صحته كشفا دقيقا . وأنبأه بأن مرضه الصدرى

لا يعدو أن يكون مرضا فى الزور • ومنحه كل التعليمات الخاصة بمرضه ذاك والأدوية التى تعينه على مقاومته •

فالعقاد كان كثير القراءة لأشعار هينى • وهينى هو أقدر الشعراء على توزيع أفكاره فى صور صغيرة متناثرة تملأ التعبير الشعرى بالمعنى العميق الذى ينشد بلوغه • خذ مثلا لذلك قصيدة هينى بعنوان « بعيدا » :

***

ان النهار واقع فى حب الليل المدلهم
والربيع يهوى الشتاء
والحياة تعشق الموت
وانت •• انت تحبيننى

***

انت تحبيننى ••
بينما تجمعت الظلال الكئيبة القاسية من حواليك
فذبلت زهرتك وانطفأ جمالك
وها هى ذى روحك تتسرب الى الموت

***

آه •• دعينى باقيا
اقصر حبى على هذه الفراشات المرحة
التى تطير فى عبير الزهر وفى شعاع الشمس
فاغفرى لى واعذرينى •

هذه هى طريقة هينى فى التعبير • وهى هى طريقة العقاد - فلا يقحم العقاد المعنى اقحاما وانما يستمده من العناصر الحركية المؤدية للخواطر على شكل لمحات حية • وبهذه المناسبة نحب أن نقرأ قصيدة العقاد المشابهة لقصيدة هينى هذه فى المعنى والأداء لنرى أين يقف العقاد بأسلوبه من أسلوب هينى • وقصيدة العقاد اسمها « الهجر الصادق » :

تجشم فيك القلب ما ليس يعذب
أما آن لى منك النجاء المحبب ؟
فهجرا ! فهذا القيد قد طال عهده
أليس لقلبى غير حبك مذهب ؟

هجرتك هجر المرء أسود سالخا
يمج حماما كيفما ينقلب
هوى الموت أحلى من هواك لأنه
هوى صادق الميعاد لا يتذبذب
وما كنت فتانا ولكن فتنتي
بما صنعت عيني من الحسن اعجب
فلا تغترر مني بما قد عهدته
لئن كنت اعفو اذ تسيء وتذنب
فما كل حين يغلب الحب ربه
ولا الصبر في كل المواطن يغلب
لتظما ليال كان دمعي شرابها
فحسب الليالي دمع من لم يجربوا
أنا اليوم في هجري على الكره صادق
وقد كنت في هجري على الكره اكذب

ومثل هذا الأسلوب المتناثر على شكل صور حركية يتراءى في قصيدته « تبسم » :

تبسم فان القلب يسعد بالذي
سعدت به واضحك وغرد وخاطر
يلذ لنا منك اغترارك بالصبا
غرور الصبا روح لقلب المحاذر
ويعجبنا انا نرى فيك معجبا
مدلا على الأيام ادلال ظافر
بشوشا تكاد العين تلمح قلبه
وتسرد في نجواه نظم السرائر
وتضحك والأتراح حولك جمة
تحاذرك خوف الجن رجم الزواهر
ونبكي وأفراح الحياة كثيرة
يحاذرننا من حولنا كالطوائر
فيا قرب ما بيني وبينك في الهوى
ويا بعد شقي دارنا في الخواطر
طوى الحب ما بيني وبينك من مدى
فنحن قرينا موطن متجاور

أيا من رأى صبحا وليلا تلاقيا
والفين من صفو وشجو مخامر

فان تخش منى الليل صعباه راسه
فاني لاخشى منك شمس الهجائر

انا الليل والسحر القدير اخو الدجى
قديما ، فماهدني الست بساحر

ألست ترينا حسن وجهك مفردا
على [illegible] الوجوه السوافر

الست ترينا القفر [illegible]
اذا شئت ، والجنات [illegible]

فياساحرا [illegible] سحرك هيكل
فزخرف بوشي السحر كنز ذخائرى

وياساحرا ، ما السحر الا ابتسامة
تشب بها روحي وتطفيء ثائرى

تبسم ألا يرضيك أن ابتسامة
بثغرك امضى من صروف المقادر

وان السموات العلى لا تنير لى
طريقا ولكن أنت تهدى ضمائرى

وان رياض الأرض ليست [illegible]
بشيء ، ولمح منك يفعم خاطرى

وان [illegible] الناس لا ينصروننى
وان جهدوا لكن حبك ناصرى

وانت الى لهو الطفولة مرجعي
ولن يستطيع الدهر ارجاع غابر

فلا تبتعد عني فانك راجع
متى تبتعد عنى بصفقة خاسر

ففي اي قلب غير قلبى ترى الذى
تراه به من معجز لك باهر

فلا قلب أعصى منه للصفو مقودا
ولا قلب اصفى منه ان كنت زائرى ٠

وكان الناقد برالو (١٦٣٦ ـ ١٧١١) صاحب الرأى الذى يقول بوجوب قيام الشعر أساسا على الحدث الحركى ٠ فاذا بدر من الحدث احساس بالابتذال وجب أن يتبعه الشاعر بالتحليلات النفسية التى تغطيه٠

يظن بوالو فى كتابه المشهور عن فن الشعر ان هذه هى الوسـيلة التى تضمن ارتفاع الشعر عن الكتابة النثرية .

أما ألان الفيلسوف الحديث (١٨٦٨ ــ ١٩٥١) فيعتقد أن ما يفصل العمل العادى عن العمل الفنى هو الاطار الشكلى الذى يأخذه هذا العمل . فالقالب الفنى الذى تنخرط فيه التعبيرات الشعرية هو الذى يشيع الجمال فى العمل بقدر ما يحمله من روح المقاومة للابتذال .

فاذا التفتنا الى تعبير ألان ذلك أمكننا أن ندرك الحركة السلبية التى يقوم بها الاطار الموسيقى الدقيق للعمل الشعرى . ان دوره سلبى لأنه يقوم بعملية الاذابة والتنحية للاحساس بالاعتياد والابتذال الذى يهجم تلقائيا على تقديرنا لأى عمل نراه ونلمسه . ومقاومة الابتذال هى العملية الأولى للشروع فى تقدير العمل الماثل . والحياة نفسها شاركت فى خلق الأطر والأشكال الخارجية للكائنات الحية على نحو ما يفعل الفنان . أو ان عمل الفنان مستمد من أصالة الحياة فى هذا الاتجاه . والقواقع البحرية كما يقول جاستون باشلار هى الدليل الواضح على قوة الحياة فى ابتكار الاشكال والنمـاذج . فطبيعة الحياة نفسها تتمثل فى حمايتها لمظـاهر الحياة داخل الأطر والهياكل . ولكن الفنان لاينتهى عندما تنتهى اليـه الطبيعة . ومن المفروغ منـه ولا شك أن هـدف الطبيعة يقف عند حد السلبية فى المقاومة من أجل حماية الحياة الباطنة . أما الفن فهدفه يمتد الى ايجابية المحتويات التعبيرية فى ابراز المضمون الشـعورى . وهنا يفترق الديالكتيك الخاص بالعمل الفنى فى استكمال عناصره وفى الانتقال الى مراحل أخرى من التقدير والتذوق . ويمكن القـول وفقا لنظرية ألان أن الجمال لا يتوافر للاطار الشكلى فى العمل الفنى الا اذا نبض بالمقاومة . حتى المشهد الذى لا نظـام فيه يمكن أن يحمل بعض الجمال عن طريق الكتلة كما نرى فى الأخاديد والجبال . ومهمـا يكن اختلاف الشـعر والموسيقى عن الجبال والوديان فى حركتها الظاهرة التى تشـبه تموج الأفكار ، يمكن أن نتعرف على فن البناء الشكلى أو فن صياغة الاطار العام بمناعته ضد التغيير . فهو لا يخلو من المقاومة أو من التجسيد الذى يشبه تجسيد المواد الصلبة . ذلك أن الأنغام الصوتية فى تجمعها تحمل معنى الصلابة التى توحى بها التحف أو الآثار أو القطع الفنية ولكن على طريقتها الخاصة . ونحن نحوم حول هيكلها الخارجى بغير اختيار فى تبديل شكل بشكل لأن الاطار الشكلى يفسد لأقل تغيير .

وأروع مظاهر الابداع الجمالى فى الموسيقى يتجلى من الصـلابة التى

تتمتع بها أشكالها الخارجية • ينبعث جمالهـا بدون أى نوع من الزيف أو الخداع فى اطارها العام • فالفن ليس مجرد لعبة • انه شىء جدى يتجلى فى طبيعة الاطار الشكلى مرة واحدة والى الأبد • وتبدو أهميته البالغة من أنه يأتى فى المرتبة الأولى ويسبق التعبير •

ومعنى هذه النظرية أن الاطار الشـكل هو الذى يأسر الانتباه لأن كل اطار شكلى لا بد أن يضم حياة ما على حد تعبير جاستون باشـلار • فالتعبير الجميل يحيى الخاطر ويدعو الى التفكير • ولكن الشكل الخارجى للعمل الفنى هو الذى يمسك بتلابيب الانتباه وهو الذى يصعد بالعمل الى مرتبة العمل الفنى • وهذا هو ما يشير اليه آلان فى كلامه عن المقاومة والصلابة فى الاطار الخارجى •

وكان بوالو يقول فى كتابه عن فن الشعر : من لا يلمس فى نفسه القدرة على صياغة الشعر ونظمه فليتركه ولينصرف عنه • وكان العقاد يقول الشىء نفسه تقريبا • أما الان فيحذر الناظمين ضد المزاعم الخادعة أيضا • ويقول ان بعض الناس ينطقون بهذه العبارة « انه يقتل نفسه من أجل النظم • فلمـاذا لا يكتب نثرا ؟ » وهـذه فى رأيه تعبير عن الحس المشترك الصحيح أو عن الحس البديهى السليم • ولكن لا يعد نثرا كل ما ليس بشعر • فهناك متواليات لفظية لا جمال فيهـا • فلا ينبغى أن نسىء الى النثر • ومعجزة الفنون الشعرية تكمن فى التوافق بين الوزن وبين المعنى • ولا ينبغى أن يخفق الايقاع الموسيقى فى القصيدة بسبب المعانى • وهذا هو ما ينساه ويغفله عادة الشـعراء الذين يحبون أن يطوا النغم الموسيقى فى المعنى • هذا فى رأى آلان هو ما يهمله الشعراء الذين يضمنون الايقاعات فى المعانى ويحسبونها وحدها قادرة على ايجاد النغم الداخلى فى القصيدة •

والان يعتقد أن المشاهد الانسـانية التى نستخلصهـا عن طريق الأصوات والنبرات تجد طريقها الى الحياة فى الوزن الشعرى • أما القافية فلا يجب أن يجور المعنى عليها ولا أن تجور هى على المعنى • فالتوافق بين المعنى والمبنى هو أساس الارضاء فى الشعر • والقافية تعين على التقسيم والتوقع والسماع • فقدرة الشاعر على خلق المتتابعات البسـيطة التى تتجاوب مع تطلعات القراء هى الأصل فى نجاحه أو فشله • ولن تظهر الأشعار الجيدة بغير توافق الانبثاقات مع التدرج الصوتى • والوزن هو الذى يقود هذه الحركات ويوازن بينهـا حتى يصل بها الى المسـتوى اللائق •

والعقاد حريص على أن يبقى للقريض وزنه • وهو يعالج موسيقى الشعر بوسائل متباينة حتى يخلق النغم الذى يريده • ولا تكون لأشعاره أوزان الا ما اختـــار كأنها هبطت منذ الأزل فى هـــذه الصورة الملتحمة المتماسكة •

خذ مثلا قوله :

حســـبى وحســـبك أنك الأولى وانى الأول
والعـــام يفتح بيتنـــا وعلى يدينـــا يقفـــل
تتبـــدل الدنيـــا على هـــذا ولا نتبـــدل

* * *

ضـــمى ثغيرك يا بنيـــة واطردى الشيطان ضما
لا تتركى ما بيننـــا وكنـــا يلوذ به ملما
ان الثغـــور مقبلات لا تســـيغ اللغـــو طعما

* * *

ضـــمى ثغيرك يا بنية واقربى منى وضـــمى
ضمى عرى الستين فى حفل من الثنتين جم
قولى لتلك تمهـــلى ولهـــذه قولى هلمى

وهو حريص أيضا على أن تكون أشعاره باللغـة الحية المتولدة من الحس العادى • فهو يشعر بما لهذه الحقيقة من أهمية • فقد وهبها ديوانا كاملا هو عابر سبيل • وأحب أن يأتى شعره صورة صادقة لحياة الناس ومعاشهم اليومى • وكان أول من جرؤ على تخطى أبواب الحياة العامة من أجل استقاء عباراته وخطراته من ينابيعها • فهكذا تجدد فى الشـــعر عناصر الحياة مرة من الاهتمام بالاطار الشعرى الموسيقى ومرة بالعنـــاية بالألفاظ والتراكيب ومرة ثالثة بالصور والخيالات والمشاعر •

وحسب العقاد فى الشعر هذه الرسالة •

(٤)

وشعر العقاد فى أغلبه واضح سلس جميل • يرق حتى يبلغ درجة العذوبة ويجسم الحركات والأشياء حتى يرتفع الى مستوى التمثيل الحى الصادق • ولكننا لا نعدم مع ذلك لدى العقاد مشاعر مبهمة وأحاسيس غامضة • وحين يسيطر عليه الاحساس المبهم نجده يحاول صياغته فى

صورة تجريدية تنقله الى القـارىء على شكل لغتات • والذى يفيد العقاد فى هذه المناسبات هو أن طبيعته فى اختيار الكلمات قوية • لذلك تخلق الكلمات بذاتها احساسا ذوقيا شاعريا لدى القـــارىء •. الكلمات التى يختـــارها الشاعر تصب الاحساس نفسه لدى القارىء بحيث يستشعر حقيقة الانفعال الذى صدرت عنه الأبيات •

ويقول العقاد مثلا فى القصيدة « نور » :

آمنت الك نـــور
والنور شبـــتى العـالم

هنـــا ريـاض ودور هنـا ظبـــاء وحـــور
هنـا • هنـــاك طيـــور هناك ركب يســــــير

هنـاك مـــاء طهـــور
وكن والليل قـــاتم
غولا من الظـــل جـاثم
دنيـــــا بغير معـــالم

* * *

وطال ليـــل شـــقائى
مـــا بين غـاف ونائم

فحـــين لاح ضـــيائى لمحت يـــوم رجـــاء
ويوم وشـــك لقـــاء وليـــلة من صـــفاء

وليـــلة من جفـــاء
وكن والقـــلب غـــائم
غـــولا من الظل جــــائم
عمر بغـــير معـــالم

فهنا فى هذه القصيدة يحاول الشـاعر الهرب الى عالم الأشـــياء ويسعى لتوزيع أحاسيسه بين مظاهر مختلفة من الطيور وملامح الحركة والحياة • ولكن وطأة الانفعال المبهم فى ضميره لا تدع له فرصة الانفلات• فينقل فى أبياته هذه الصورة التجسيدية الرائعة لملامح الضبيعة ولغموض مشاعره •

والانفعال المبهم يطغى على المشاعر أحيانا فيجعله أقرب الى التطلع

الصوفى • ومهما حاول فهو لا يقوى على نفض هذا الانفعال الا فى صورة تجريدية تتأتى باللفظ وبالدلالة الشعورية الحية • ويكمن العمل الفنى هنا فى قدرة الشاعر على استيعاب الاحساس وفى نفضه على هيئـــة نسق نغمى تصويرى • انه فى هذه الحالة يطلق عنانه للاحساسات التى ليس لها تحديد وانما تظهر بالبريق والألوان والأشـــكال والأحجام والصور الخاطفة • ويتركز اعتماده فى هذه الحالات على ما تطلقه الكلمات من إلشحنات وما ترسمه من الأجواء • فحينما يستولى على قلب العقـاد احساس مبهم تراه يطلقه من عقاله فى تخطيط يشبه الأداء التصويرى •

وهذا نموذج آخر لأشعاره من هذا القبيل فى قصـــيدته « الى الدنيا •• الى الدير » :

الى الدنيـــا الى الديـــر ! وان كانـــا نقيضـــين
ففى الدنيــــا وفى الديــر حجـــاب حـــائل بينى

* * *

الى الدنيـــا لكــل النـــا س الا لى فلا قـــربى
اذا أرضـــيت كل النـــا س هل ترضيننى حبـــا ؟

* * *

الى الدنيـــا الى الديـو الى الأخـــرى الى القبـر
تســاوت كلهـــا عنـدى فلو خـــيرت لا أدرى

* * *

الى الدنيـــا اذن لا يـــا رك الخـــلاق فى الدنيـا
ضريح ما طـوى المحيـــو ه ميتـا كان أو حيـــا

ووطأة الاحســـاس المتناقض المبهم على عملية الابداع الشـــعرى عند العقاد هى التى تنفذ الى كلماته فتكسبها رونقا خاصـــا وتبعث فى أرجائها عالما علويا حالما • وهذه تجربة مر بها العقـــاد مرارا وأذكت فى خاطرى مشاعر وجدانية وصوفية • وتضيع معـــالم الأشياء فى ذهنه ولا تبقى له سوى الحيرة وتغييب جزئيات الوجود من حوله فلا يأوى الا الى الحياة فى مظهرها الموحش •وتأملات العقاد من هذا القبيل يسودها خمود قاتل لأنها تشعر بثقل الاحساس الغامض • ولكنه يشيع فيهـا الحياة والحركة اذا نقلها الى عالم القصيد عن طريق اللمحات الزمانية • فهو يختار من الاشارات الزمانية ما يكفى لابراز التضاد من ناحية ولبث

الحياة البعيدة عن السكون من ناحية أخرى • ففى قصيدة « نور » التى سبق عرضها وضع التعارض فى حركة الأضواء والظلال وفى تشاحن الليل والنهار • وفى قصيدة « الى الدنيا ••• الى الدير » جعل الموت والحياة عنصرى التدافع بين الحب والعزلة • وهنا فى هذه الأبيات تحت عنوان « فراغ •• فراغ » يحيل العقاد برود الاحساس بالفراغ وسكون الموت الى معركة صامتة فى اللحظات المتكررة • او بعبارة أخرى يحيل العقاد فكرة العدم المجردة الى مشهد فناء متكرر مع السويعات التى تلتهم عمر الانسان •

فراغ • فراغ

فراغ بارد شـــات بلا مــاض ولا آت
أأموات ؟ نعـم لكن نحس فنـــاء أموات
ويا بؤس الفنــاء نحســـه فى كل ميقات

فالعقاد يلجأ الى العنصر الزمنى اذا انتابه الشعور بالموات والضيعة• وبذلك أمكنه أن يخلق حركية الحياة فى أحاسيسه المبهمة وأن يجعـل منها أصداء ذات ألوان وشيات • وطبيعة العقاد الشعرية تجول وتجول فى ظلمات الحياة وأرجاء الكون • وترصد مظاهــر العيش الذى يتغير وتتلمس عنفوان المحن والآلام • ولكنه مع ذلك كله لا يعبر عن المعانى الا فى أشكال ونماذج وشخوص •

فاذا أراد أن يعبر عن الفرحة اختار لها نموذجا مما يحدث فى حياة كل انسان :

وكانت لى ســلالم ارتقيهـــا فرادى لا ابالى مـا يليهـــا
فعـــدت مثنيـا عجـــلا كأنى أخو العشرين مرتقيا سنيهـا

فهذا نموذج من الفرحة التى تدفع الانســان الى تسلق الســـلم درجتين درجتين من أثر السرور والانتشاء • وهذه الصورة الحسية وحدها كفيلة بأن تعبر عن كل ما يجول بخاطره •

كذلك اذا شاء أن يبدى اســـــتغرابه من الفتى الذى يعشق المرأة العجوز الهرم نقل اليك هذا الاستغراب فى مشاهد حسية من الطبيعة :

رأيت النهر ظمآن الى البيـــداء يرويهـــا
رأيت الزهر مشتاقا الى الأطـــواد يحليهـــا
رأيت الليلـــة الليــــلاء والكوكب حاديهـــا

رأيت الخان تنساب الى أفواه حاسيها
رأيت العجب العاجب فى الدنيا وما فيها
شبابا هام بالهامة قد شابت نواصيها ..
أخال الحب يستحدث ترويحا وترفيها
الا فليله ما شاء فما تغنى ملاهيها

واذا شاء أن يعبر عن أعماق الحب وأبعاده التى يكتشفها الانسان من المحبوب صاغ ذلك فى مثال مشهود :

شاعرا عاشقا وقارىء كتب · قرأ الكتب دارسا فاطالا
فاذا نظرة بلحظك تبدى · صورا ما طرقن عندى بالا

وعندما تلوح له خيانة المحبوب ويود أن يورد المعنى فى شكل تعبيرى مفصح يكتفى بأن يقول :

أعفيك من حيلة الوفاء · انك أحلى من الوفاء !

حتى الحب لا يترك الاحساس به مجردا وانما يعطيه أثوابا من الواقع :

أحبك حب الشمس فهى مضيئة · وأنت مضىء بالجمال منير
احبك حب الشمس فهى مضيئة · وأنت كما شاء الشباب نضير
أحبك حبى للحياة فانها · شعوركم لله القرب منك شعور
فهل فى ولوعى بالحياة والزهر سبة · وهل فى ولوعى بالحياة نكير

ولا يصور النفس الحزينة الا بمشهد حسى قاتم :

تجوس أفاعى الحزن فى جنباتها · ويا ربما تأوى الضلوع الأفاعيا
فلا تحسبن البوم تنعى المغانيا · فقد تندب البوم النفوس البواليا

وحين يصور فتاته يحيلها الى مرئية من المرئيات الحسية :

وردتى آفتها فرط التحدى · جاوزت فى كل شىء كل حد
حسنها هيهات منه حسن ورد · شوكها أنفذ من شوك سواها

وحقيقة التضاد بين مظاهر الوجود قديمة فى تعريف العقاد لها • وقد عبر عنها فى قصيدة رثا بها أخاه الفريق حين قال :

يازهرة شرقت بما تحيا به · فذوت واورق شوكها بفؤادى
ان الحياة ـ وما حييت لكى ترى · سر الحياة ـ كثيرة الأضداد
فلئن عدوت من الحياة نعيمها · فلقد عداك شقاؤها المتمادى

وعاد فسجل احساسه ذاك مرة أخرى فى ترجمة شيطان حيث يقول :

عفـــوك اللهم لا خــلد هنـــا ومتى كان خلـود فى قيـود ؟
ســيظل الخلد وســواس المنى وصدى الليــل وأحلام الرقود
وســيبقى الكون فى جوهــره أبدا شــيئين مهمــا اقتربا
خــالق قــام على عنصره ومخــاليق رأوه احتجبـــا
صانع يحيى البرايا منعمــا وبرايا صــنعها من وجود
وكـلا هــذين موجـــود فما أبعد البون لعمرى فى الوجود !

وليتنا نستطيع أن نعرض كل ما يعجبنا من شعر العقاد • فنحن نود أن يستعيد القارىء تجربة الالتقاء بالعقاد خلال أنغامه الشعرية فيعرفه ويألفه • ومن يشاء فليرجع الى قصيدته عن « قيثارة تبعث » والى قصيدته « معجزة وبرهان » فى ديوانه بعد الأعاصير • وكذلك الى قصيدته «الورد» فى الجزء الأول من ديوانه الكبير والى قصيدته « من نشيد الأناشيد » فى أعاصير مغرب • وليقرأ من يحب قصيدته تحت عنوان « مائدة » والاخرى تحت عنوان « ليلة البدر » من ديوان وحى الأربعين • وكذلك « ســاعى البريد » وقصيدة « بيت يتكلم » وقصيدة « مادى يعلل الربيــع » فى ديوانه عابر سبيل • فذلك يشفع لنا فى عدم قدرتنا على استيفاء حاجة القارىء من التعرف على خاصية العقاد الشاعرية التى هى أصـــل كل الملكات والمواهب فى قلبه وعقله ووجدانه •

النساء في شعر العقاد

كانت المرأة موضوعا شعريا منذ أقدم عصور الأدب العربى وكان الغزل ولا يزال من اهم ابواب الشعر ومن أكثر اغراضه قربا من القلوب والعقول والأسماع ٠

وفى أكثر مراحل تاريخنا العربى تزمتا ورجعية ظل الشعر فى باب الغزل مباحا وميسورا ولم يعترض عليه أحد من رجال التربية أو من رجال الأخلاق ! لهذا كسب العرب ديوانا زاخرا بمغامرات الشعراء العاطفيـة وتجاربهم الوجدانية ٠ ولكن الواقع أن التفات الشعراء الى النساء لم يكن وليد التجارب الحية الصادقة بقدر ما كان تلبية لرغبتهم فى انشاد بعض اشعار الغزل على طريقة التقليد للأقدمين ٠

لهذا لم يحتو الغزل على أوصـــاف مختلفة للنساء التى التقى بها الشعراء وانما كانت الأوصاف دائما شبيه متقاربة فى الخيال والتصـــور الشعريين ٠ وذلك لأن الفتيات كن أقرب الى الموضـوعات العقلية التى يهيىء الشاعر وجودها فى ذهنه منها الى الصديقات الحقيقية التى يتأثر الشاعر بلقائها فتترك شخصيتها أثرا في وجدانه. ونتجت عن ذلك ظاهرة غريبة فى الأدب العربى وهى ان النساء اخذن طابعا معينا يقترب منـــه الشاعر ويبتعد وفقا للمقتضيات الاجتماعية فى الحياة من حوله ٠ ولا أريد أن أستعيد الأوصاف الجمالية التى اعتبرها الشعراء مثـــلا أعلى فى كل

امرأة • فهذه الأوصاف غالبا ما كانت تعبر عن الظروف الاجتماعية العربية وحدها ولا تختلط بذوق الشاعر نفسه وتجاربه • وأصبح من الصعب أن يستخرج الناقد شخصية الفتاة وكيانها من أقوال الشاعر أو أن يقف على صفات البنات واحدة احدة من صديقات الشاعر • الواقع أن الشاعر كان يأخذ بالتقية في ذكره لأوصاف البنات حتى لايؤاخذ على تخصيصه احداهن بالحب والعطف وحتى لايتسبب في ايذائها ان كانت ذات أقرباء أو معارف • قد يكون هذا سببا مباشرا فى التأثير على الغزل وفى التقليل من الملامح الشخصية عند ذكر الفتاة المحبوبة • فالأوضاع الاجتماعية لم تكن تسمح بذلك وحرية المرأة لم تكن مباحة •

ولذلك نجد العقاد نفسه وهو يشرع فى ذكر احدى تجاربه الغرامية يقدم ما يشبه الاعتذار عن قول الشعر في مثل هذه الأغراض التى لاتليق بالرجال الجادين • وهو يتقدم بقصائده الغزلية فى شيء من التؤدة فيقول عن أولها بديوانه الأول الذى طبعه سنة ١٩١٦ وهي قصيدة ليالى الهوى انها قصيدة عن لسان بعض من طلب النظم فى هذا المعنى • ومع هذه القيود التي كانت لاتزال مفروضة على علاقات الرجل بالمرأة فى النصف الأول من القرن العشرين امتلأت قصائد العقاد بالأوصاف الشخصية التى تحدد ذاتية الفتاة التى كان يتغزل فيها •

لهذا نستطيع أن نستخرج من دواوين العقاد فتيات معينة بدمها ولحمها وخلقها وشكلها لاتختلط واحدة منهن بالأخرى • يمكن اذا استعرضنا شعره أن نعثر على مجموعة من النساء كل منها ذات خصائص وملامح وطبائع مغايرة لسواها • فكل امرأة يرد ذكرها في قصائد العقاد هى شخصية حقيقية كاملة المعالم • بيد أن هذا صعب التحقيق فى الجزأين الأول والثانى من الديوان وهما اللذان ظهرا فى سنتى ١٩١٦ ، ١٩١٧ على التوالى • ففى هذين الجزأين يبدو أن العقاد كان يتعرف على النساء معرفة عابرة لاتمهله الوقت الكافى لاستعراض صفاتها بقدر ما تعينه هو على تخصيص مشاعره وتحقيق رغباته الفنية والأدبية فى الوصف والتعبير والأداء •

فهنا مثلا تظهر قدرة الشاعر على التعبير الفنى :

وباتت تساقيني من الوصل خمرة	سقى الحب مجناها ورف حياله
وتقطف لى من زهرها بيمينها	وترشفنى عذب الهوى وزلاله
تجول بكفى فى مناعم جسمها	ترينى منه لينه واعتداله
وتلمسنى عضوا فعضوا كأنما	تسلمنى أوصاله ووصاله

ولكن هذه الأبيات لاتخلو الى جانب تعبيرها من وصفها للفتاة التي ينظم العقاد شعره فيها • فقد كانت متمتعة بقـامة معتدلة وجسم جميل ولكنها كانت الى جانب ذلك تتأثر بطبيعة المرأة في الدلال :

وانـــت دان نافر ، راحـم	قاس ، محب كاره ، لاتدوم
ويا نسيما شـــبما ربمـا	أذكى كما أطفا ذاك النسـيم
ويا بريئا وجهه في العيـون	ويا أثيما في الفؤاد الـكليم

وهي فضلا عن ذلك تحب المال ولا تدرك قيمة الشعراء :

أنت شمس لهيبهـا في فؤادى	انت نور لظاه في أحشائى
انت عندى كليلة القدر في الدهـ	ـر ولكن لاتســتجيب دعائى
تتجـــلى في كل حسن فأرعا	ك وأنسى محاسن الاشــياء
حســبنا منك أن نراك وان كنـ	ـت تميل الجفون بالاغضــاء
وتجل الغنى وما الحســن الا	سلعة عند معشر الأغنيـــاء
ليس للحسن روعة تملك النا	س الا في أعـــين الشـعراء

ويبدو أنها كانت احدى صديقات العقاد في أول علاقاته الغراميـة غير المحددة • أما الملامح الحقيقية الواضحة الكاملة فتبدأ في البزوغ مع ظهور ديوانه الثالث ونستطيع أن نرى شخصيات حية في أشعاره نتابعها على مراحل طويلة • وهكذا نلمح من بين النساء التي عرفها العقاد بعض من كن على علاقة دائمة به على نحو لم يكن واضحا فيمن صاحب منهن في شبابه المبكر • فهنا تشعر أنه مأخوذ بفتاة مصرية من أصل لبناني ذكرها عند زيارته للبنان بهذه القصيدة :

غريبة الدار عنـــد النيــل تذكرة ••
من وامق في ربى لبنـــان مغترب
بتنا بديلين والدنيــا تبدلنـا ••
فيالنـــا من شريكى موطـــن عجب
كلاهمــا نازح في دار صــاحبه
وداره في الهوى موصـــولة السبب
يا بنت لبنان أقريك التحيـــة من
هضاب لبنان •• بين البحر والشهب
أمسيت ضيفك في أرض لبست بها
وشى الصبا وبرود الحســن والطرب
أرى مثالك فيهـا حيثمـا طمحت

عيني .. وأخلـو به في كل مرتقب
فانت لبنـــــان في زهر وفي ثمر
وأنت لبنان في مساء وفي عشــــب
وفي نقيضـــــيه من وعر ومن دمث
وفي مزيجيـــه من نور ومن سحب

فأرض لبنان هي الأرض التي قضت بها سنوات صباها . وهـــو يعكس صفات هذه الأرض على شخصها ويحس أنها تشبه زهر لبنان في رونقه وبهائه وحسنه وأزهاره وتعادل الثمار في حلاوتها ونضرتها . ويرى الماء السلسال العذب والعشب الأخضر اليـــانع الرقيق فيذكرها للشبه بينهما . لكن فتاته التي يناجيها لم تكن دائما على هذا النحو . فهي أحيانا رقيقة وديعة كالماء والعشب ، وأحيانا صعبة المراس كالهضاب والمرتفعات . لذلك تعطيه مشاهد لبنان جانبا من طبيعتها التي تشبه النور الساطع المتلألىء أحيانا وتشبه السحب والغيوم القاتمة أحيـــانا أخرى . فأرض لبنان ومناظرها تختلف من مكان الى مكان وبعضها يشبه معشوقته في دماثتها ورقتها وبعضها مرتفع ومنخفض يشبهها في مزاجها المتقلب وطبعها الوعر .

ويبدو أن هذه الفتاة لعبت أخطر دور في حياة العقاد لأنها أعطته من السعادة ما لم يكن يخطر له على بال ، ولكنها وقفت أمامه ندا لند وناوأت رجولته وسطوته وكبرياءه . وصدمت أحلام العقاد بفرديتهـــا واستقلالها وشبابها المتأنق المدرك لأصول العلاقات . فقال فيها :

لا أنا أعمى فاستريح ولا أنت من الحس والصبا عاطل
باى معنى عليـــــك لا تعلق العــــين وأنت المبرأ الكامل
بوجهك الغض أم بقامتك الهيفاء .. ويحى أم خصرك الناحل
أم بسهام العيون تكسرها في حبـــة القلب أيها القــــاتل

فهي فتاة دربت الحياة وعرفته في مقتبل عمرها . وهي تجمـع بين الوان من الحسن والجمال وصفات شتى من الدلال والبراعة . ولايكاد يذوق تفاح لبنان حتى يذكرها فيقول :

وجدت حلـــواه في قلبي وفي نظــــرى
وما احتــــوته يدى أو ذاق منه فمي
أذوقـــه وهيـــام الشـــوق يوهمني
انى أذوق الجنى من ثغــرك الشـــبم

يا جنة القلب كم لى فيك من ثمر
سقاه صوب الهوى لا عارض الديم
حسن وحب وتفاح وفاكهة
هذا النعيم الذى نبشت فى القدم

وخرجا يوما للنزهة معا وزارا حديقة من الحدائق وأخذوا يلهوان يمنة ويسرة حتى اقتطفت بعض الأزهار وقدمتها اليه فقال فى وصفها :

أطل على الحديقة مستهلا	بابهج من أزاهرها جبينا
بوجه يفضح القمر اتساقا	ويملأ صفحة الدنيا جنونا
وحيانا بزهر من رباها	فيا للورد يهدى الياسمينا

والفتاة التى يذكرها العقاد فى الأبيات السابقة ذات جمال خاص وهى الى جانب ذلك جذابة تبعث على الفرح والاشتهاء :

انما الكوثر ثغر باسم	من حبيب لك مأمون النفار
ان تسل عنه فانى ذقته	خير ما يسقى ويجنى ويشار
لاتقل شهدا فللشهد أذى	أو تقل خمرا فللخمر دوار
جزلة المس شهى شمها	حلوة المزجين من ماء ونار

ولكنها تثير فى قلبه كل دواعى الشك فى أخلاصها له وتجعله يصل الى أقصى درجات الألم الحقيقى فى معاناته لحبه لها الذى يبلغ عنده درجة العبادة :

وأصبح ايمانى بحبك دانيا	الى الشك منه كل ما كان يبعد
هبينى امرأ فى قبلة الوحى قائما	طوال الليالى قانتا يتهجد
رأى قبسا يعتاده ثم أطبقت	عليه ستور ، فهو لايتوقد
ونادى ، ولا من يستجيب نداءه	وضل ، ولا من فى الدياجير يرشد
ألا يعتريه الشك والشك قاتل؟	ألايحتويه اليأس واليأس ملحد؟
فجودى بايمان على موطد	والا بكفر فيك لايتردد

ويتبع مرحلة الشك عنده مرحلة من القطيعة تجعله يتألم من ذكر كل ما يتصل بالحبيبة أو يعيد اليه بعض شعوره نحوها • فالأماكن التى اعتادا ارتيادها والأوقات التى اعتادا اللقاء فيها والأيام التى قضياها سويا تجعله يفكر فيها ويحس بالمرارة والشوق الذى يبلغ مرتبة العذاب • فهذه المظاهر الحيوية التى كانت تبعث فى قلبه السعادة تحولت الى مواضع لالهاب احساساته ومشاعره وصارت سببا فى شقائه •

ولكنه لا يكاد يستعيد لقاءه لها مرة حتى يناجيها مناجاة من يدرك حقيقة شخصها ويبدع فى فهمه لذاتها ويعرف أنه يحبها حبا قويا عنيفا لا يتوقف على أى داع من دواعى الهيام سوى ولهه بها • فهو حين يلقاها يتبين أن سروره بها وحبه لها لا ينشآن عن صفاتها وجمالها وانما ينشآن عن ارتباط قلبه بشخصها ويجد نفسه مسوقا الى التوله بها لأنها فى حد ذاتها جديرة بحبه وهواه :

يا رجائى وسلوتى وعزائى ... وأليفى اذا اجتوانى الأليف
نبئينى ، فلست أعلم ماذا ... منك قلبى بحسنه مشغوف
كل حسن أراك أكبر منه ... ان معناك تالد وطريف
لست أهواك للجمال وان كا ... ن جميلا ذاك المحيا العفيف
لست أهواك للذكاء وان كا ... ن ذكاء يذكى النهى ويشوف
لست أهواك للدلال وان كا ... ن ظريفا يصبو اليه الظريف
لست أهواك للخصال وان ر ... ف علينا منهن ظل وريف
لست أهواك للرشاقة والرقـ ... ـة والأنس وهو شتى صنوف
أنا أهواك أنت أنت فلا شـ ... ىء سوى أنت بالفؤاد يطيف

وهنا يعطينا الشاعر تصويرا كاملا لمحبوبته • فهو يسأل نفسه ويسألها عن السر الذى يجعله منجذبا اليها ويأخذ فى تعديد صفاتها • فهى جميلة رائعة الحسن وهى ذات ذكاء وصاحبة ظرف ودلال ولها خصال كريمة طيبة ثم انها مسامرة مؤنسة رشيقة رقيقة • ولكن هذه الصفات جميعها ليست سر حبه لها وانما السر فى هذا الحب هو شخصها الذى يطوف بخياله فيبعث فيه عاطفة مشبوبة وهوى عنيفا •

وهو يعود الى وصفها من جديد فتلمس فيها الأديبة التى تقرأ معه والفتاة الحانية التى تلعب الى جواره • فهى أحيانا تلهو فى مرح وسعادة وأحيانا تجلس الى الكتاب للقراءة والدرس والاطلاع أو للاستماع الى الموسيقى وأنغام :

وعلى توقيع أنغام الرجاء ... نبعث القلبين حبا ، وخصاما !
عبث الطفلين فى مهد الصفاء ... كلما راعتهما الضجة ناما
وحياة بين روض وغدير ... وحياة بين الفاف كتاب
هذه أو تلك يحويها العبير ... ويروى سرحها ماء الشباب
لا ظلام الليل يثنيك ولا ... لفحة القيظ ولا اليوم المطير
فى دلال منك موفور الحلى ... وكلال منك كالظبى البهير

وهى قد تخفى على الناس جميعا ولكنها لاتخفى عليه هو فى شئ• انه يعرفها معرفة كاملة من كل نواحيها وينفذ الى حقيقتها حيث لا يستطيع الآخرون سوى معرفة ما يتراءى لهم بشأنها • لقد عاش معها أياما جعلته يتخطى السياج الذى تحيط المرأة نفسها عادة به واقتحم عالمها الخاص الذى لا يستطيع أحد أن ينفذ اليه • وبهذا لم تعد خصالها خافية عليه وأدرك حلوها ومرها على السواء :

من من الناس قد رأى خير ما فيـ ـك وأخفى ما فيك من أدواء
من جمال ومن ذكاء ومن غـد ر ومن صدق شيمة وَرِياء
فلهم منك صورة وأحاد يث ولى منك لب ذاك الطلاء

فهذه الصديقة التى أتينا على ذكرها حتى الآن لها صفات أقرب الى المرأة الحقيقية بصفاتها الأنثوية القوية مع مقدرة فنية وفكرية تسمح لها بمجالسته فى كثير من أوقاته • انها على الأخص قادرة على ارضاء جميع نزواته وعلى الالتقاء به فى جميع حالاته • فهى ذات حديث يشوقه وذات قد يفتنه وذات خلق يعجبه • اذا وعدته لبت موعدها معه فى قيظ الظهيرة أو فى ساعة المطر أو فى أحلك الليل • واذا جلست اليه حدثته فيما يرضيه ويعجبه واذا غابت عنه أهاجت فى قلبه أشواقه وأحلامه •

وعلى الرغم من تجربته العميقة فى غرامه بها فهو لم يقف عند حد حبه لها واستطاع أن يجمع الى شغفه بها أنواعا أخرى من الحب :

عرفت من الحب اشكاله وصاحبت بعد الجمال الجمال
فحب المصور تمثاله عرفت ! وحب الشباب الخيال
وحب المزخرف والمنتقى وحب المجرد والعاطل
وحب الجماح وحب التقى وحب المجدد والناقل
وحب التي علمتني الهوى وحب التى أنا علمتها
ومن استمد لديها القوى ومن بالقوى أنا أمددتها

وهذا معناه أن العقاد لم يقف فى حبه عند تلك المرأة التى أتينا على وصفها وأنه عرف ألوانا أخرى من الحب • ولكننا مع ذلك لن نتوقف عند حبه العابر وانما نود الإستمرار فى اكتشاف المرأة الثانية والمرأة الثالثة وهما اللتان لعبتا دورا كبيرا فى حياته بعد هذه الأولى التى كانت ذات تأثير كبير على كيانه • فهناك حب عابر لن نقف عنده وسنظل نبحث عن خصائص الصديقتين الثانية والثالثة التى تكون نقط ارتكاز قوية فى حياة شاعرنا •

ونحن نعرف أن مباحث اللغة شاسعة الأطراف تشمل قواعد الفكر الذى يسيطر على كيانها ، وقواعد التعبير التى تتحكم فى عباراتها ، وقواعد الدلالات التى توجه الفاظهـا • ولكن ـ قبل هذا كله ـ ينبغى أن يقترب الانسان من حقيقة اللغة التى يباشر الفكر والتعبير والرمز أصـوله عن طريقهـا • يجب أن نعرف ماهية هـذه اللغـة حتى نتصرف فى أوجه استعمالاتها على النحو الذى يناسب قوامها الأصلى ، وحتى يأتى نتاجهـا فى كل فرع موافقا لجوهرها ، متجاوبا مع مزاياها • بل علينا اكتشـاف خصائصها حتى يمكن التطور بها نحو السبيل الملائم ، وتلافى ما قد يكون فيها من عيوب • فان لغة من اللغات ـ كما يقـول العقاد ـ يعيبهـا على الأغلب الأعم نقصـان : نقص فى المفردات ونقص فى أصـول التعبير • والنقص فى المفردات مستدرك لأنها تزداد بالاقتباس والنقل والتجديد • وما من لغة الا وهى فقيرة لو سقط منها ما لم يكن فيها قبل بضعة قرون • أما النقص المعيب حقا نقص الأصول والقواعد الأساسية فى تكوين اللغة • وهذا ما لا يمكن تلافيه الا بمعرفة امكانات الدلالة فى صورها المختلفة ، حتى تثبت مقدرتها على مسـايرة الزمن فى عصرنا هـذا وفيما يلى من العصور •

ونشعر من أول صفحة من صـفحات الكتاب أن العقاد يريد فعلا الوقوف على جوهر اللغة لمثل هذا الغرض ، وكلماته تعبر عن هذه الرغبة القوية فيقول : ان فصول كتابه تتعلق باللغـة المعبرة ، وان علماء هذه اللغة يجب أن يجدوا الهداية النافعة فى « سليقتها » وان عناصرها تدل على سليقتها الشاعرة التى تجعل ذهن السامع العربى قادرا على النفاذ فى الصورة الحسية الى دلالتها النفسية وتدعوه الى فهم المعنى المقصـود على الأثر • فالسليقة الشاعرة هى سهولة استخلاص المجاز الشـعرى من الألفاظ المحسوسة ، وبهذه السليقة تتصل المفردات اللغوية بأشكالهـا المحسوسة ، أو تنفصل عنها ، ولا تبقى لها غير معانيها المجازية ، لأنهـا مفردات فى لغة شاعرة يعمل فيهـا الخيال والذوق ، كما تعمل فيهـا الأبصار والأسماع •

والاعراب العربى أثر من آثار استخدام الحركة فى التعبير عن المعنى والاعراب المفصل فى لغتنا الشاعرة ، وهو آية السليقة الفنية فى التراكيب العربية المفيدة ، لأن علامات الاعراب فى الكلمة تدل على معناهـا كيفما كان موقعهـا من الجملة المنظومة • ومن هنا لا يصـعب على الشاعر أن يتصرف بها دون أن يتغير معناها ، لأن المزية الشـعرية ـ وهى مزية

وهى وديعة فيهـا دفء الشمس ونضرة الروض وخفة الطير ورقة الجدول :

جمعت محاسن فى صباك تفرقت فى صـنعة الخلاق أى تفرق
فى الشمس أوفى الروض أوفى الـ ـطير أو فى الجدول المترقرق

وهى رائعة الخطو تكاد تبلغ مبلغ الوهم فى حقيقتها :

رائـع يخطر فى مشيته خطوة الطيف لمن لم ينم
أنت وهـم لم تزل فى خاطرى لست يا صاح بلحم ودم

ولا يعدو فى ارتباطه بهـا أن ينعم بلحظات من الوصـال المحافظ الذى تتمسك به مسيحية شديدة التدين تذهب للحج الى روما فيناجيها:

آل روما لـكم منا الولاء وثنـاء عاطر بعـد ثنـاء
فى حماكم كعبة لا كالتى يعمرها بينـكم رهط القسوس الحنفاء
من حيـاة هى لا من بنيـة شـادها صـخر ووشاها طلاء
كرمـت روما وذكراها بهـا وبنو روما ، وما تحت السماء
نزلت ثم حجيجـا داعيـا وهى أولى بحجيج ودعـاء
سلمت روما التى أنت بهـا وسرى يمنا بها سارى القضاء
وكساها لك نساج الربى كل يوم زينـة شتى النمـاء
وجلاها تك من يجلو لنا بشعاع منك آفاق الرجاء
والـذى أولاك من أنعمـه بهجة النورين : حسن وذكاء

انها لا شك جميلة ذات صـفات تسلب قلبه وتشغل لبه كما أنها تفهم لواعج نفسه وتشاركه احسـاسه بالحياة وبالقيم العـامة وتتعاطف معه وتعجب بمواقفه • ولكن الزمن يمر سريعا ويجد نفسـه أمام امرأة أخرى فيمضى معها فى التجربة الثالثة والأخيرة بالنسبة الى النساء اللائى كلف بهن العقاد كلفا غير عادى :

خفقـات تلك من وزن جـديد أيهـا القلب فاسمعني صداك
ذلك الوجه وما العهـد بعيـد أنت تهـواه فـلا تنـكر هواك
أنت تهـواه وتسـعى بى هنا كل يوم بعـد يوم كى تراه
لا تراوغنى وقـل هيـا بنـا فى صريح القول نستجلى سناه

فهو يكتفى بأن يستكمل ساعات سروره ولهوه وبأن يشبع حبه ويرضى هواه • وأحيانا يعيش معها لحظات قاسية تعيد الى الذهن لحظات من حياته خلال حبه الأول وترجع الى الخيال ساعات القلق والاشتهاء والألم التى مرت به فى شبابه الأول :

وردتى ياصاحبى فىالورد بدع	بدعها طبع وكل الورد طبع
طبعها كالفخ ينهاك ويدعو	وبلاء النفس فى مس جناها
أن تقل فزباجنى قلت رويدا	اجنى الكيد فهل نأمن كيدا
اجنى القيد فهل نحمد قيدا	اجنى يا ويحها أشهى أذاها
وردتى آفتها فرط التحدى	جاوزت فى كل شىء كل حد
حسنها هيهات منه حسن ورد	شوكها أنفذ من شوك سواها

وهكذا مر العقاد بثلاث نجارب من أعمق تجارب الحب واستطعنا أن نستخرج من أشعاره ثلاث نساء أحببهن العقاد حبا قويا لا يشابه الانفعالات العابرة • وقد تتبعنا الخيوط المتقاربة والملامح المتشابهة فى كل واحدة منهن ورأينا أن شخصية كل منهن كانت نمطا بعينه• وكانت عواطفه فى حبه الأول وفى حبه الثالث مشبوبة حادة ولكنه كان أقرب الى الفتور خلال حبه الثانى • وقد أزعجته تباريح الهوى أحيانا حتى جعلته يبلغ أقصى آماد السخط والغضب واشتد به الشوق والولوع بصديقاته حتى عرف الفزع والقلق والسهاد • وحاول أن يكون جريئا فى تجربته الثالثة وأن يكتفى بارضاء مشاعره ونزواته ولكنه لم يستطع أن يكف عن الانشغال بفتاته أكثر مما تقتضيه مجرد الصداقة والحب • وهنا أفلت منه الزمام فسب ولعن حتى بلغ به العمر سن المحب الرفيق الرقيق فتنازل عن كبريائه وقبل أن يصبح طرفا فى حب لا يفرض على صاحبته الوفاء لأنها كانت قد أصبحت فى مذاقها أحلى من الوفاء •

وحبيبة العقاد الثالثة على نمط آخر من الجمال فهى سمراء ذات سمت بارع وعينين رائعتى الحسن :

ثناياها • ثناياها	وهل ذقت ثناياها
وعيناها ، وياللقلب	كم تسبيه عيناها
وتلك الوجنة الخمر	ية السكران رائيها
أفى الجنة يا رضوا	ن تفاح يحاكيها
وتلك القامة الهيفا	ء زانتها زواياها
اذا ما جار ردفاها	أقام الجور نهداها

فهى فتاة هيفاء القوام خمروية اللون ذات بدن تعادلت ارتفاعاته وانخفاضاته وتوازنت أجزاؤه وتملك فوق هذا عينين ساحرتين تسبيان • وهى صغيرة سنا ويعتبرها العقاد هدية من الله اليه وتغمره مشاعر قوية نحوها تقارب مشاعره نحو فتاته الأولى • فهنا يحب العقاد حبا جديدا

من نوع حبه الأول مع اختلاف بسيط وهو أنه كان يشعر بغيرة قوية فى حبه السالف . أما فى حبه الثالث فهو بسيط يقبل حنانها ويعتز بحبها ويوازن بينها وبين زهرات أهدتها اليه :

فريدة فى روضها أخيرة فى الموسم
عيشى وأهدى غيرها فى كل عيد واسلمى
ألست أنت مثلها علمت أو لم تعلمى
هدية الخلاق لى وقد رأى تنسمى

وهو يطلق عليها فى الغالب اسم بنية ولا يعاتبها على كذب ولا يؤاخذها على عدم الوفاء ولا يقع فى الصراع العنيف الذى تسبب فيه حبه الأول :

هذى فتاتى هذه هى لا خلاف ولا اشتباه
هى فى بديع قوامها هى فى الصبا هى فى حلاه
هى فى غوايتها وآ ه من غوايتها وآه
لا تخدعينى يا بنيـ ـة بالوفاء من اللسان
خنا وخنت ولا أقو ل سلى فلانة أو فلان
ذهبت خيانتنا معا والآن نحن الباقيان

بين العقاد وشيلر

ولد جوهان كريستوف فريدريش شيلر في العاشره من نوفمبر سنة ١٧٥٩ في مدينة مارباخ على نهر النيكر بألمانيا وولد عباس العقـــاد في الثامن والعشرين من يونيو سـنة ١٨٨٩ بمدينة أسوان على نهر النيل ، بالجمهـــورية العربية المتحدة .

وكان شيلر الولد الثانى والذكر الوحيد للسيد جوهان كاسبر شيلر والسيدة اليزابيث دورويتا من أسرة كودفابيس على حين كان العقاد الولد الثانى لخمسة من الأشقاء منهم ابنة واحدة ـ وثلاثة آخرين من غير الأشقاء للسيد محمود ابراهيم مصطفى العقاد والسيدة زنوبة محمد أغا الشريف التى عرفناها من كلام العقاد نفسه باسم المشدة أى رئيسة العمال وهى حفيدة رجل من رجال الفرقة الكردية فى جيش محمد على سنة ١٨٢١ .

وكانت أسرة شيلر من ملاك الأراضى البسطاء فى اقليم شوابيا وعمل والد شيلر أعمالا عسكرية مدة طويلة عاد خلالها فترة وجيزة تبلغ أربع سنوات تزوج فى أثنائها من اليزابيث التى كانت ابنة صـــاحب فندق . ورجع بعد ذلك الى عمله فى الجيش حتى قدر له أن يعود نهـــائيا الى قرية لورشى بالقرب من مدينة جموند حيث اشتغل بالزراعة .

أما أبو العقاد فكان معاونا بادارة مدينة أسوان ثم أمينا للمحفوظات أو مديرا بها • وكان قبل ذلك موظفـا بالمحلة الكبرى حيث عرفت أسرته بصناعة النسيج ثم نقل الى أسوان وبقي بهـــا حتى مات سنة ١٩٠٧ • واشتهر الرجل بالخلق والاستقامة •

وعلى الرغم من أن أبا شـــيلر استفاد خبرات ومعارف كبيرة فى أثناء عمله بالجندية فى هولندا وبلجيكا وفرنســا وانجلترا فانه لم يكن له التـأثير الوحيد على شخصية ابنه فريدريش شيلر • بل نمت ملكات شيلر ومعارفه نتيجة ملازمته المتصلة لراعى الكنيسة فى القرية واسمه فيليب موزر • فقد تعلم شيلر من راعى الكنيســة موزر اللغة اللاتينية ومبادىء اليونانية وبث فيه الراعى ميلا قويا ليعمل فى الكنيسة •

وقد بث أبو العقاد فى ابنه ميولا خلقية ودينية ووطنية ولكن العقاد كان يجلس فى سن مبكرة فى بيت الأسرة وفى مسجد المدينة الى الشيخ أحمد الجداوى • فاستطاع الشيخ الجداوى أن يزرع فى قلب العقـــاد طموحا لا حد له من حيث الارتحال والتنقل ومن حيث العلم وهـــواية الأدب • وكان الشـــيخ أحمد الجداوى متخرجا من الأزهر وكان أحد الذين لازموا جمال الدين الأفغـانى وصـــادقوا محمد عبده • فأورث الشيخ أحمد الجداوى عباس العقاد كل ميول هذه المدرسة الفكرية وعلمه انشاد الشعر وأطلعه على عالم الفكر المجهول بالنسبة الى أوساط المتعلمين بأسوان •

ولم تترك لشيلر حرية الاستمرار فى دراســة علوم الدين فأخذ طريقه الى دراسة القانون • ثم جعلوه يتخصص فى علوم الطب ولكنه لم يكن شغوفا بالطب أو بالقانون •

وعلى الرغم من الكراهية التى أبداها معلموه لفنون الشـــعر فقد تملـكت هذه الفنون قلبه تملـــكا ســـيطر على كل خلجـات روحه ووجدانه • وعندما ترك شيلر الدراســة فى سن الواحـــدة والعشرين حصل على وظيفة مشرف طبى فى أحد المعســـكرات بمرتب ضئيل وظل يعيش فى جو الأدوية الخانق • وللتعبير عن محنة هذه الفترة الدراسية القلقة ألف شيلر مسرحية اللصوص وأعدهـــا فى أثناء عمله فى مدينة اشتو تجارب الطبى • ولكنه لم يجد ناشرا لمسرحيته فقام بطبعها على نفقته الخاصة متكلفا بذلك دينا ماليـــا باهظا • وكان شعوره بشـــأن هذه المسرحية أنها لا تعدو أن تكون قصـــة موضوعة فى قالب درامى •

ولكنها لاقت نجاحا هائلا أذهله وأحدث الكتاب أثرا كبيرا نال الشاعر شيلر من ورائه شهرة مفاجئة • وعلى الرغم من عدم ثقة شيلر بأنها تصلح للمسرح فقد قدمتها فرقة المسرح القومي في مانهايم للجمهور ونالت استحسانا بالغا ونجاحا كبيرا •

أما العقاد فقد أتم تعليمه الابتدائي في مدرسة أسوان • ولم يكن أسعد حظا من شيلر فدخل مدرسة التلغراف كما دخل مدرسة الفنون والصناعات لفترات وجيزة • وكان يتمنى فى ذلك الحين أن يتعلم الزراعة لشدة ميله الى المشاهد الطبيعية والى تأمل الطيور والحشرات والنباتات • ولكنه فى سنة ١٩٠٧ بدأ يشارك فى تحرير مقالات بمجلة الدستور التى أشرف عليها محمد فريد وجدى • ثم انتقل الى الزقازيق حيث اشتغل موظفا بالقسم المالى فى مديرية الشرقية • وما لبث أن التحق بوظيفة بوزارة الأوقاف بالقاهرة سنة ١٩١٢ • وهى السنة التى ظهر فيها كتابه عن خلاصة اليومية وهو الكتاب الذى استرعى الأنظار اليه بما اتسم به من النضج والعمق والأفكار الشخصية • وكان يبلغ الثالثة والعشرين من عمره حين بدأ العقاد ينشر مقالاته فى صحيفة الجريدة التى أشرف عليها حينذاك أحمد لطفى السيد • وبدأ نجم العقاد يتلألأ فى سماء الأدب وبدأ اسمه يلمع الى جانب الكثيرين من الأدباء والشعراء •

وقد عانى كل من شيلر والعقاد منغصات الحياة فى سن مبكرة وظلت الظروف تقضى عليهما بحالات من ضيق ذات اليد وبحالات من القلق والعناء فترة طويلة • وعندما سنحت الظروف لكليهما بالاقتراب من شغفه وميله الأصيل ـ أحدهما فى الكتابة المسرحية وثانيهما فى الكتابة الصحفية ـ بدأت بالنسبة الى كل منهما سنوات العنت والارهاق والنضال • وأصيب شيلر بالملاريا التى أقعدته وعطلت أعماله فظل يقاومها بالعقاقير المنشطة التى هدمت صحته حتى موته • كما أصيب العقاد بالمرض الصدرى الذى أبعده عن المشاركة فى الحياة العامة وجعله عرضة للالتهابات والاصابة فى المسالك الهوائية طيلة حياته • ومؤلفات كل منهما فى تلك المراحل المبكرة تنضح بفكرة الحرية وكراهية الاستبداد وتبشر بالاهتمامات السياسية • وكلاهما عانى من تفضيل الشعراء والكتاب الذين لا يبلغون مبلغهما فى الجودة عليهما • وكلاهما تعرف بأصدقاء أوفياء كان لهم أكبر الأثر فى حياتهما العملية • وكلاهما أيضا عرف الصمود فى اذاعة الرأى وفى التمسك به على الرغم من الصعوبات التى نشأت من جراء ذلك • فقد كان شيلر على غير الرأى الذى ينادى

باستخدام المسرح للتثقيف وقال ان فن الدراما ومن ثم عمل المسرح يهتم بالكشف عن خبايا الروح الانسانية • فهو لهذا يعلم معرفة الناس ويدعو الى أفكار نقية والى مبادىء سليمة • وخرج العقاد على جمهوره بالمبادىء التى أذاعتها مدرسة الديوان فى الشعر وانتقصت من اقدار كثيرين من الشعراء المبجلين ومن النظريات السائدة لايمانها بأن الشعر تعبير عن النفس الانسانية •

فكان التقاء العقاد وشيلر فى أكثر من موقف ، والعجيب أن هذه المواقف المتشابهة تتكرر عند كل منهما الى حد يبعث على الاستغراب حقا • ففى سنة ١٧٨٥ انتقل شيلر للحياة فى كنف بعض أصدقائه فى دريسدن حيث شعر لأول مرة فى حياته بالاطمئنان والحرية والتعاون • وفى سنة ١٩٢٢ أصبح العقاد الكاتب الرسمى لحزب الوفد واصطفاه سعد زغلول وصار يرعاه ويكرمه • وتعد سنة ١٧٨٥ سنة تحول خطير بالنسبة الى شيلر الذى بلغ حين ذاك سنا وعشرين سنه من العمر • فابعد شيلر من اهتماماته — الانتاج المسرحى الذى ينملق الجمهور وأخذ يوجه اهتمامه الى اعتبارات عالمية فى الفكر والأدب والى مفهومات جديدة عالية مستمدة من المشاعر الانسانية عامة • وتحقق للعقاد نفس الشيء حين أغفل فى ميدان الأدب (لا السياسة) ما يستحسنه أصحاب الأذواق الرخيصة وصار يتطلع الى العناصر الأدبية التى لا تقف عند حد ارضاء طائفة محدودة أو الى الاستجابة لدواعى البيئة المحلية • وكان العقاد فى سن الثالثة والثلاثين • فكلاهما يكتسب فى هذه المرحلة صفة الوطنى الثائر ولكنه يتطلع الى مفهومات انسانية صادقة فى الأدب والحياة ويبلغ النضج الشعورى حيال المبادىء والأفكار الانسانية والروحية •

ويؤلف شيلر حين ذاك تمثيلية دون كارلوس التى تعبر عن مشكلة الحرية الانسانية وضرورات السياسة على حين يؤلف عباس العقاد فصول كتابه المطالعات ويرد فى مقدمتها قوله « ان الكون كله والحياة والفن ومناظر الأرض والسماء •• كل أولئك مظهر للتآلف أو للتنازع بين الحرية والضرورة أو بين الجمال والمنفعة أو بين الروح والمادة أو بين أفراح الفن وأوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية • وهذا الائتلاف هو دستور الفن الالهى المحيط بكل شىء وهو فلسفة الفلسفات فى هذا الوجود » • ويرد أيضا فى هذا الكتاب اسم شيلر بين سطور مقال عن

الشعر ومزاياه كتبه العقاد سنة ١٩١٣ كمقدمة للجزء الثانى من ديوان صديقه الشاعر عبد الرحمن شكرى • وكان عمر العقاد الذى عرف شيلر ومؤلفاته عندما كتب ذلك المقال أربعا وعشرين سنة • وهو يود فى ذلك المقال أن يكشف عن أهمية الأدب والشعر فيقول : « وجاء بسمارك فى ألمانيا فأتم تأليف وحدتها بعد أن شاعت فى ولاياتها مصنفات ليسنغ وهردروجيتى وشيلر وهينى ورفقائهم • فكان الألمانيون أمة ذات أدب واحد قبل أن يكونوا أمة ذات دستور واحد • »

وكما كانت دون كارلوس نقطة تحول فى تفكير شيلر الانسانى كان كتاب المطالعات للعقاد نقطة انطلاق فكر العقاد نحو آفاق جديدة • وفى هذين العملين ظهر الاهتمام لدى كل منهما بالفرد وظهر الشعور بالقيمة الفردية • وظهرت فى هذين العملين نوازع الاحساس بالرابطة القوية بين الجمال وبين الحرية عند العقاد وبين الفن وبين الحرية عند شيلر •

يقول العقاد فى مقدمة المطالعات : « وكأنى بالجمال هو غاية الحياة القصوى التى هى أسمى من جميع ما تناله المنافع والأغراض • وما الجمال ؟؟ انه الحرية كما بينا ذلك فى احدى مقالات هذا الكتاب • فنحن نشترى الحرية العزيزة بالقيود النقيلة بل نحن لا نجد الجمال ولا نوجده الا اذا ألفنا بين القيود والحرية وأصلحنا ما بينهما من التنازع والتنافر • وانك لتستطيع أن تتخذ من « التأليف بين القيود والحرية » ميزانا صحيحا لوزن الأمم والأفراد والحضارات والآراء والفنون . فكلما اقتربت الأمة أو الفرد أو الحضارة أو الرأى أو الفن الى حسن التأليف بين أفراح الحياة وأوزانها ، بين خيالها وعروضها ، بين معناها وصورتها ، كانت أقرب الى السمو والنبالة والصدق لأنها أقرب الى القصد الالهى ووجهة الكون البادية فى جميع أجزائه » •

أما شيلر فيقول : ان الفن وحده هو الذى يستطيع أن يحقق تطور القوى الانسانية كلها • ويمكن استكمال جوهر الانسان المبتور فى داخليته والغريب عن ذاته وعن الطبيعة عن طريق الفن • ان الفن يحقق حرية الناس لأنه يعالج الحقيقة فى حرية مبعثها خياله المبدع • انه يحرك الانسان من مجالات الصرامة والضغوط فى الحياة بوساطة اللعب الحر الذى يقوم به الخيال . فالحياة قاسية ولكن الفن مصدر الأفراح . ولا يجعل الفن الانسان حرا حيثما استمتع فقط بعمل فنى حقيقى ولكن حيثما واجه الحياة • ويصبح هذا ممكنا فقط اذا عادل الانسان بين نفسه وبين العمل الفنى الأصيل حيث تأتلف الروح والطبيعة • هذه الحرية تصبح ممكنة اذا

بفض الانسان النزاع بين طبيعتيه ووحد بينهما فى عمق وارتباط .
والانسان الجمالى وحده هو الذى يملك الحرية التى يسميها شيلر « سموا » والتى يمتدحها بوصفها أقصى أهداف الانسان .

وكان العقاد يؤمن برسالة الأديب فى التبشير بدين الحرية .
وكتب يقول : هل للأدب كله رسالة تتفق فى غايتها مع اختلاف رسائل الأدباء وتعدد القرائح والآراء ؟ نعم . لهم جميعا رسالة واحدة هى رسالة الحرية والجمال . عدو الأدب منهم من يخدم الاستبداد ومن يقيد طلاقة الفكر ومن يشوه محاسن الأشياء . وخائن للأمانة الأدبية من يدعو الى عقيدة غير عقيدة الحرية . ورسالة الأدباء كافة هى التبشير بدين الحرية والانحاء على صولة المستبدين فما من عداوة للأدب ولا من خيانة لأمانة الأديب أشد من عداوة « القوة العضلية » وأخون من خيانة الاستبداد .

وعند شيلر كانت الحرية لا تعنى شيئا ماديا وحسب بل كانت تمتد فتشمل كل مظاهر الحياة الانسانية . وكان يرى فيها منتهى المصير الانسانى وينظر اليها فى نفس الوقت بوصفها حاجة أولية ضرورية للوجود الانسانى . والتاريخ عند شيلر هو قصة صراع الانسان من اجل الحرية . ويقول فى رسالته عن الجليل : ان التاريخ يعد عنده موضوعا جليلا من وجهة النظر هذه وحدها . ولا يقتصر الأمر على منع العنف والاستبداد ولكن ينبغى أن يمتد ذلك الى نطاقه الروحى فيحافظ على حرية الفكر وعلى حرية التعبير التلقائى عن مشاعره وآرائه .

وكان العقاد فى تلك الفترة من حياته أيضا قد أصدر كتابه المسمى مراجعات فى الآداب والفنون سنة ١٩٢٥ وتناول فى احدى مقالاته معنى الجمال فى الحياة والفن . وقال العقاد : ان الحرية فى رأيى هى العنصر الذى لا يخلو منه جمال فى عالم الحياة أو فى عالم الفنون . واننا مهما نبحث عن مزية تتفاضل بها مراتب الجمال فى الحياة لا نجد هناك الا مزية حرية الاختيار . على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل فى الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة الارادة فتروقنا النيران والرياح والأمواه وتطلق فى نفوسنا خوالج الحياة ونعاطيها شيئا من العطف لا نعاطيه لغير الأحياء . وليس لها فضل ظاهر على عامة الجماد الا بما تخيله للناظر من حرية الارادة ومحاكاة الحياة .
ومن ثم ربما كان الأصوب والأوضح أن نقول : ان الجمال هو تغلب الحرية على الضرورة وان هذه الفكرة هى فكرة الجمال فى الحياة وفى الفنون كلها

من موسيقى وشعر وتمثيل وتصوير ورقص ورياضة • وفكرة الجمال فى الحياة هى بعينها فكرة الجمال فى الفنون • فلا فن بغير تطلع ولا تطلع بغير حرية • ولكن ينبغى أن نذكر أن الحرية تستلزم المنع وأن الجمال هو غلبة الحرية على القيود أو هو ظهور الحرية بين الضرورات •

وكان شيلر يعتقد أن الاحساس بالجمال ليس موضوعا ذاتيا فقط وانما يعتمد على قوانين جمالية موضوعية • يمكن فى رأيه تقدير الجمال وفقا لمقاييس موضوعية • ان الشيء يبدو جميلا اذا استقل وتحرر من العوامل والأسباب الطبيعية • يصبح العمل الفنى جميلا حينما تختفى منه كل آثار العوامل التى أدت الى انتاجه : المادة الخام من جهة ويد الفنان من جهة أخرى • والطبيعة هى صورة الكمال الذى ينبغى أن يتحقق بالحرية • فالفن الأصيل هو الذى يجلب أعلى أنواع الفرح • وأعلى أنواع الفرح هى تحرر الروح فى المسرحية الحية من كل قواها • ويتوقع كل انسان عادة من الفنون المرتبطة بالملكات الخيالية نوعا من التحرر من قيود الواقع • انه يريد أن يمتع نفسه فى أجواء الامكان وان يطلق العنان لخياله• ويريد كذلك أن ينسى مشاغل الحياة من حوله •

ومات شيلر سنة ١٨٠٥ عن ست وأربعين سنة بينما عاش العقاد الى سن الخامسة والسبعين فقد مات فى الثانى عشر من مارس سنة ١٩٦٤ • وعلى الرغم من التشابه الكبير الذى جمع بينهما فى ظروف الحياة والفكر فقد ظهر بينهما اختلاف كبير أيضا فى تناول الأمور وفى المزاج والرأى • ولكن شيلر تأثر فى شعره بالفلسفة كما تأثر بها العقاد وكانت تبدو فى غضون نظراته الشعرية كروح أو كجوهر شفاف لطيف • وكتب العقاد فى الصلة بين الشعر والفلسفة فقال : « الحقيقة أن الفكر والخيال والعاطفة ضرورية كلها للفلسفة والشعر مع اختلاف فى النسب وتغاير فى المقادير • فلا بد للفيلسوف الحق من نصيب من الخيال والعاطفة ولكنه أقل من نصيب الشاعر ولا بد للشاعر الحق من نصيب من الفكر ولكنه أقل من نصيب الفيلسوف • فلا نعلم فيلسوفا واحدا حقيقيا بهذا الاسم كان خلوا من السليقة الشاعرية ولا شاعرا واحدا يوصف بالعظمة كان خلوا من الفكر الفلسفى • هكذا كان شكسبير شاعرا ناطق الفكر حتى فى أغانيه الغزلية • وهكذا كان جيتى وشيلر وهينى شعراء الألمان الأدباء الفلاسفة فى استعدادهم وسيرة حياتهم وفيما يستقرى من مجموعة أعمالهم » •

وامتد العمر بالعقاد بعد ذلك وشغلته مشاغل كثيرة وذاق السجن تسعة أشهر على حين ذاقها شيلر فى شبابه الأول أسبوعين فقط حين منعه الدوق من الاشتغال بالأدب • ولكن تنوعت اهتمامات العقاد وتوزعت جهوده وظهر من قواه الخارق العجيب فى الفلسفة والأدب والتاريخ والسياسة • وتمخضت شاعريته عن أجزل ما عرف الأدب العربى من الأغانى والقصائد وظل يتحف الأدب بشعره العاطفى فى الحب والغزل الى أخريات أيام حياته •

العقاد ولغتنا الشاعرة

لأستاذنا العقاد مؤلف خاص بلغتنا الشاعرة ، ضمنه بحوثا عدة عن طبيعة اللغة العربية كأداة تعبيرية تواجه المستلزمات الأولية في الأسلوب الفني ، ولا يكاد يتعدى الكتاب هذه المستلزمات الأولية ، ولكنه مع ذلك يخطو باللغة العربية خطوات واسعة ، ويمضى مدى كبيرا فى استعراض طبيعة لغتنا ، ويحاول النفاذ الى ما هيتها • والتطلع الى الماهية يستدعى دائما ـ كما يقول هوسرل ـ وجود احساس بالسذاجة ازاء موضوعات التفكير •

وقد استطاع العقاد بقدرته الفنية والفكرية أن يستلهم هذه السذاجة أمام مشكلات اللغة الأصلية ، دون أن يخرج قيد أنملة عن نطاق بحثه • بل تشعر معه فى تطور أفكاره أنه لم يصطنع هذه السذاجة ، وأنه قد ترك نفسه على سجيتها تكتشف حقائق اللغة واحدة واحدة فى غير كلفة كأنه يتعرف عليها لأول مرة •

أراد العقاد أن يسقط أضواء خفيفة على طبيعة التعبير فى اللغة العربية ، وذلك بدلا من أن يطرق باب اللغة من أوجه الفقه الخاص بها أو من حيث الأصول المنطقية والفلسفية والنفسية التى تعتمد عليها •

والمرأة الثانية أديبة لها مكانة فى الحياة العامة ولها صفات ليست بالقوة والعرامة التى نلمسها فى المرأة الأولى . ونهذا يأتى وصفه لها ولأشواقه اليها فى أسلوب خفيف لا يبلغ الأغوار التى نقع عليها فى حديثه عن الأولى وأحيانا فى حديثه عن الثالثة . ووصفه لها محدود لا يكاد يتعدى فى تعبيره علاقة بريئة لا تنفذ الى أعماق التجربة العاطفية المشبوبة . فوصفه لها ثمرة هذه العلاقة التى لا تبلغ حدة علاقاته السالفة . ويجدها جميلة حسناء تشبه عروس الشعر التى توحي اليه فنه فى الحسن والقدر :

حورية الوحي التي رقمت ... طرسي بوسم بنانها الغر
وحنت على شعرى كما اخذت ... بيد الجريح ملائك البر
هذى شقيقتك التي نظمت ... ما تعبرين اليوم من شعرى
هى من بنات الحور ما بلغت ... شأويك في حسن ولا قدر
أوحت الى بلحنها ومضت ... من صمتها فى حيث لا أدرى
فاذا عنيت بها فلا عجب ... سر القرابة فيكما يسرى

ولكن وصفه لا يعدو اقراره بجمالها ولا يزيد فيه على ذكره لحلاوتها وحسنها وقلما يجد المرء فى كلامه عنها تلك المعارك الدامية والهواجس القوية التى ظهرت فى كلامه عن سالفتها . ولذلك يحاول أن يسرد أهميتها من حيث تقديرها لشعرها وشغفه بأن تصبح مصدر وحيه والهامه :

أعروس احلامى . وملهمتي ... معنى الحياة وفتنة السحر
كونى ، اذا ما شئت منعمة ... حوريتى فى مقبل العمر

فهو يعاهدها ويتمنى أن تحل محل السابقة فى قوة العاطفة وأصالة الاحساس التى تجلت فى موقفه حيالها ومع ذلك فانك تشعر من مطالعة أشعاره عنها أن علاقته بها لم تبلغ صدق التمرد وحرارة الانفعال التى مرت به قبل ذلك . واستحسانه لها يشرح نوع شعوره نحوها :

يا طيب ذاك الأكسير مجتمعا ... من حسن شتي الرياض والغرر
أضمه كله وأرشفه ... فى قبلة كوثرية السكر

وبعد أن كانت أوصافه تتعلق بجملة معالم البدن ومفاتنه صارت تتركز على طعم القبلات وشكل الفم :

يا لـه من فـم ... يا لها من شفة
حلوة ويحها ... غضة مرهفة

الدلالة والتعبير فى قواعد اعرابها ـ أسبق من المصطلحات التى يتقيد بها النحاة والصرفيون ، وتنفرد اللغة العربية بسمة الشاعرية لأنها جمعت بين أبواب الاشتقاق وأوزان العروض وحركات الاعراب على مثال بديع ٠

وحينما نتأمل هذه السليقة نجد أن اللغة العربية لم تكن لغة شاعرة لمجرد امتلائها بالشعر أو بالكلمات الشعرية بل لكونها « لغة بنيت على نسق الشعر فى أصوله الفنية والموسيقية ، فهى فى جملتها فن منظوم منسق الأوزان والأصوات لا تنفصل عن الشعر فى كلام تالفت منه ولو لم يكن من كلام الشعراء» ٠ ويضيف العقاد: ان هذه الخاصة ظاهرة فى اللغة العربية من تركيب حروفها على حدة ، الى تركيب مفرداتها على حدة ، الى تركيب قواعدها وعباراتها ، الى تركيب أعاريضها وتفعيلاتها فى بنية القصيد (١) ٠

وتستيقظ طبيعة العقاد المنطقية من حين الى حين لمساندة الموقف البديهى الذى يترقب به ماهية اللغة العربية فيقول فى تعليل شاعريتها : انها تعتمد على الأسباب الأربعة التالية :

١ ـ خاصة الفن الموسيقى فى مخارج الحروف العربية ٠

٢ ـ خاصة الأوزان والحركات على حسب معانى المشتقات ٠

٣ ـ خاصة الاعراب وارتباط قواعده بالحركات ودلالة هذه الحركات على معانيه ٠

٤ ـ وعماد هذه الأسباب جميعا فى إختصاص الشعر العربى بفنون الوزن والقافية نراه فى سبب واحد هو الحداء (٢) ٠

ولكن هذه الطبيعة المنطقية لا تلبث أن تعود فتختفى وراء التحليلات الاسقاطية التى يعتمد عليها العقاد فى جملة فصول الكتاب ، والتى يعدها لتلقى الأضواء على المزايا التى تثبت للغتنا على لسان الغرباء عنها ، فهو يسوق عباراته سوق الباحث « الغريب » عن اللغة حين يبنى بحثه على قواعد العلوم اللسانية ، دون أن تخفى الألفة معالمها الأصيلة ، ويواجه العقاد مشاكل اللغة العربية مواجهة الغريب الذى يستأنس بكل اكتشاف يقع موقعا ملائما من ذوقه وعقله وخاطره دون أسبقية أو تمهيد منطقى ٠

---

(١) العقاد : كتاب « اللغة الشاعرة » ص ٩ ٠

(٢) المصدر نفسه ، ص ٢٧ ٠

وهذا هو وجه الجدة والابتكار فى المنهج الذى اختطه أستاذنا العقاد لنفسه فى كتابه « اللغة الشاعرة » (١) ٠

فقد كان العقـــاد لا يزال أكثر الكتاب حســــاسية بالنسبة الى المستحدثات الفكرية الغربية طيلة الأعوام الخمســـين الماضية ٠ وكان ولا يزال فى الوقت نفسه شديد الوعى لتيارات قومية صـــارمة ولخطوط مذهبية عريقـــة فى تفكير الأمة العربية ٠ فاذا اســـتقرت فى بوتقته الشعورية آراء متصلة بالمذاهب الغربية الحديثة عكسها فى كتاباته بصورة تتجـــاوب مع المشـــاعر العربية الأساسية ، واذا تأثر بنــوع معين من الفلسفات تركها تختمر فى ذهنه وعقله أمدا طويلا حتى تعود فتســـيل على قلمه ، وقد اتخذت صبغة روحية قريبة من العقلية المحلية ٠ لذلك يكفى أن نلقى نظرة عابرة على كتابات العقاد جميعا لنكتشف هذه الطبيعة العامة التى تعلن عن نفسها فى غير تكلف أو اسراف ٠

والذين تناولوا كتاب العقاد عن اللغة الشاعرة بالنقد لم يدركوا هذه الحقيقة ، وظنوا أن الرجل يصدر فى أفكاره المعروضة على صفحات كتابه عن عصبية قومية بحتة ، وأنه يغالى فى تقدير الأمور من هذه الوجهـــة بتمييزه للقدرة التعبيرية فى لغتنا دون سائر اللغات :

والأمر أبسط من هذا كله فيما نعتقد ، لأن العقاد ســـيطرت عليه رغبة فى اكتشاف ظاهريات التعبير على نحو ما هى عليه فى لغتنا العربية ٠ واضطره ذلك الى اتباع منهج لم يكن معهودا من قبـــل ٠ ولم يكن يتيسر لغير الانسان فى ثقافة العقاد وعلمه وتجربته فى الشعر والنثر على السواء٠

وقد تأثر العقاد قبل ذلك بمناهج فلسفية كثيرة وظهرت بوادر هذا التأثر واضحة فى طريقة تناوله للشخصيات الاسلامية وللنظريات النقدية وللأحداث الأدبية والســـياسية ٠ ولم يخف على أحد أنه يذيب المناهج الغربية ، ويستخلص منها ما يصلح لالقاء الأضـــواء على حقائقنا العامة ، ويكشف عن مكنونات حضارة خاصة بنا ٠ وحينما كانت تتقابل حساسيته الفكرية بأكثر من مذهب ، ويشعر بالتعارض بين هذه وتلك ـ كان ينتقى من بينها ما يتصل اتصالا سليما بعواطفنا ومشاعرنا التاريخية الأصلية ٠

وفى الفترة الأخيرة تناولت المذاهب الفكرية فى الغرب شئون اللغة

---

(١) اسمه الكامل « اللغة الشاعرة مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية » ٠

بالدرس والتفصيل ، وجعلت من أدواتها مشاكل أســـاسية • فاللغة هى الوسيلة الأولى للتفاهم الفكرى والأدبى ، وهى حقيقة ثابتة فى كل علم وفن ، وصارت دراستها بأســـلوب منهجى ضرورية لتذليل صعوباتهـا وفحص امكانياتها وتيسير التعامل بها فى مستويات مختلفة • ويكفى أن نلقى نظرة عابرة على عناوين البحوث المنطقية والفلسفية المعاصرة لندرك مدى ما صارت تتمتع به اللغة من أهمية ، ومقدار الخطورة التى أصبحت تظهر فى كل مـا يمس موضوعاتهـــا من قريب أو من بعيد • فالمذاهب القائمة من وجودية وظاهرية ومنطقية وضعية وبرجماتزمية (ذرائعية) تحاول أن تخضع اللغة لمقاييسها الخاصـــة كيما تستخرج منها الجوانب الملائمة لطبيعتها الفكرية ولابراز ما يتناسب منهـــا مع اتجاهاتها ، وقد خاضت كل تلك المذاهب فى مشكلات اللغة وجعلت منها موضوعا لفحص دقيق حتى تبينت ما يلزمها تأكيده أو اخفاؤه •

والملاحظ عموما أن الاهتمام باللغة العربية من وجهـة نظر الباحثين العرب لم يعد أن يكون أحد أمرين : فهو اما متابعة للمناهج القياســـية الغربية ، أو دراسة لمراحل متأخرة من مراحل العناية باللغة كظـــاهرة اجتماعية ، أو كأداة منطقية ، أو كوسيلة فنية • فبعض الباحثين العرب قد تناول لغتنا اجتماعيا وفقا للأصول الدراسية الغربية ، ومنهم من اختط أسلوبا معينا فى تنسيق عباراتها على ضوء المنطقية الوضعية •

وشاء العقاد أن يعود الى منابع اللغة الأولى كيما يتعرف على ماهيتها قبل التقدم نحو آفاقهـــا المتعددة • أراد أولا وقبل كل شىء أن يتعرف طبيعة لغتنا فى ذاتها ، وأن يقف على خصائصها ، وأن ينفذ الى جوهرهـــا الأصيل • وهذا كله لا يتم الا بامعـــان النظر فى ظروف تلك اللغة دون الخضوع لمؤثرات قبلية ، فنترك حقائقهـــا تتساقط داخل اطار وعينـــا تلقائيا كأننا نشهدها لأول مرة •

وهكذا يتوافر لنا اكتشاف جوهر هـــذه اللغة • فهى لغة انسانية ناطقة تستخدم جهاز النطق الحى أحسن استخدام يهدى اليه الافتنان فى الايقاع الموسيقى ، وكأن التركيب الموسيقى أصل من أصول هذه اللغـة لا ينفصل عن تقسيم مخارجها ، ولا عن تقسيم أبواب الكلمات فيها ، ولا عن دلالة الحركات على معانيها ومبانيها بالاعراب أو بالاشتقاق • وممـا يبين عن معدن اللغة العربية وعن هذه الخاصة الفنية فيها ــ جريانهـا فى ألفاظها وتراكيبها على السليقة الموســـيقية ، بحيث تتفق أوزانها فى كل ترتيل فصيح ولو لم يكن شعرا مقصودا • ونخلص من جملة خصائص

هذه اللغة الى أن النظم بها فن دقيق كامل الأداة مستغن بأوزانه عن سائر الفنون ، ولكنه ـ على هذا ـ فن مطبوع لا كلفة فيه على قائل ذي قدرة على التعبير له نصيب من الشاعرية والملكة الفنية .

ولذلك كله فقد قيل عن اللغة العربية انها لغة فصاحة ، والفصاحة هي امتناع اللبس ، وهي خاصة نطقية ومزية نادرة تحققت في اللغة العربية لمخارج الأصوات كما تحققت للحروف ، بل تحققت هذه المزية الفريدة في استعمالات المجاز الذي يعد أداة كبرى بين أدوات التعبير الشعري . والعبارة الشعرية في جوهرها الاصيل هي استخدام للتشبيهات والأخيلة والصور المستعارة ، واشارات ترمز الى الحقيقة المجردة بالاشكال المحسوسة . وتسمى اللغة العربية لغة المجاز لانها تجاوزت بتعبيرات المجاز حدود الصور المحسوسة الى حدود المعاني المجردة . ويستمع العربي الى التشبيه فلا يشغل ذهنه بأشكاله المحسوسة الا ريثما ينتقل منها الى المقصود من معناه من غير لبس أو ابهام . ويؤدي التعبير المجازي في لغتنا معناه المقصود بغير وساطة الشكل المستعار ، ولا يشتغل الذهن بالصورة المحسوسة لانتقاله منها على الاثر الى الوصف الذي يقارنها ، كما هو الحال في معنى القمر والزهرة والغصن والطود وغيرها من الكلمات الشعرية التي لاتزال معانيها المجازية مقترنة بمعانيها الحقيقية جنبا الى جنب في استعمال كل يوم على كل لسان . وكأن العقاد ينطق هنا بعبارة موريس ميرلوبونتي المشهورة في تحليلاته الظاهرية للغة حين يقول : « ان الدلالة تلتهم الرموز » .

فهل ثمة توافق بين المنهج الذي وضع العقاد في ضوئه كتابه «اللغة الشاعرة» وبين أسلوب الظاهريات في تناول مشكلة اللغة ؟

الواقع أننا نلاحظ أولا أن العقاد قد استحدث أسلوبا خاصا في معالجة مشكلات اللغة في كتابه الجديد ، وهذا الأسلوب يغاير منهجه الذي كان قد بنى عليه عدة أبحاث سابقة في الادب والتاريخ . فنجد هنا أنه انتقل من الاهتمام بالمشاكل في أسلوب نفسي الى دراسة الموضوعات من حيث سقوطها في الضمير ، أو بمعنى أصح من حيث وقوعها داخل اطار الذاتية المباشرة (وهذا عينه هو أسلوب الظاهريات) وبخاصة عندما يحاول العقاد كشف النقاب عن طبيعة اللغة العربية التعبيرية ذاتها قبل اخضاعها لمقاييس وشروط أخرى . والفلسفة الظاهرية تمتاز بأنها تحاول الخلاص من المؤثرات العامة في النظر الى حقائق الفكر والتعبير . انها تحاول أن تصعد الى ماهية اللغة عن طريق

ملاقاتها مباشرة دون وساطة ما ، ودون احساس قبلى بمشاكلها العامة ٠ أى أنها بأسلوب آخر تسعى لان تقف وقوفا ذاتيـــا على حقيقة اللغة ، والذاتية هنا لا تفهم بمعناها الفلسفى القديم ٠ انهـــا ليست من النوع الذاتى الخلاق الذى يؤدى الى تصور الاشـــياء من داخل النفس البشرية دون ارتباطها بالموضوعات الخارجية الذاتية ٠ هنـــا شىء آخر يستدعى التلقائية المباشرة فى استكشاف الموضوعات عن طريق الاحالة المتبادلة بينها وبين ما يتجمع من هذه الموضوعات داخل الشعور لأول وهلة ٠

وهذا فيما نرى هو مافعله العقاد عندما ترك شعوره يلتقط مقومات اللغـــة التى تجمعت فى نفسه ، وأخذ فى التـــحويم حولها ليستخرج مكنوناتها واحدة واحدة وفقا لوقوعها المباشر فى الحساسية التلقائية ٠

وقد آثر «هوسرل» ـ شيخ الظاهرية ـ من قبل أن يقوم باستصفاء اللغة التى تعدد وتحدد أشكال التعبير ، والتى لا تكون اللغة لغة بغيرها ٠ وعنده أن النحاة لا يستطيعون الاقدام على دراسة اللغـــات بدون هذا الاستصفاء ٠ لابد من دراسة الصـــور الاســـاسية والاشكال التعبيرية الاصلية فى أوضاعها البدائية ٠ فنقطة البدء فى هذه التصفية اللغوية التى تعيننا على معرفة طبيعة اللغـــة مستقلة عن المؤثرات الشخصية ، وتتلوها مرحلة الشئون العملية الخاصة بجزيئات اللغة فى استعمالاتها المتباينة ٠

ونلاحظ ثانيا أن العقاد قد حاول أن يلم بماهية اللغة الشاعرة فى ذاتها ، ومن حيث هى تعبير عن الأقوام الذين استخدموها ٠ فاللغة هى قوام التعبير الناطق بين جميع المتكلمين بها كما يقول ، وتوصف بمـــا يوصف به الشـــاعر البليغ الذى تعرفه من كلامه ، وان لم يقصد الى تعريفنا بسيرته وترجمة حياته ٠ وكذلك اللغة ، فان لم نتعرف منهـــا حقائق أحوال الناطقين بها فما هى بأداة وافية بوسائل التعريف ٠ وليس من الغلو فى وصف اللغة المعبرة أن يقال انك تضع معجمها بين يديك فكأنما قد وضعت أمامك قواعد تاريخها ومعالم بيئتها ٠ ولا يعرف علماء اللغات لغة قوم تتراءى لنا صفاتهم وصفات أوطانهم من كلماتهم وألفاظهم كما تتراءى لنا أطوار المجتمع العربى من مادة ألفاظه ومفردات لغته فى أسلوب الواقع وأسلوب المجاز ٠ وعلى هذا النحو يقيم الشـــعر العربى متحفا حافلا بأنماط الحياة ، ويصور بهـــا القيم الاخلاقية فى شخصية تتناسق وتتجاوب فى سلوكها وفى تعبيرها عن هذا السلوك ٠

و «هوسرل» فعل نفس الشىء تقريبا حينما جعل من ظاهريات اللغة

سبيلا الى معرفة الذات الناطقة • والتفكير فى شئون اللغة يقتضى عنده الافضاء بحيوية الذات الناطقة ولقاء العقل مغلفا فى أساليب التعبير • ويصرح «هوسرل» – فى نهاية حيـــاته سنة ١٩٣٩ – بأن مشكلة اللغة مشكلة رئيسية اذا شئنا أن نلم الماما واضحا بمسائل الوجود من الناحية الفكرية ومن الناحية الثقافية ، أى أن التحقق من طبيعتهـــا سبيل الى الوقوف على الاشكال والصفات الخاصة بالأنظمة العامة فى الحضارة وفى المجتمع •

والانتقال – عند العقاد وعند «هوسرل» من مجال اللغة فى ماهيتها الى دائرة استعمالاتها الحضارية – متشابه ، وان لم تتفق الاهداف الخاصة بكل منها •

وكذلك الانتقال من الاهتمامات النفسية الى موضوعات «الظاهرية» المباشرة قد تكرر عند كل منهما •

ولا نعدو الحقيقة الآن اذا قلنا : ان توافقا فى المنهـــج قد ألف بين أسلوب «اللغة الشاعرة» وبين أسلوب «الظاهرية» فى استخلاص الحقائق• وآلى العقاد على نفسه أن يتأدى بهذا المنهج الى جملة من الاكتشـــافات الخاصة بلغتنا ، وأن يلقى الضوء على حقائقها الباطنة ، وينير الســـبيل للسالكين كيما يبلغوا أغراضهم اذا شاءوا الخوض بعد ذلك فى أبحـــاث اللغة والفكر والادب والمجتمع •

ونحن نعلم أن المذهب الظـــاهرى قد أخذ سبيله الى الظهور فى الادب والفـــكر منذ سنوات غير بعيـــدة • فمؤسس هذا المذهب هو الفيلسوف الالمانى «هوسرل» الذى مات سنة ١٩٣٩ قبل أن تعرف أفكاره معرفة حقيقية ، وقبل أن تنتشر أفكاره فى صورة ما • وقد ظهرت ملامح الظاهرية فى تفكير العقاد دون أن تأخذ شكلا مذهبيا متكاملا • فالعقاد يتفق مع المنهج الاساسى فى الظاهريات حين يتطلع الى الدلالات الحضارية فى المجتمعات والتواريخ ، ولا يقـــف مكتوفا أمام الوقائع والاحداث • ويندر أن يتمسك العقاد بحرفية الرواية التاريخية ، وانما يستلهم دائما الدلالات ومدى تماشيها مع روح العصر ودواعى النقد والفهم • فلابد من حيلة ناجحة غير حيلة الرفض المطلق أو القبول المطلق أو الظن المتردد بين الطرفين كلما عرضت للناقد مشكلة من مشكلات الاخبار الادبيـــــة أو التاريخية التى يختلط فيها الصدق بالكذب ، والخرافة بالواقع ، والحقيقة بالخيـــال • وهذه الحيلة هى استلهـــام الاحداث استلهاما يعتمد على

التمحيص والنقد العلميين اللذين هما من أوثق الوسائل التي تستند الى الحجة المقنعة ، ولا تكتفي بترجيحات الظن أو الذوق •

ويعين العقاد على تأييد هذه الحقيقة ما يتمتع به من مقدرة منطقية فائقـــة في تفنيد الوقائع والاحداث ، بل انه ليأخذ بالأسطورة السارية لدلالتها على روح شخصية من الشـــخصيات أكثر من اخذه بكل ما رواه عنها المؤرخون من أقاصيص • فالشعور الذى يخلقه الشخص في نفسيات المحيطين به أو الاثر الذى تتركه الحادثة في أذهان المعاصرين لها ـ أبلغ لديه في الدلالة على حقيقة الامر من كل ما حكاه مؤرخو الادب والتاريخ • والوهم الذى يشيع على ألسنة العامة أصبح لديه من مقررات الواقع الذى احتفظت به الدواوين وحوته المصنفات • وحسبه أن يستقصي كل هذه الاسقاطات الشعورية التي خلقها الجو العـــام فيما يتعلق بشخص أو بحدث ، حتى يتبين حقيقة الامر ويحسم في موضع النزاع •

فمن هذه الناحية يمكن أن نلاحظ مدى الاتفاق بينه وبين الظاهريات في الاعتماد على النوايا والاتجاهات العامة ومستقبلية الشيء أو المقتضى الطبيعي لتطوره • فليس ما يهمنا من هذه النـــاحية هو أن نقف على التسلسل الوضعي المحدود للأحداث ، وانما المهم هو التقاط ما تنبيء به مقتضيات الامور وما يكمن في قوام كل ظاهرة من معنى محقق • وهذا يتضمن اشارة الى التقدير الذى يخص به كل من المذهب الظاهرى ومنهج العقاد ـ العلاقة الانسانية التى تنشأ بين الباحث وموضوع بحثه • فهذه العلاقة تضفى معنى جديدا على معنى الموضوعية : ســواء في موضوعات التاريخ أو في علوم الاجتماع والادب والفن • وبذلك يؤدى التفكير وفقا للمنهجين الى الحد من معنى الموضوعية ، والتقليل من الخطورة التي كانت تتمتع بها •

والآن ـ وقد أصبحت الظاهرية أكثر انتشارا في المجالات الفكرية ـ يصح لنا أن نعقد هذه المقارنة بين ما توصل اليه العقاد من نتـــائج في بحثه عن اللغة الشاعرة وبين ما رسمه المذهب الظـاهرى من خطوط • وقد كسبت اللغة العربية هذا البحث الذى هدت العقاد الى نتائجه طبيعة نفاذة وقدرة على التحليق الهادىء والاستيحاء الثابت المطمئن •

وقد فتح لنا العقاد بهذا فتحا جديدا نحن أولى بأن نتـــابعه في اكتشاف قوى لغتنا الكامنة في وقتنا الحاضر ، عسى أن ندرك ما في لغتنا من امكانات تؤهلها للصمود أمام التطور السريع في مختلف المجالات •

قصة سارة ورأى العقاد فى القصة

موضوع قصة سارة موضوع شائك غامض • فهى قصة وموضوعها موضوع قصصى ومع ذلك فهــو ممسك بتلابيب الواقع الحى ومقيد بالتجارب الحقيقية الصـادقة • وكان من الممكن أن تتحول الى تسـجيل أدبى لأحداث جرت فى حياة العقــاد • ولكنها مع ذلك بقيت كقصة لهــا كل المقومات القصصية •

والذى أنقذ هذه القصة من يد العقاد المؤرخ شيئان : أولا شخصية الفتاة التى رسمها العقاد فى قصة سارة ومقدار الاعجاب والذهول اللذين بدرا منه خلال حديثه عنها • وآخرا الاشكال الريفى القائم بين نمطين من التفكير لا يلتقيان ولم يكن يمكن أن يلتقيا •

قصة سارة فى الواقع من القصص التى بهرتنى زمنا طويلا وفكرت فيها مليا • ولاحظ ذلك كثيرون من الاصدقاء الذين كنت أترك كل حديث خلال أيام طويلة ولا أتناول بالتعليق سوى مشاهد القصة وفصولها • لقد كسب الادب العربى قصة سارة بالمصادفة • وهذا تعبير لايحبه العقاد ولا يتناسب مع شخصه • ولكننى لاحظت أن العقاد كان يراوغ كثيرا فى اجاباته على الاستفسارات التى طالما وجهت اليه بهذا الصدد • وموضوع القصة شائك غامض ولكنه يخلق تجربة فريدة من نوعها يتمنى الكثيرون

من شبابنا العرب أن يستعيدوها وأن يحيوها • كل القصص التي ظهرت في اللغة العربية لم تأسر لب شبابنا على النحو الذى نتج من قراءة قصة سارة • كل منا أحب أن يحب على نحو ما أحب العقاد سارة وكل منا تمنى أن يستشعر هذه التجربة من جديد بشكل من الاشكال •

في القصة اذن شيء غريب مشوق وفيها نمط شاك متألم من الشبان هو همام • هذا الفتى الذى يطفح بالفكر كما يطفح الجسم بالاحمرار في حالات الحمى تبدر منه لفتات معبرة حانية كما لو كان وحده قد عبر بهذا العالم ومافيه • ليست أمامه تجربة يقيس عليها وليس له تاريخ يستمد منه القدرة على مواجهة المواقف • ولكن بصره متردد زائغ بين حس يوغل في صدره فيوقظ منه القوى الكامنة والذوق المرهف وبين رجولة متيقظة تحاسب صاحبها حساب المسكين • وتثور فيمـــا بين ذلك كله شكوك ووساوس تلهب عقل همام وتذيقه الهم والعناء •

وسارة بطلة القصة شخصية جذابة يشوق كل فتاة أن تقلدها وأن تذهب مذهبها في الحياة وأن تعيد سيرتها في خلوتها بمن تحب • طابع يحلو للنساء أن يرتدينه في مناسبات الحب والعشق وأن يجـدن التلذذ بتقليده في مجالات اللهو والتحـاب والملاطفة • ليس هنـاك شخصـية سيطرت على شبابنا قدر ما سيطرت شخصية همام ولم تستهو شخصية روائية كثيرات من نسائنا بقدر ما استهوتهن الملامح الأنثـوية في طبيعة سارة •

لو قلنا لذلك ان قصة سارة من النوع الطبيعى الذى يسرد حقائق الناس والجماعات كما تتمثل في الواقع بحيث شغلت أذهان النـاس لكنا مخطئين • فليس في القصة سوى مشـاهد مجتزأة من تجـربة معنوية صاخبة ألمت بشاب متشائم متخوف أمام الناس والحياة • والوصف الجزئى التفصيلي لا يتعلق بكل شيء وانما بلباب التجـربة الحية الماثلة في علاقة تتراءى في حياة الناس جميعا • انها واقعة بسيطة ساذجة ولكنها امتزجت بخيال مشبوب رفع عنها واقعيتها وأحالها الى شيء خطير • وكان يمكن لذلك أن نسمى قصة سارة قصة واقعية لأنها قد تجرى لكل انسان • ولكنها صادفت ذهنا مليئا بالهواجس ولاقت حســا مرهفا رقيقا خصها بالملامح والأوصاف التى لا تتكرر مرتين • واحتشدت بها الأوهام حتى صارت تزخر بالشياطين الثائرة والشخوص الخفية المستترة •

وكان يمكن أن تسمى قصة نفسية • وقد كان العقاد نفسه في تلك

الأيام متأثرا بالقصص التى قرأها لبــول بورجيــه ولكن موضوعيتها الخالصة التى تظهر من أسلوب الكاتب فى تنــاول المشــاهد والمرئيــات وتصرفات الناس والأفراد والاصطدام المستمر بين تقــاليد حقيقيــة وبين تجربة فذة جعلت من الصعب أن نحصرها فى نطاق القصة النفسية ·

وكان يمكن أن نسميها تجربة حياة لولا أن العقاد لم يذكر فيها كل الحقيقة فى نزوته الغرامية · ولو شاء أن يعبر عن حقيقة الحب وحقيقة الغيرة فى وضوح وجلاء وبغير أن يركن الى التصاوير التى تنقل جانبــا واحدا من الحقيقة الى القارىء لاستطعنا أن نجد فى قصة ســارة تجربة حياة · ولكنها لم تنقل ســوى جانب عاطفى واحد استغربه المؤلف أول الأمر وكأنه حدث لم يقع على وجه الأرض لانسان غيره · فشاقه أن يعبر عن تلك العاطفة فى حد ذاتهــا أكثر مما اهتم برواية الحقيقة · وهمــام شخص قوى شامخ يقف موقف التحدى من علاقاته بالنساء ولكن تفلت منــه مع ذلك تحليلات تبرر له الوقائع وتخفى عن كبريائه موضع الألم الدفين ·

والعجيب فى هذه القصة هو أنها لقطة من معركة دائرة لا بداية لها ولا نهاية · انها صور ومشــاهد اقتطعها الكاتب من وســط أحداثهــا الجارية · ولم تبدأ قصة سارة ولم تنته وكأنها دائما قلب حادثة مشحونة بشتى الانفعالات والمعانى والصور · وحين بدأت كلمات الفصل الاول كانت القصة توشك أن تبلغ النهاية وحين انتهت عباراتها الأخيرة برزت معالم بدايتها كأنها لم تكد تبرز الى عالم الوجود ·

قصة غريبة محيرة تتسع لشتى الأوصاف والأسماء ولكنها بريئــة ساذجة حتى لتبلغ مبلغ اللعب واللهو الذى يقبل عليه الصغار · وقد التقت «سارة» بالعقاد بعد أن كتب قصتها ونشرها سنة ١٩٣٨ · وسارة ليس اسمها الحقيقى وانما اسمها «أليس» وهى سيدة متزوجة من أسرة لبنانية مصرية معروفة فى الأوســاط الصحفية والأدبية · وقد هاجرت أليس الى باريس قبل الحرب العالمية الأولى بعد أن زوجت ابنتها من فرنسى اسرائيلى · وقالت له فى أثناء ذاك اللقاء رأيها فى القصة وهى أنها تشبه قصص القرن التاسع عشر · وتعنى بذلك ولا شك أنها تناقش قضية أخلاقية على نمط قصص القرن الماضى وتزخر بعلم النفس ·

والواقع أنها قصة لا أول لها ولا آخر · انها بغير بداية وبغير خاتمة وهى مليئة بالمغامرات الساذجة والمواقف العنيفة ومليئة أيضا بالتأملات

والعواطف الصارخة • هي تجربة تمثل ثورة مكبوتة على التقاليد وأوهام الناس • ولكنها مع ذلك لا تبلغ حد العمل الهادف الذي أقامه صاحبه لغرض أو لقصد سوى الأسلوب الجميل المفتن في تصوير الوقائع والأحداث مع التشويق بالغرابة التي يجدها في المواقف وبالتجربة التي ليس لها مثيل •

شيء غريب متناقض لفظ العقاد معه قدرته على التنويع والابتكار في أدائه ولكنه لم يصبح قصة الا من سياق التجربة الفريدة التي يضمها بين صفحاته • ان المشكلة ذاتها هي التي جعلت من القصة قصة • كذلك الاختلاف الأصيل بين نظرتي الشخصيتين همام وسارة دفعا بأحداثها الى أعلى أنماط القصص المؤلف تأليفا حاذقا بليغا • وكان يكفي العقاد أن يرسم الملامح الأصيلة في شخصيتي همام وسارة حتى تتطور قصتهما الى الوضع الذي انتهت عنده • وكان يكفي أن يشعر العقاد بالندم بعد عشر سنوات من التجربة حتى يعيد كتابتها على هذا النحو • فهي صدى للندم وهي أثر فني أملاه ما في طبيعتي سارة وهمام من اختلاف أصيل ومن تركيب لا يختلط بسواه • فلو كان هناك أدنى تغيير في الشخصيتين لما كان للقصة تلك الطلاوة وهذا السحر الذي يكتنفها •

فهمام كما يبدو من سطور القصة الأولى رجل يعشق سارة عشقا يملك عليه روحه وخياله • وهو رجل كلي في نزعته : اما أن يأخذ الشيء كله أو يدعه كله • واذا سيطر عليه احساس من الاحساسات ملك عليه فكره ووجدانه وانصرف له بكل جوارحه وانشغل به انشغالا كاملا • وهذه الطبيعة الخاصة به هي التي تجعله يفرض على علاقته بالمرأة ما لا يوجد في حقيقة العلاقة بالنساء من اشتراطات والتزامات • فهو رجل محب ويكفيه أن يستشعر حبه كيما يبدأ في استخراج كلما ينبني على الحب من قيود وشروط لا يوحي بها الواقع العادي • ولكنه يفاجأ بنمط من المرأة لم يعرف له مثيلا من قبل. ليس في تاريخه علاقة بامرأة تجعله يفطن الى دقة ما يفترضه في فتاته والى حقيقة ما يتطلبه منها • لهذا سرعان ما تكومت حول علاقته بها الطقوس والشعائر •

فالحب ـ مجرد الحب ـ لا يعطي أحد الطرفين حقا في المشاركة الكلية في حياة الطرف الآخر وفي الزامه بنوع معين من التصرفات • لذلك جاءت شخصية سارة في غير ما يقتضيها المقام • أرادت أن تعيش حياتها وأن تتعمق في تجاربها العاطفية• واستولى عليها احساس مخالف لما كان يجدر

بها أن تبدو فيه . كل فتاة نعرفها قادرة على أن تخفى عنك حقيقة مشاعرها وتريد أن تتصورها على شكل امرأة وفية لا يحلو لها العبث ولا تطيق أن تتخلى عن عرى الأخلاق . ولكن سارة تفهم الحرية وتشعر بصورة أخرى للكرامة وتتبدى للرجل فى الوضع الذى تحبه والذى يحبه . ولا تأبه بعد ذلك أن تأخذ الثمن أو لا تأخذه . وكل شبعها ورضاها انما يكمنان فى هذا السرور الذى تعيشه بضع ساعات .

وشخصية سارة كفتاة أكبر من أن تمر مرورا عابرا فى حياة العقاد لأنها شغلته وتابعت عمله وفكره واهتمت بعقله وروحه قدر اهتمامها بقلبه ووجدانه . وعناء العقاد فى التسليم بما قد يكون لامرأة من فضل عليه هو الذى جعله لا يسرد مدى تأثره الفكرى والوجدانى بهذه الفتاة .ولكنه أوفى دينه نحوها بكتابة هذه القصة وذكر صفاتها الذهنية والأدبية حتى ليكاد تعليقه فى ذلك المجال يكون شبيها بما يكتبه من التراجم لشخص حى حقيقى لا لمجرد بطلة فى قصة عادية . ولكنها هى نفسها كانت من النوع الذى يستمتع بالثقافة والأدب والشعر كأدوات معيشية لاتعدو أن تسقط أضواء على كيانها البشرى، وان تشبه المشاركات العامة فى شئون الحياة ذاتها .

فالثقافة عندها نوع من آداب اللياقة الاجتماعية ــ التى يحتاج اليها المرء لتعميق روابطه مع الناس فى المجتمع ــ ولتزيين شخصيتها واضفاء رونق خاص على أحاديثها وعلاقاتها بالناس . وكانت تكره أن تستأثر بها هذه الأجواء حتى تفسد عليها استمتاعها بالحياة أو حتى تصبح شغلها الشاغل أو عملا من أعمالها . فهى تكره بطبيعتها منافسة الرجل فى أعماله ووظائفه كما تكره ادعاء النساء حماستهن لحقوق المرأة فى غير مجالها الطبيعى الذى خلقت له . ومع ذلك فقد أفصح العقاد فى قصته عن مدى فهمها لمذاهب الفلسفة وذكائها الذى كان يدهشه ويروعه .

قال عنها : « وكان حديثها على المائدة ــ وقد استغرقت ساعتين ــ على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون أحاديث الموائد » .

« لاحظت أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين . فقالت : كان من حقنا أن نتزوج . فنحن زوجان طبيعيان . أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره فلا يشجر بيننا نزاع » .

« قال عفو الخاطر غير عامد لما يقول :

« هذا مذهب شوبنهور منقولا الى المطبخ » .

« واحس أنه أقحم اسم شوبنهور فى غير مقحم : أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء ؟ »

« وانه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع الى موضوع غير هذا الموضوع الذى أثاره ، وانه ليريد ان يأخذ عليها سبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شوبنهور .. فاذا هى تلاحقه قائلة : نعم القصير يطلب الطويلة والأبيض يطلب السمراء والبدين يطلب النحيفة . ومن يأكل الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح .. هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف » .

« فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها .. »

وبدرت منه كذلك عبارة أخرى سجل فيها ذكاءها حين قال فى وصف علاقته بها :

« واستباحت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش فى أوراقه الخاصة وهو لا يمنعها . فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام فى غلالة تنم عن محاسن بدنها وانسجام أوصالها . فصاحت به عابسة ما هذه ؟ »

« وكان همام قد نسى الصورة ونسى أنها هناك . فنظر اليها وقال بغير اكتراث : فتاة راقصة . »

« قالت : وفيم تحتفظ بها ؟ »

« قال : صورة فنية جميلة . كأنها تمثال . كأنها تحفة » .

« قالت وهى تنظر الى توقيع الفتاة وخطها الركيك . ولماذا هذا التوقيع ؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة ؟ أهى الراقصة الوحيدة التى راقك جمالها ؟ »

« قال : ان كان لا يقنعك الا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس فى الأمر صعوبة .. ثم قال : لو علمت يا خبيثة مقدار ما وهب لك الله من حدة الذكاء لأنفت أن تغارى من صاحبة هذه الصورة وانت ترين أميتها ماثلة فى خطها » .

« قالت : أو تظن أننى أبتهج بأن تحبنى لحدة ذكائى وتحب هذه الراقصة لما .. لما لست أدرى ما انت واجد فيها ؟ » .

« قال : أنا لا أحبها » ·

« قالت : أصحيح ؟ اذن هل أنا فى حل من تمزيق الصورة ؟ »

« قال : لا أمنعك ولكنها خسارة » ·

« قالت : أهى خسارة أم تخشى أن تسألك عنها صاحبتها ؟ اننى لا أنافس الراقصات ياسيدى ! فاحتفظ بالصورة كما تهوى · ولكن أرجوك أن ترد الى صورتى · فلست أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصور فى مكان واحد » ·

« فكبر على همام الأمر » ·

« وأحس لأول مرة أن فراق سارة يثقل عليه » ·

« فقال لها : ان كان لا يريحك الا أن تمزقى الصورة فمزقيها ·· »

« وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها وشعر بالتضـــييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث اليه »·

« وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه رفيمن تلقاه فى أثناء غيابها ، ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها ·· » ·

« وفرغ لها ·· فوقع فى روعه ألا يقنع منها بما دون الاســـتئثار والتفرد » ·

« وانقلب الجدول الهادىء المنساب رويدا رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الأسد المتحفز · ولو ظل كما كان جدولا وديعا لصـــفا واسترسل ··

« أو لانتهى كما ينتهى النهر الى مصبه فى رفق وسخاوة » ·

وهذه العبارة الأخيرة غاية فى الأهمية لتعبيرها عن ارادته فى الزواج منها لو استوى أمرها على النحو الذى أراده · هذه العبارة دالة على أن الزواج كان موضوع فكرهما فى وقت من الأوقات ·

أما هى فليس فى حبها له استجداء من أى نوع وليس فى شعورها نحوه رياء أو تكلف · انها تريد أن تستمتع بوقتها على أحلى نحو وهو يفكر فى المستقبل والماضى ويربط مشاعر اللحظة الحاضرة بمشاعر كل اللحظات · وهى لا تتعلل بشىء من أجل أن تلقاه وتحسب من حقها أن

تلهو معه · أما هو فيتعلل باستيفاء الحقوق وكراهيته للظلم من أجل الابقاء على ودها والاستمرار في التعلق بها · قالت سارة يوما بعد ما استعادته شرح فلسفة الدومينة للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة : أو لا تستمتع بشيء الا أن تكون له فلسفة ؟ فأجابها : لا · بل أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته · وانني لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته ، كي لايبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه · فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصي معناه ·

وهمام ينظر الى سارة ويتأملها طويلا · كان يراقبها من نفسها ويراقبها في نفسه : كان يرى المرأة المرحة الطروب وهي تلهو وتعبث ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهي تلتمس الأمان والعزاء ويرى الانسانة الفطرية وهي تطيع الغريزة وتلبس دورها على مسرح الطبيعة بين بناتها وحيوانها ومكانها وأهوائها ويرى المرأة الذكية التي تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة ويرى المرأة العصرية وهي تتغلب على امرأة الجيل الغابر في ميدان وتخضع لها وتنهزم أمامها في ميدان ·

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان· بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه وكأنهما رحالتان في نزهة طويلة يشتركان في مراجعة عمل النهار كلما سكنا الى ظلال الخيمة في ظلام المساء · وكان همام يعزو تقلبها واطرادها الى الفتوة الحية التي لم تحبس في محابس الأفكار والعادات والتقاليد · فهي أبدا في أيدي العواطف والنوازع كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب في كل ساعة· وهو يحب الطقوس ويرعى التقاليد وينظر في غير استخفاف الى العرف والعادات ، في حين أنها تكره النفاق وتثور على الادعاء ولا تحب التمويه·

ومع ذلك فقد هام بها · لقد تغلغلت ألفتها في أنحاء نفسه وجسده كألفة المدمن للعقار المخدر : من شاء أن يسميها حبا فهو صادق · ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق · ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه · ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه· فقصارى القول أنه يتعاطاه وأن الاقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة · لقد تجمعت أسباب الهيام من ألفة الى متعة الى تفاهم الى اتفاق في أمور الى اختلاف في أمور غيرها حتى استحكمت أواصر الملازمة وتلاحمت وشائج الفتنة · فلما أنشأ يحاسبها على حقوق الوفاء ويتقاضاها أمانة الاخلاص لم يكن ذلك غلوا منه في تنزيه العصمة الانسانية ولا غلوا في تنزيه

عصمتها ولكنه حاسبها ذلك الحساب لأنه حتم لا مندوحة له عنه ولأن السكوت عنها كان أشق عليه من حسابها .

وجائز عند همام أن تنصرف عنه سارة الى غيره . ولكن ليس بالجائز عنده أن تستغفله لأنها تتوهم في دهانها القدرة على الجمع بينه وبين غيره . جائز أن يكون هو وهي ألعوبة واحدة في يد الطبيعة التي تسوقه وتسوقها ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة في يدها وأن تكون هي اللاعبة بلبه وولائه ! لقد سلبته الطمأنينة وكفى ! وخير له أن يفارقها بغير جريرة قادرا على آلام فراقها صائما عن مسراتها من أن يعاشرها عاجزا عن فراقها باذلا كل ماعنده من اهتمام مستحقا كل ما عندها من احتقار واستغفال .

والعقاد يجعل من شخصية سارة فتاة عادية ولا يذكر شيئا عن أمر حياتها الحقيقية في الواقع ولا يشير الى أنها كانت متزوجة حتى يخلق موضوعا روائيا . فالمفروض في الرواية ذاتها أن ثم شيئا يجري بين رجل عارم الرجولة وامرأة فياضة الأنوثة سبق لها الزواج مرة وأن ما يجري بينهما وحده كفيل بربط موضوع القصة وخلق كل المخاصمات التي وردت في فصولها . ولو ذكر موضوع زواجها كعنصر قصصي لاكتشفنا شيئا غريبا وهو سؤالنا : ما بال العقاد اذن يخاصمها ويتحفز في علاقته بها على هذا النحو ؟ ولعلنا نسأل كذلك : أكان ينوي أن يتزوجها لو واتته ظروف طلاقها من زوجها ؟ هل كان يهمه أمرها الى هذا الحد ؟

وعندما تطالع قصة سارة تتعجب كيف ينتهي همام الى هذا الركن الجانبي بغير منفذ الى خلاص . والسبب في الحقيقة أنه لا سبب هناك . السبب هو الحيرة الملحاح التي تستحثنا الى كل عمل مستطاع دون أن نستوطن أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة . وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر أنه فعل شيئا لا علة له ولا هو يقبل التعليل . وفي ملحمة الصراع بين الفتنة والحجا ينسى الانسان ما لا ينسى ويخطر له الاغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه . ولقد خطر هذا لهمام في تلك اللحظة ووسوس له الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه الى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر الا متعتها . فتمنى في تلك اللحظة أمنية غريبة : تمنى لو كان حبه لها أقل وماضيه معها أقصر وشرطه عليها أقرب وأيسر . اذن لاكتفى منها بما تعطيه واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه .

وكتب اليها مرة يقول : فكل امرأة – كل امرأة بلا استثناء – فى وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسدا ويطرحها سائما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام • ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضا والغضب والشكر والملام • ان فقدك لم يكن هينا على فى وقت من الأوقات كما هو هين على الآن • فاذا كتبت اليك هذه الكلمة فانما هى كلمة صديق يريح ضميره ، وواجب أخير لا بد من أدائه • واذا أبيت الا أن تفهمى لها معنى من معانى الأنانية فافهمى اذن انها كلمة انسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة الى آخر أيام الحياة •

وما كان العقاد ليروى قصة سارة بعد انتهاء تجربة حبهـا مباشرة وما كان له أن يصفها بأكثر من الأوصاف التى وردت فى قصته عنها• فقد كان العقاد هائما بها فى فترة من أثقل فترات عمـره وكان يتمنى لو يتحقق من شخصيتها كامرأة تصلح للزواج منـه • وللعقاد أعـداء كثيرون يخشى أن ينهشوا عرضه فيها بعد أن يستنفدوا نهش شخصه بكل الأوصاف والنعوت • والسياسة لها أحكام على المشتغلين بها وبخاصة فى فترة ما بين الحـربين وكان ينبغى عليهم أن يراعوها وأن يخضـعوا لسلطانها • ولذلك تروى فى الأمر وتهيب شخصيتها بصورة واضحة فى عباراته ولم يتمالك فى الابقاء على صداقتها بغض النظر عما يئول اليـه أمرها فى غير مواعيد لقائه لها •

سألته يوما : اما انك كنت ترجو الزواج من سارة واما انك كنت تطلب منها ما ليس لك الحق فيـه وهو الوفاء ؟ اذ من أين يأتى الالزام فى مجرد علاقة غرام ؟ فزاغ العقاد من الاجابة قائلا : ان فكرة الزواج هذه لا أرتاح اليها ولا أتصور الحياة تحت سقف واحد مع امرأة واحدة طول الوقت • والعقاد صادق فى التعبير عن شعوره واحساسه • ولكنه لم يجب عما اذا كان حقا قد أراد الزواج من سارة أو لا ابان حبه لها • وقد واصلت سـؤالى اليه بعد ذلك بقـولى : لعلك كنت تعمل حسـابا لاشتغالك بالسياسة ومقدار التشنيعات التى يمكن أن يصدروها عنك • ولكنه لم يأبه لكلامى وظل يحتفظ بأسراره لنفسه •

والعقاد قبل هذا أو بعد هذا رجل من الصعيد يعمل ألف حساب للتقاليد والأوضاع السائدة • ولقد هزته سارة هزة عنيفة وكان لها أثر

كبير على تفكيره الأدبى وعلى احساساته العاطفية فيما بعد . ولم يشأ العقاد أن يطيل من قصة سارة أكثر من كل ما قاله . والواقع أنها تجربة شخصية فى حياة العقاد سنة ١٩٢٥ وعاشها العقاد وقتا قصيرا لا يزيد على السنتين . ثم تخوف من هذه العلاقة تخوفا جعله يشعر بالقلق فى غضون ملاذه ولهوه .

حزمة من الأعصاب تسمى امرأة !

وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة !

استغرقتها الأنوثة فليس فيها الا أنوثة . ولعلها أنثى ونصف أنثى لأنها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه لا لأنها أضعف من امرأة واحدة . لو انتقل عصب منها الى تكوين ليث غضنفر لبقى هنالك عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح وأمشاج .. ولو بقى ألف سنة. وعلم الأنوثة عندها كعلم الحساب عند بعض الأطفال الذين يجمعون ويضربون عشرات الأرقام بغير تدوين ولا مراجعة : مسألة بداهة سهلة لا اجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم .

وفى الحق أن سارة قد بهرت هماما بأشياء كثيرة . فهى قد تعلمت وهامت بأوربا وهى وثنية فى مقاييس الأخلاق كما هى وثنية فى التدين . وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة وانما تنفر من جميع الأشياء التى تأباها كما ينفر المرء من طعام يعافه : فهى مسألة ذوق ورغبة وليست مسألة شرف واعتقاد .

وعاش العقاد من جراء ذلك فى ألم لا نظير له فى آلام النفوس والعقول وحيرة لا تضارعها حيرة فى الاحساس والتخمين .

وحتى النهاية أحس بأنه كان قادرا على استنقاذها من براثن الحب الآثم ومن الزواج الرسمى . ولم يهجرها الا وقد تيقن علاقاتها بسواه ومع ذلك فقد بقى له من الندم طعم لا يزول فى جوفه وعلى لسانه وود لو يكون فى رواية قصتها عزاء حقيقى عن تجربة حبه لها ورغبته المستمرة فى امتلاكها وأمانيه فى التحقق من حبها وهواها .

والعقاد من أكبر العارفين بفن القصة ، وقراءاته لها كثيرة ووافية . وكان يعجب كثيرا بالقصاص الذى ينفذ الى النفس البشرية والذى يفتح آفاقا عالية للفكر داخل الكيان الانسانى . ولم يكن يعجب بالقصص التى تبغى مجرد السرد . وقد انتهز فرصة تجربته الحية مع سارة وأحالها الى

عمل فنى تعمد أن يظهر فيه قدرته على الوصف، والتحليل وأن يبرز عن طريقه لفتات الانسان الى حسه وروحه وتجاربه مع المواقف والأحداث . بل جعل العقاد من قصة سارة محورا للفتاته الذهنية العميقة الرائعة .

ويعد العقاد من أكبر المجددين في الأدب العربى شعرا وقصة .
وكان يرى ان الادب العربى قصر فى مجال التحليل والتفصيل . وفى مقاله عن القديم والجديد فى سنة ١٩٢٤ يقول بهذا الصدد : « انى أعرف المزية المطلوبة فى الأدب تعريفا لا أظنه يحتمل الخلاف من أحد الفريقين . فأقول ان شرط الأديب عندى أن يكون مطبوعا على القول أى غير مقلد فى معناه ولفظه وأن يكون صاحب هبة فى نفسه وعقله لا فى لسانه فحسب . أى يجب أن تسأل نفسك بعد قراءته : ماذا قال ؟ . لا أن يكون سؤالك كله : كيف قال ؟؟ فهو مطالب بشيء جديد من عنده ينسب اليه وتتعلق به سمته ويخرجه عن أن يكون نسخة مكررة لمن تقدمه . وقد أجاد العرب فى المعانى المختصرة ولم يجيدوا فى المعانى المطولة . وأثرت عنهم الرسائل والخطب وما نحا نحوها من موضوعات الكتابة » .

وقرأ العقاد أناتول فرانس وتولستوى وبول بورجيه وبلاسكوابانيز وأحس بأهمية القصة المطولة وشرح أساليب الكتاب فى معالجتها . وأخرج العقاد كتابا تناول فيه أعمال أكبر القصاص الأمريكيين وهو ألوان من القصة القصيرة . وتعرض العقاد فى هذا الكتاب لهمنجواى ولفولكنر وشرح فولكنر مستعينا بأقوال القصاص الفرنسى المعاصر مارسيل ايميه .

فاهتمام العقاد بالقصة ناتج عن شعوره باحتياج الأدب العربى الحديث الى أنماط عالية فى هذا الفن . ولكنه كان يكره الاسفاف والضعة فى العرض القصصى وكان يحاول دائما أن يسترعى النظر الى خطورة ذلك .

ومن ذلك ما قاله فى كتابه فى بيتى سنة ١٩٤٥ : « اننى لا أقرأ قصة حيث يسعنى أن أقرأ كتابا أو ديوان شعر ولست أحسبها من خيرة ثمار العقول . قد يكون الراوية أخصب قريحة وأنفذ بديهة من الشاعر أو الناثر البليغ . ولكن الرواية تظل بعد هذا فى مرتبة دون مرتبة الشعر ودون مرتبة النقد أو البيان المنثور . والمثل هنا أقرب الى الايضاح من سوق القضية بغير تمثيل : ان الحديقة التى تنبت التفاح لا يلزم أن تكون فى خصبها ووفرة ثمراتها أوفى من الحديقة التى تنبت الجميز أو الكراث

ولكن الجميز والكراث لا يفضلان التفاح وان نبتا فى أرض أخصب من الارض التى تنبته وتزكيه .

« ونحن نقرأ القصص التى تجود بها قرائح العباقرة من أمثال ديكنز وتولستوى ودوستوينسكى وبورجيه وبروست وبيراندلو فنؤمن بتلك العبقريات التى لا تجارى فى هذا المضمار . ولكن ايماننا بها لا يلزمنا أن نضع القصة فى الذروة العليا من أبواب الآداب ولا يمنعنا أن نقدم عليها غيرها فى التقدير والتمييز .

« اننى أعتمد فى ترتيب الآداب على مقياسين يغنياننى عن مقاييس أخرى . وهما الأداة بالقياس الى المحصول ثم الطبقة التى يشيع بينها كل فن من الفنون .

« فكلما قلت الأداة وزاد المحصول ارتفعت طبقة الفن والأدب وكلما زادت الأداة وقل المحصول مال الى النزول والاسفاف . وما أكثر الأداة وأقل المحصول فى القصص والروايات ؟ ان خمسين صفحة من القصة لا تعطيك المحصول الذى يعطيكه بيت كهذا البيت :

وتلفتت عينى فمذ بعدت عنى الطلول تلفت القلب

أو هذا البيت :

كأن فؤادى فى مخالب طائر اذا ذكرت ليلى يشد به قبضا

أو هذا البيت :

ليس يدرى أصنع انس لجن سكنوه أم صنع جن لانس

أو هذا البيت :

اعيي الهوى كل ذى عقل فلست ترى الا صحيحا له حالات مجنون

أو هذا البيت :

وقد تعوضت عن كل بمشبهه فما وجدت لأيام الصبا عوضا

« لأن الأداة هنا موجزة سريعة والمحصول مسهب باق . ولكنك لا تصل فى القصة الى مثل هذا المحصول الا بعد مرحلة طويلة فى التمهيد والتشعيب ..

« أما مقياس الطبقة التى يشيع بينها الفن فهو أقرب من هذا

المقياس الى أحكام الترتيب والتمييز . ولاخلاف فى منزلة الطبقة التى تروج بينها القصة دون غيرها من فنون الأدب سواء نظرنا الى منزلة الفكر أو منزلة السن أو منزلة الأخلاق » .

وليس من شك فى أن طبيعة العقاد الذاتيــة هى التى تنفر من الاستمرار فى مطالعة قصة من القصص المطولة اذا كان فى مقدوره أن يمضى الوقت فى كسب المعارف والتزود بالمعلومات . وموقفه الطبيعى هو الذى جعله لايقرأ القصة الا اذا كانت فريدة فى نوعها واذا وجــد فيها مايدفعه الى قضـــاء فترة طويلة فى متابعتها . هــذا هو موقف العقاد نفســه فى القراءة والاستمتاع والاطلاع . فاذا نظر العقاد يمنة ويسرة ورأى القصص التافه العقيم الذى يصدر عن تحلية فى الاسلوب وعن استرسـال فى السرد الوصفى الذى لا طائل وراءه ولا غناء فيــه كان هذا كافيا لدفعه الى الغضب والثورة على أصـــحابنا الاتباعيين الأسلوبيين . فما أغناه وأغنى أمثاله من محبى القراءة الرفيعــة عن قراءة الصفحات تلو الصفحات فى غير قصد ولا معنى ولا غرض وبدون تسـجيل شيء مما يدعو الى التأمل أو الاستمتاع .

ولـــكننا مع ذلك لاننسى ساعات طويلة قضــــيناها مع العقــــاد وهو يحدثنا عن القصص العالمى الذى قرأه واستمتع به . كان لاتفوته قصة من قصص تولســـتوى ودوستويفســـكى وبلزاك وجـــوته وأناتول فرانس وموباسان وتوماس مان وأندريه جيد وتوماس هاردى وأبانيز . وكان يعـــرف كثيرين غير هـــؤلاء ويتكلم فى ســـلاسة وســـهولة عن أدق التفصيلات والمواقف فى تلك القصص . ولكن الحقيقة التاريخية تقضى منا أن نقول ان أحاديثه كانت مليئة بالمشاهد القصصية فى سنوات ما بعــد الحرب العالمية الثانية . وأخذت اهتماماته القصصية تختفى رويدا رويدا وراء القوالب الفلسفية التى صارت تشــغل حســه وفكره . وصار يحلم بالفلاسفة فى أثناء نومه ويراهم شخوصا حيــة فى منــامه ويحدثنـــا عن أوصافهم التى ظهروا أمامه فيها .

وأحس العقاد بمدى الاثر الذى أحدثه رأيه عن الشعر والقصة فى الأوساط الأدبية فكتب مقالا يفسر به ذلك الموقف فى مجلة الرسالة فى سبتمبر سنة ١٩٤٥ . قال العقاد : « حين يقول القائل ان الذهب انفس من الحـــديد يقرر شيئا واحـــدا وهو أن الحـــديد لايدرك ثمن الذهب فى سوق البيع والشراء . ولكنه لايقرر الغاء الحديد ولااستخدام

الذهب فى المصانع والبيوت بديلا منه . ولايعنى أن الذهب يغنى عن الحديد أو غيره من المعادن فى غرض من أغراضه .

كل ما يقرره شيء واحد وهو ان سعر الذهب أغلى من سعر الحديد ولا لوم عليه فى ذلك وان قيل له ان الحديد أنفع وأشيع من معادن الزينة والتجميل .

ونحن قد فضلنا الشعر على القصة فى سياق الكلام عليهما من كتاب «فى بيتى» فكل ماقلناه اذن هو ان الشعر أنفس من القصة وأن محصول خمسين صفحة من الشعر الرفيع أوفر من محصول هذه الصفحات من القصة الرفيعة . ولايقتضى رأينا فى الشعر والقصة أن نمحو القصة وأن نثبت الشعر وحده . وانما نبقيهما ونبقى معهما الترجيح بينهما ونقدم الشعر على القصة فى هذا الترجيح .

اننى لم أكتب ماكتبته عن القصة لأبطلها وأحرم الكتابة فيها أو لأنفى انها عمل قيم يحسب للأديب اذا أجاد فيه . ولكننى كتبته لأقول أولا انني استزيد من دواوين الشعر ولا أستزيد من القصص فى الكتب التى اقتنيها . واقول ثانيا ان القصة ليست بالعمل الوحيد الذى يحسب للأديب وانها ليست بأفضل الثمرات التى تثمرها القريحة الفنية . وان اتخاذها معرضا للتحليل النفسى أو للاصلاح الاجتماعى لا يفرضها ضربة لازب على كل كاتب . ولا يكون قصارى القول فيه الا كقصارى القول فى الذهب والحديد . الحديد نافع فى المصانع والبيوت ولكنه لا يشترى بثمن الذهب فى سوق من الأسواق » .

وكان غرض العقاد أن يلقن كتاب القصة درسا فى معالجة هذا الفن وفى الاقبال على تأليفه وفقا للتطورات الأخيرة التى أدخلت على فن القصة . فمجرد الاسهاب فى التزويق الأسلوبى المتكرر يبعث التقزز فى نفس القارىء الذى يبحث عن الاستفادة بتجربة عميقة معروضة فى أسلوب فنى خال من الافتعال والميوعة والجدب . كان غرض العقاد ان يلقن اصحاب المطولات القصصية ذات الاسلوب المنمق الموصوف أن القصة ليست هى مايقدمونه للجمهور . وأراد أن يجعلهم يعرفون حقيقة القصة المعاصرة وحقيقة التغييرات التى ادخلت على فن كتابتها .

وأول غرض اذن من هذه الحملة التى شنها العقاد على كتاب القصة هو أن يدفعهم الى التجديد فى فنهم وأن يعرفهم مدى الفشل

الذى أصاب قصص السالفين من أصحاب الاطار القصصى المفكك .
ويقول العقاد فى مقدمة كتابه عن ألوان من القصة القصيرة : « يكاد يجمع النقاد المحدثون على أن صبغة التجربة هى أغلب الصبغات على الأدب الأمريكى المعاصر . وهم على صواب فى هذا الاجماع . فان محاولات التجربة نفسها تدل على الخصلتين فى وقت واحد : تدل على الاعتداد بالذات وعلى قوة العرف والتقليد . ولا معنى لتغليب التجربة ان لم تكن هنالك مغالبة او محاولة للتوفيق بين ما يكتشفه الانسان لنفسه وما يفرضه العرف عليه » .

ويعود فيقول عن الاختلاف بين أنواع القصة القصيرة والقصة المطولة : « ولم نعرف تفرقة بينها أصح وأصدق من التفرقة التى أجملتها الكاتبة اديث هوارثون حين قالت : (ان الموقف هو الموضوع الغالب على القصة الصغيرة وان رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية) . ويمكن أن نضيف الى الموقف موضوعا آخر يصلح للقصة الصغيرة أو الحكاية وهو الايحاء واسترعاء النظر أو هو ما يقابل حرفيا كلمة الاقتراح » .

« وقد اتفق فى وقت واحد أن هذه القصة تخصصت بالموقف والايحاء وأن الفن كله يتجه الى تمثيل الحالات وعرض الصور وينفر قليلا قليلا من تعمد التسلية بمجرد سرد الحوادث وتعليق الانفاس بالمفاجآت ومثيرات الشعور . فربما أنف الكاتب فى العصر الحديث أن يقال عنه انه يكتب للتسلية والتشويق» .

وكانت غضبة العقاد على فن القصة من قبيل الايذان بالتغيير الذى طرأ على القصص بعد الحرب العالمية الثانية . وكانت فى الوقت نفسه دعوة الى أن يحدد كاتب القصة موقفه بين كتاب الفنون الأدبية الاخرى وأن يفطن الى المزايا الحقيقية فى القصص الجيد الرفيع .

فن التراجم عند العقاد

للعقاد أسلوب كتابى خاص متميز به . وفضلا على ما لهذا الأسلوب من بناء قوى رصين وما فيه من حركية وجمال فهو الى جانب هذا سريع التجوال فى آفاق الموضوع المعروض . فبسرعة ينفذ العقاد بقارئه الى قلب المشكلة وبسرعة أيضا يعمد الى التقسيم والتجزئة والتوزيع وبسرعة أكثر يصل الى تخطيط معالم الموضوع ورسومه فى ذهن المتابع لكلماته .

العقاد شديد الاهتمام بالتصوير العاجل الذى يرسم فى لحظات كل جوانب المشكلة التى يعرضها . اللفتات سريعة والتصوير شامل دقيق وتوزيع الجزئيات المعبرة عن المسألة التى تهمه منسق متأنق .

وعقلية العقاد عقلية مؤرخة فنانة . فليس هو بالفنان الذى يكتفى بأن يعيش فى عالم التصاوير والخيالات ولا هو بالمؤرخ الذى يقف عند جزئيات الأحداث من حيث هى وقائع جارية . وانما تتقارب الطبيعتان تقاربا يحتم عليه أن يكون كاتب ترجمات شخصية . لامفر من أن يكتب العقاد ترجمات أدبية وتاريخية . صاحب هذه العقلية هو أحسن الناس أداء لفن الترجمة الشخصية . فاذا أضفنا الى هذا كله قدرة العقاد على التعاطف مع الكائنات والأحياء وامتزاجه وتجاوبه مع احساسات الناس ومشاعرهم عرفنا أن هذا

الميدان ـ ميدان الترجمة الشخصية ـ لن يحرم من مشاركات واضافات عقادية ٠

فالعقاد من أقدر النـــاس على التعاطف مع الانسان فى عموميـاته وخصوصياته ٠ وهو من أبرع الناس فى الالتقاء بالآخرين لقاء مبنيـا على مشاعر وجدانية مختلفة وعلى تفاهم فى السلوك وفى قيم الحياة ٠ فالعقاد من الرجال الذين يتعلقون بالقيم وينشدونها فى حيـــاتهم ويدعمـــونها بقدر ما يملكون من الوسائل والأدوات ٠ والنزعة الانسانية واضحة فى تفكير العقاد ، واعجابه بالخصال الانسانية العالية لا يعلو عليه اعجاب ٠

وفى يناير سنة ١٩٥٦ فى أثناء دراستى للفلسفة فى باريس أرسلت الى العقاد خطابا أنبئه فيه أننى قد قمت بالقــاء عدة محاضرات على لفيف من الأدباء والمثقفين ٠ وأخبرته أن هذه المحاضرات قد تناولت أدبه وفكره من وجوه مختلفة ٠ وكانت السيدة الأديبة الفرنسية مدام بينار قد أعطتنى هذه الفرصة فى ندوتها الأدبية بحى سان جرمان بباريس حتى أطلع الأدباء الفرنسيين على الاتجاهات الحقيقية فى الأدب المصرى المعاصر ٠ ووجدت أن هذه الفرصة قد تكون صالحة لتقديم عرض شامل لكتاب العقاد عن المسيح٠ فأشرت فى كتابى اليه بعزمى ذاك وطلبت اليه أن يفيدنى بما يراه موافقـا لهذه المناسبة وما يصح التنبيه اليه وتوكيده لدى المستمعين الفرنسيين ٠

فكتب الى الخطاب التالى :

« عزيزى الأستاذ الديدى

تحية لكم وشكرا على اهتمامكم وتنويهكم بما أكتب ٠ وأرى أنكم خير من يترجم بلغة القيم الوجدانيـــة التى لاتفهم هذه الموضوعات بغيرها ٠ فانها لم تخلق لمن يقيسها بمقياس الحساب أو المنطق أو وقائع الحس الحيوانى ٠ ومن قاســـها بهذا المقياس لاجرم يحصى عليها الخطأ الكثير ولا خطأ الا فى مساواته بين الحقائق حيث لا مساواة ٠

اننى لا أقدر الصواب فيما أكتبه عن عبقرية المســيح وما اليها الا بمقدار القيم الوجدانية ٠ مثلها فى ذلك مثـــل الجمال والحب والبلاغة والأخــلاق المثلى : وجه واحد جميل يساويه فى حســـاب الجمع والطرح الف وجه دونه فى درجة

الجمال • ولكنه فى درجات القيم يزيد فى قيمتـه على الملايين ولا يغنى عنه كل ما دونه من وجوه •

وصواب العقائد كصواب الأذواق فى هذا التقدير : فيها بالحساب خطأ كثير ولكنه خطأ لأنه يقـاس بغير مقياسه الصحيح وينظر اليه الناظر كأنه قضية عيان أو قضية برهان •

ولا احسب أننى توخيت فى الاستشهاد بآيات القرآن الكريم فى كتاب عبقرية المسيح خطة غير الخطة التى أتحراها فى غيره من الكتب • الا أن يكون الاستشهاد هنا ألزم للدلالة على وجهة النظر الاسلامية فى مرجعها الأصيل •

ارجو لك كل توفيق وفلاح • وأكتب اليك هذا وأناعلى اهبة السفر الى أسوان لقضاء أسبوعين أو ثلاثة فيهـا • ثم أعود الى القاهرة خلال الأسبوع الأول من شهر مارس بمشيئة الله » •

المخلص

١٩٥٦/٢/٧ توقيع : عباس محمود العقاد

وهذا الخطاب وثيقة من أهم ما كتب العقاد فى حياته • وفى الخطاب فكرتان رئيسيتان : أولاهما هى التى وردت فى آخر الخطـاب وهى التى سبق أن كررها العقاد فى جملة مناسبات • فالعقـاد قد استن سنة فى كتابته عن أشهر العبقريات الاسلامية وهى أنه يسـجل مواقف هـذه العبقريات دون استناد الى شواهد من القرآن • فهو يريد أن يتقدم بكتبه عن الشخصيات الاسلامية الى كل انسان والى أى انسان فى الاسلوب الذى يقبله العقل ولا يرفضه المنطق • ولا يأخذ العقاد دليلا من القرآن على صدق ما يقوله عن محمد وانما يود أن يطلع عليه أى انسان فيسلم بما فيه لسبب آخر غير كونه من أبناء المسلمين المؤمنين بكتاب الله • انه يخاطب القـارىء من أى دين ومن أى فئة « وانه لنافع للمسلم أن يقدر محمدا بالشـواهد والبينات التى يراها غير المسلم فلا يسعه الا أن يقدرها ويجرى على مجراه فيها •• لأن مسلما يقدر محمدا على هذا النحو يحب محمدا مرتين : مرة بحكم دينه الذى لايشاركه فيه غيره ومرة بحكم الشمائل الانسانية التى يشترك فيها جميع الناس » •

فالعقاد لم يستشهد بكتاب الله في توضيحه للمواقف المحمدية لأنه أراد أن يعالج الموضوع على مستوى انسانى عام • أما فى كتابه عن المسيح فقد جاء بآيات من القرآن على خلاف سنته • وقصده من ذلك هو بيان التفسير الاسلامى لشخصية المسيح • وكأنما أراد العقاد أن يقول انه قد يبدو فى كتابه عن المسيح بعض الاختلاف عن المنهج الذى اتبعه • ولكن الضرورة التى ألزمت هذا التغيير هى الحاجة فى هذا الكتاب عن المسيح الى بيان موقف الاسلام من المسيح وكيف يرى الاسلام حقيقة المسيح •

أما الفكرة الرئيسية الثانية فهى التى وردت بأول الخطاب • فهو يريد أن يقول ان العلم يختلف عن الفلسفة وان الفلسفة تختلف عن الدين • ولكل من الدين والعلم والفلسفة مقاييس خاصة لا تختلط بمقاييس سواه واذا حكمت مقاييس العلم عند نظرك فى أمر الدين تبينت لك فيه أخطاء جسام • واذا رجعت الى مقاييس الدين فى نظرك الى مبادىء الفلسفة وجدتها لغوا وعبثا •

وهناك أمور لامرجع فيها لغير القيم الوجدانية • ومثل ذلك موضوعات الجمال والحب والبلاغة والأخلاق المثلى • فاذا جعلت مقياسك فى هذه المسائل الى جانب المنطق والحساب لم تعد أن تخطىء فيها خطأ من يقرب المشاكل بغير وسائلها • والحقيقة الواحدة فى أى فرع من الفروع التى أشار اليها ليس لها تقدير صحيح مهما بلغنا من النظر والتأمل • لأن الحقيقة التى لا بديل منها لا حساب لها فى عالم التقدير وانما هى فوق كل تقدير • ومهما قلنا فى تقديرنا لهذا الشيء الذى لا بديل عنه فهو نوع من التقريب وليس فيه أى تحديد للقدر الصحيح •

ونظرة العقاد هذه فلسفية عميقة • فالعقائد عنده شأنها شأن مسائل الذوق جميعا • اذا طبقت عليها قاعدة حسابية واذا أخضعتها لضرورات المشاهدة والبرهان بدا فيها خطأ كثير • ولا ينتج هذا الخطأ عن طبيعة العقائد والأذواق وانما ينتج عن المقاييس الغريبة التى فرضتها فى غير مكانها • ويستدعى البحث فى هذه الأبواب الرجوع الى غير ما يتطلبه العلم التجريبى أو نظريات المعرفة أو مباحث المنطق الصارم • يستدعى البحث فيها أن نرجع الى المقاييس التى تخص كلا من العقائد والأذواق وما يتفق وحقيقتها فى عالم الوجدان والشعور •

لهذا كانت نظرة العقاد فى كتابته للسير انسانية محضة • ونزعته الانسانية واضحة فى كل مواقفه الفكرية والأدبية • وعندما يحاول

استشفاف مفتاح شخصية صاحب السيرة أو صاحب الترجمة الشخصية يعمد الى تسليط الأضواء الانسانية على جميع جوانبه حتى يرى عنصر الأصالة في روحه وعبقريته • وفي آخر دعوة رمضانية الى الافطار دعانا اليها العقاد في بيته بمصر الجديدة كعادته في كل رمضان جلسنا حوله فرحين سعداء بنشاطه وأريحيته • وكان ذلك في فبراير الماضي بعد عودته من أسوان وكان يبدو صحيحا معافى • وأخذنا نداعبه بأسئلتنا المحرجة التي كان يسميها شقاوة التلامذة • وتعمدت أن أستفسر منه عن التحول الذي حدث في شخصيته عندما توخى كتابة السير الاسلامية. فقلت له : هل كانت كتابة عبقرية محمد نتيجة لاحساس بضرورة الكتابة فيما يعشقه الجمهور العربي القارىء أو أن ذلك قد نجم عن استجابة لدوافع نفسية وروحية في قلبه ؟

وبمجرد سماع السؤال أجاب العقاد بأنه لا يهتم اطلاقا بما يسمونه الجمهور • انه يهتم أولا بأن يكتشف حركة الفكر في ذاته وفي حقيقته وقد يتعلم الجمهور شيئا من ذلك أو لا يتعلم • ولو جارينا الجمهور في نزواته وفي أحكامه التي لاتثبت على حال لما نفذنا الى لب الحقائق الانسانية أو الكونية • والواقع أن العقاد لم يكن الا وليد اتجاهات شعبية خالصة • كان يلتقط بحاسته ككاتب كل ما يشبع حاجة الفكر الشعبي وكان يتصيد رغبات الجمهور بغير قصد • ونشأت كراهيته لما يسمونه عادة بالجمهور من أن الناس لم تكن قط ذات حكم صائب في مشاكل كثيرة مما ظهر في سماء الفكر العربي خلال الخمسين سنة الماضية • كان العقاد يرى الناس يميلون الى غير ما يعتقد وكانوا يتحمسون للآداب الرخيصة الفاترة والأحكام النقدية التافهة • فاذا أضفنا الى ذلك أن العقاد لم يدخل معركة من معارك السياسة متملقا آراء العامة أو مشايعا لأفكار الجمهور الغالب وأنه كان دائما خصما شديد العنف والقوة في مساجلاته الأدبية والفكرية والسياسية وأن أعداءه كانوا لا يتورعون عن اطلاق الاشاعات عنه في شتى الصور والأساليب ويجعلونه هدفا لأكاذيبهم وافتراءاتهم — أصبح من الواضح لنا أنه لن يهادن الجمهور العادي ولن يشعر في نفسه قط بحاجته الى استرضاء أحد • فمهما اتبع من الأساليب لن يتغير الناس ولن يغيروا من مواقفهم نحوه •

وهو يعبر عن هذا الموقف عنده في أبيات تحت عنوان « من هان رضي » :

لا أبالي اليوم أن أغضبتكم في سبيل الحق ٠٠ فارضوا وانعموا
آكرم الناس فلا آكتمهم انتمو أهون من آن تكرموا
ما على دنياكمو آن تغفلوا أبد الدهر والا تفهموا

ويحدد العقاد موقفه في دقة أكثر حين يقول في أبياته عن «الملام» :

أنا لا الوم ولا الام ٠٠ حسبي من الناس السلام
لا بالكلام ولا الحسام ترد عادية الأنام
أنا ان غنيت عن الأنام فقد غنيت عن الملام
واذا افتقرت اليهم ٠٠ فاللوم من لغو الكلام

ومع ذلك فحقيقة الشعور الباطني لدى العقاد رقيقة سمحة وقدرته على التجاوب مع الأحياء والكائنات وظاهرات الطبيعة قوية حارة ٠ فان كل هذه المعارك والمنازلات التي أطبقت على مشاعره طول حياته لم تطفيء في قلبه جذوة التفاؤل وحرارة الاندماج مع الناس والكائنات ٠ وحسبك أن تطالع قصيدته عن كلبه «بيجو» وهي من أروع عيون الأدب العربي والتي تدل على تعاطفه الشديد مع كل ما يحيط به ومن يحيط به :

حزنا على بيجو تفيض الدموع
حزنا على بيجو تثور الضلوع
حزنا عليه جهد ما أستطيع
وان حزنا بعد ذاك الولوع
والله يا بيجو لحزن وجيع

***

حزني عليه كلما عزني
صدق ذوي الألباب والألسن
وكلما فوجئت في مأمني
وكلما اطمأننت في مسكني
مستغنيا أو غانيا بالقنوع

***

وكلما ناديته ناسيا :
بيجو ! ولم أبصر به آتيا
مداعبا مبتهجا صاغيا ٠٠٠
قد أصبح البيت اذن خاويا
لا من صدى فيه ولا من سميع

نسيت ؟ لا ، بل ليتنى قد نسيت
احسبنى ذاكره ما حييت
لو جاءنى نسيانه ما رضيت
بيجو معزى اذا ما اسيت
بيجو مناجى الأمين الوديع

***

ابكيك ، ابكيك وقل الجزاء
يا واهب الود بمحض السخاء
يكذب من قال طعام وماء
لو صح هذا ما محضت الوفاء
لغائب عنك وطفل رضيع

ولم يكن أحد يثير غضبه وسخطه مثلما كان يفعل الطاهى احمد حمزة الذى خدمه قرابة الأربعين عاما أويزيد . ومع ذلك فقد كان شخصية من الشخصيات التى تشغل وجدان العقاد . وكان يتمنى أن يجد فرصة لكتابة كتيب صغير عن نوادره وفكاهاته . فقد كان هذا الرجل بتفكيره الساذج البسيط يثير من الاشكالات التى تجعل العقاد يثور ويفور ويغضب . ومع ذلك فما التفت العقاد لشىء قدر التفاته الى طبيعة هذا الرجل . وتجد فى كتاباته عن فلسفة الضحك كثيرا من التفسيرات التى كانت تطرأ على باله من مواجهته لمواقف الشيخ حمزة . ولم يفت العقاد أن يعرف به القراء فى مقال موجز بنهاية أحد دواوينه .

وكانت علاقته بكل تلاميذه ومريديه علاقة ود وحب صادق ومداعبة لا يكف عنها العقاد فى أى وقت . وكان يحبهم كجزء من حياته يشغلونه ويملئون وقت فراغه ويحس ببنوتهم ومسئوليته نحوهم .. وكان ينظم الشعر فيما يعرض لهم من الأحداث والمناسبات . وبعد الحرب العالمية الثانية مباشرة اعتاد صديقنا الأستاذ التونسى آن يحمل معه الى الندوة يوم الجمعة علبة من السجائر الأجنبية الثمينة فنظم فيه العقاد على البداهة:

خليفة التونسى والتونسى خليفة
وفى السجائر يسطو على جنود الخليفة

وفى يوم وفاة والدى فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ أرسل الى برقية مطولة تفيض ودا وأبوة . ولقيه الأستاذ التونسى فى ذات اليوم فسأله : سمعت ؟ فقال التونسى : نعم وسأسافر الآن الى السويس . فقال العقاد بنبرة متأثرة : هذا واجب .

فالعقاد الذى كان يمثل هذه المشاعر الجائشة الفياضة لا غرابة فى اختصاصه بكتابة التراجم • بل هى أصلح الأعمال وأكثرها ملاءمة لطبيعته الحساسة المتفتحة على عوالم الشعور والفكر •• وقد ورد فى مقدمة كتابه عن محمد عبده ما يشير الى هذه الحقيقة وما يصلح لأن يكون نموذجا منهجيا لأعماله فى تأليف التراجم • يقول العقاد : « هذا تمهيد نفتتح به هذه السيرة العطرة لنبسطها على ما نتحراه من سير العظماء جميعا • صورة نفسية تعنينا منها حوادث الزمن ومواقع الأمكنة وارقام السنين بمقدار ما تمثله لنا من ملامح الصورة ومعالم الحياة التى تصورها وكل ما فى هذه الصفحات من أحاديث التاريخ والرواية عن محمد عبده فى نشأته وأسرته وصحبته وعوارض أوقاته من مولده الى وفاته • فالذى نتحراه منه أن يكون عضوا من أعضاء قوة حية قبل أن نتحراه جزءا من فترات التاريخ أو جزءا من الخريطة الجغرافية • ويملى لنا فى مقصدنا أن صاحب هذه السيرة — خاصة — ينبوع قوة روحانية تطوى عوارض الزمن وصغائر الدنيا فيما تفيض به من حياة انسانية يخلص لنا منها بعد تمحيص الجوهر عن نفايات الأوشاب والأخلاط أشرف ما تتحلى به نفس الانسان فى العالم الخالد الذى يذهب بالزبد ويبقى ما ينفع الناس » •

وهذا هو المنهج الذى اختطه العقاد لنفسه فى كل التراجم وهذه هى النظرة الرئيسية التى توخاها فى تسجيل السير • وقد عرض العقاد فى مقال كامل لفلسفة التراجم بمجلة الرسالة فى ٢٢ من مارس سنة ١٩٤٣ بمناسبة محاضرة ألقاها « فيليب جود اللا » فى أثناء مروره بمصر عن عمل المترجم • وهذا المقال هو خير ما يعبر عن رأى العقاد فى كتابة السير • « فجوداللا » هو صاحب سيرة تشرشل وسيرة بالمرستون وسيرة نابليون الثالث وسيرة ولنجتون •

والشيء الذى يدل دلالة واضحة فى هذا المقال على مزاج العقاد هو المحادثة التى دارت بين العقاد وبين « جود اللا » حينما التقى به بعد المحاضرة فى بيت الدكتور هيكل • فقد قال جوداللا ان المصريين يضحكون فى مواضع الضحك التى يفطن لها الانجليز ويشبهون نظراءهم من السامعين هناك فى التفاتات الذهن ومواقف التعقيب عند الاصغاء الى حديث • قال: « والضحك علامة الحضارة لأن الشعوب البربرية لا تضحك • فذكرنا (هكذا يقول العقاد) فى تلك اللحظة قولة نيتشه ان الضحك من نكتة واحدة هو أول الدلائل على تقارب فكرين » •

ويتلخص رأى جوداللا كما عرضه العقاد فى أن الترجمة هى تاريخ

من التواريخ يطبق على الأفراد بدلا من تطبيقه على الأوطان والأقوام . وهي من ثم جديرة بأكبر عناية في العصور الحديثة التي شاع فيها، تهوين الفرد وتعظيم شأن القوى والعوامل الجامعة . فان الفرد ولا ريب يدل على شيء كثير لأنه يرتفع على القمة فيشير الى اتجاه التيار . فان لم يكن هو الفعال لكل شيء في زمانه فهو على التحقيق دليل على مجرى الزمن وعلى ما يكمن وراءه من الدوافع والمؤثرات .

وقال : ان الفرق بين فرنسا قبل نيف وثلاثين سنة وفرنسا اليوم انما هو في جملته فرق بين رجلين : بين كليمنصو وبيتان ! كما أن تاريخ انجلترا في السنوات الأخيرة انما هو مظهر الفرق بين شمبرلين وتشرشل .

ولما تعرض لفن السيرة او فن كتابتها حذر الكاتب من فتنتين تغريانه من جانبين مختلفين : أحدهما جانب البلاغة الأدبية ، والآخر جانب النظريات النفسية أو السيكلوجية .

فليس الغرض من الترجمة اخراج قطعة من الأدب البليغ وان صح أن تجيء أدبا بليغا في عرض الطريق .

وليس الغرض منها عرض النظريات النفسية التي قلما تفضي الى يقين لأنها بين شيء مفروض معلوم من قبل وشيء لا نفرضه ولا نعلمه على الاطلاق وفي كلا الأمرين مضلة تستلزم التحذير .

ثم حذر جودالا من خطأين آخرين عند الكتابة عن الأقدمين : خطأ النظر « الفوقاني » أو النظر الى أعلى وهو ينتهي الى الاطناب في الحماسيات والبطوليات وتخيل الأقدمين كأنهم جيل من العمالقة أو الملائكة العلويين .

وخطأ النظر « التحتاني » أو الترفع عن الأقدمين كأنهم أطفال في حاجة الى التربيت والاغضاء مع شيء من الابتسام والاستهزاء .

وانما النظرة الوسطى هي النظرة القويمة أو النظرة السواء لا الى الأعلى ولا الى الأدنى فتراهم بالعين التي تنظر الى الحياة اليومية ولا تعيبها مبالغة في الاكبار أو مبالغة في التصغير .

وقال : ان الكاتب الذي يشغل ذهنه فترة طويلة بالبحث في سيرة عظيم من العظماء لا يلبث أن يشعر عامدا أو غير عامد أنه تقمص ثياب « سكرتير خصوصي » لذلك العظيم .. فهو يجاريه في ميوله وبدواته ويترقب ملاحظاته واشاراته فيفوته من ثم أن يستقل بذهنه في

النظر اليه . وهذه أيضا فتنة من فتن الترجمة المغرية للكتابة عليهم أن يتقوها جاهدين ليكتبوا عن عظمائهم عادلين مستقلين .

ويعقب العقاد على ذلك بقوله : « تلك خلاصة معربة لجملة الآراء التي تشتمل عليها فلسفة الترجمة في رأي الأستاذ هارولد نيكلسن وهي آراء نوافقه على معظمها ولا نكاد نخالفه الا في الميل الى البطولة أو الى الصنيعة الادبية . فاذا استطاع الكاتب أن يستروح نفحة البطولة من مترجمه وأن يبثها في قلوب قرائه فهو في اعتقادنا عمل لا ضير فيه بل هو واجب مطلوب مفيد لا غبار عليه .

وكذلك اذا استطاع أن يرضي ذوق الفن ويرضي الحقيقة في وقت واحد فتلك غاية حرية أن نتطاول اليها أعناق الكتاب . لأن تجميل الحياة بالصدق الفني غرض من الأغراض النبيلة التي نخلص اليها من طريق التراجم كما نخلص اليها من طريق الشعر والنحت والتصوير والغناء . فكل حياة خلت من الجمال الفني ومن الصورة الانسانية التي يسبغ عليها ذلك الجمال هي حياة فاترة أو حياة ناقصة لا تستحق أن تعاش . وانما مقياس الحياة التي نكتب عنها التراجم والسير هي الحياة التي نعاشر » .

وشغف العقاد بالتراجم والسير اقدم من تاريخ هذا المقال . ففي سنة ١٩٢٨ كتب العقاد مقالا عن سير العظماء ضمنها الجزء الثاني من كتابه ساعات بين الكتب . وهذا المقال يكشف عن الينابيع التي استقى العقاد منها أصول منهجه في تحرير السير . انه يوضح العوامل والأسس التي حملته يفتن في تأليف تراجمه على هذا المنوال . كان العقاد يعرف الانجليزية معرفة جيدة تعينه على الاطلاع على جميع التراجم في الفرع الذي يدرسه ويبحثه . وقد ترجم سير بلوتارك بالانجليزية وكتب عنها يقول : « يخيل اليك وأنت تقرأ تراجمه للعظماء أن الترجمة خرجت مكتوبة وحدها لفرط بساطتها وانسجامها وموافقتها لمجرى الأمور الطبيعية وملابستها العظيم الذي تمثله وتكسوه بغير فضول ولا تعمل ومشابهتها للخلائق الحية التي تحيا لنفسها وتسير على قدميها وتتماسك أعضاؤها وأنت لا تدري كيف كان مساكها » .

ولكنك اذا اقبلت تدرس المقدرة التي أتاحت لفلوطرخس أن « يعاطف » العظمة في كل نوع من أنواعها هذه المعاطفة السهلة البديهية التي توهمك أن الرجل يتكلم عن أبنائه أو معارفه وأهل جيرته بعلم أصيل واسترسال لا أثر للكلفة فيه تبين لك أنه عظيم خلق لفهم العظماء

ودرسهم كأنه لا يدرسهم والحكاية عنهم كأنه يحكى عن حوادث كل يوم، أو عن ابناء الأغمار التى لا غرابة فيها » .

وقد كانت السيرات التى ألفها بلوتارك أو فلوطرخس كما كان يسميه العرب من أقرب المؤلفات إلى يد العقاد فى مكتبته ولعلها كانت من أقربها الى قلبه أيضا . فاستشف العقاد منها أسلوبه فى عدم الاختصاص بكتابة السيرة فى حدود الوقائع التاريخية المفصلة أو فى حدود التفسير العقائدى للمواقف . بل اهتم بالتقويم الشخصى لصاحب السيرة على المستوى الانسانى الذى يدنيه من كل خاطر وبالحق الذى يبث له الحب فى قلب كل انسان . لأن العبقرية فى تعريف العقاد قيمة فى النفس قبل أن تكون امتيازا تبرزه الأعمال وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم . ولأن أبسط الأحداث وأقل الاشارات قد تكون أكبر دلالة على شخصية صاحب السيرة من التآليف المطولة وحشد الوقائع والظروف الخارجية لن تعنينا فى شىء ان لم يكن وراءها كشف عن حقيقة نفسية فى حياة المترجم له .

وقرأ العقاد لكثيرين من أصحاب السير ولمس استعداده الفطرى لكتابة التراجم بعد تأليف كتابه عن سعد زغلول . وقد سبق كتابه ذاك ترجمته الشخصية لجيته . فعرف أنه قادر على مزاولة هذا العمل وأنه يملك الفهم الضرورى لمواجهة الأشخاص الذين تميزوا بالعبقرية فى مختلف المجالات . ثم انه تأثر فى فترة تأليف هذين الكتابين بما كان قد استوحاه فى قراءاته السابقة القديمة لمؤلفات كارلايل واميل لودفيج وأصبحت البطولة والعظمة الانسانية والأريحية تهز أعماقه .

فتتبع فى شغف مؤلفات اميل لودفيج وقابله فى أثناء زيارته للقاهرة وكتب عن أسلوبه فى التراجم يقول : « انه جرى فيها على نمط شائق يعنى فيه بالحياة الداخلية أشد من عنايته بالوقائع الخارجية ويفرغ به شيئا من الجدة على السير التى ألفها القارىء وميحة من الانسانية المألوفة على كل عظمة يرفعها التطويب والتقديس الى مراتب الغرابة المنقطعة والاعجاز المعزول . وهو لا يفصل بين الأبواب والعهود ولا يعير الحوادث الضخمة عنوانا أكبر من عناوين الأخبار الدارجة والكلمات التى تقذفها المناسبة فى عرض الكلام » .

وسأل العقاد نفسه : لم نكتب ترجمة العظماء ؟

ويجيب قائلا : اننا نكتب هذه التراجم لارضاء الشغف النفسى

بالوقوف على كل سر والاحاطة بخفايا الوجود ولا سيما خفايا النفس الانسانية التى هى قبلة الانسان وغاية ما يشغله ويستجيش عطفه وتفكيره . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نكتب تراجم العظماء لانصافهم وتقديرهم واعطائهم حقهم من جزاء التبجيل والاعجاب . ثم نكتبها من جهة غير هذه وتلك لنستحث المقتدين بهم على ترسم خطواتهم والتطلع الى مراتبهم .

وجاءت تراجم العقاد وفقا لكل هذه النظرات أبرع ما عرفه الأدب العربى الحديث وأروع ثمرة لجهد طيب وفكر رائق وفن أصيل .

العقاد المفكر

عاش العقـاد أكثر أيامه على الأرض داخل بيتـه في مصر الجديدة ٠ ولكنه طاف بمجالات الفكر المختلفة ، وتطاحن وهو في غرفته مع أعظم المشاكل وأخطرها ، ودخل في معارك لا حصر لها ٠

وقد تضـاربت الأقوال في شخصيته بسبب ما أثاره من الضغينة والحقد والحسد في نفوس كثيرين جدا من الأعـداء والخصوم ٠ وخاض العقاد من الخصومات ما لا حصر له واصطبغت شخصيته عنـد الـكثيرين بالملامح التي أضفاها عليـه أعداؤه من جهـة وبالصفات التي ظهرت من كتاباته الحادة العنيفة من جهة أخرى ٠

فالعقاد قد اتخذ لنفسـه في المرأة نظرية لا يحيد عنها وانما ظل يسعى تباعا على مر الأيام الى تعميمها وشرحها وزيادتها ٠

والعقاد حارب الاحتلال وحارب تدخل الانجليز ولم يكف قط عن مناوأة كل مظاهر الاستعمار والاستغلال الأجنبي ٠

والعقاد وطد عزمه منـذ شبابه الأول على حمـاية الحريات الفردية وصيانة حرية الرأى والفكر والكلمة ٠

والعقاد قاوم الطغيان فى كل صوره وألوانه ، وانتصر لقضايا المستضعفين والمحكومين ازاء الكبت والضغط والاستبداد .

والعقاد كان طول حياته عدوا لدودا للاقطاع والملكية ونظام رأس المال ، وحكومات أصحاب السلطان الذين لا يمثلون الشعب المكافح من أجل وجوده .

والعقاد قاتل ضد ارهاب الاخوان المسلمين فى أقوى لحظات جبروتهم وتسلطهم ودعوتهم الرجعية .

والعقاد أوقف قلمه على حرب الصهيونية العالمية ، وكشف مؤامراتها والتعريف بأساليبها ووسائلها وشعائرها .

والعقاد خاصم النازية والفاشستية والدكتاتوريات العالمية ابان أخطر مراحل التاريخ الحديث .

والعقاد لم يترك فرصة لمناضلة الشيوعية ومحاربتها . وتفنيد دعاواها دون أن ينتهزها ويستغلها فى سبيل القضاء عليها .

والعقاد سخف الوجودية والفوضوية والانحلالية واللا ابالية ، واستخلص ضدها جميعا من القرائن والأسباب ما لا حصر له .

والعقاد أوقف معظم جهوده على محاربة الالحاد والتمرد ، ودعاوى القلق والانقباض والتشاؤم عند الشباب .

والعقاد حارب البدع والتقاليع والادعاءات فى مجالات الأدب والفن ، وصمد حتى النهاية فى معارك النقد والمناهج والبحث العلمى .

والعقاد حارب نظريات المستشرقين المغرضة ، ودعاواهم فى ايقاف الامتياز والعبقرية والابتكار على شعوب وأجناس دون غيرها .

والعقاد حارب المحسوبية والاستغلال والظلم ، ومعاملات الساسة والرؤساء على حساب المجاملات بغير التفات الى أصحاب الحقوق .

وهذا كله عدا حروبه ومعاركه فى ميدان الفكر والثقافة ، وفى عالم الفنون والأدب والنقد ، وخصوماته الكثيرة لأصحاب النزعات الهدامة والنزوات التحللية ..

ولو خاض جيش بأكمله ما كرس العقاد حياته وقلمه للثورة عليه ومهاجمته لما استوفى جزءا بسيطا من أجزاء مهامه، ولما كافح بعض ماخص

العقاد به أطرافا من وقته وجهده • ولو جهزت هيئة كاملة للدعاية والاستعلامات من أفراد مدربين ، وخبراء عارفين ليكافحوا جانبا من الجوانب التي عني العقاد بنقضها وهدمها لما حققت واحدا على مائة مما أداه هذا العقل الموهوب المفطور على المناهضة والنزال • كان العقاد شيئا خطيرا حقا في تاريخ هذه الأمة ، وقام بدور مصالح الاستعلامات والتعريف والارشاد قبل أن تعرف بلادنا شيئا عن أمثال هذه المهام • ولهذا السبب نفسه أحس العقاد أنه يلعب دور وزارة بأكملها ، وأنه يؤدي وظائف جمهورية الفكر جنبا الى جنب ، مع جمهورية الحكم على قدم المساواة •

وكان العقاد يتفانى في سبيل مساندة دعواه ونقض آراء خصومه • فأطلق أعداؤه ألسنتهم بالتهجم على شخصه ، وحاولوا النيل منه بشتى السبل • ولو أحس العقاد بنقطة واحدة من نقاط الضعف التي تستحق الغمز والتشهير على أساس واقعي صحيح في حياته ومعاملاته مع الحكومات أو القوى الأجنبية لخفف من حدته وأحنى رأسه ولو مرة على الأقل في تاريخه الطويل ، ولكن ثقة الرجل بنفسه وتيقنه من عدم وجود ثغرة ضئيلة ينفذ منها خصومه الى ما يشينه جعلته يستخف بكل ما أذاعوه ضده ، بل على العكس كان يتخذ من تشهيرهم به وسائل لتحقيرهم وللامعان في السخرية منهم •

كتب في مجلة الرسالة (سنة ١٩٤٣) مقالا تحت عنوان « ومن أساليبهم » قال فيه عن الشيوعيين : « ومن أساليبهم التي نص عليها كارل ماركس في منشوراته أن يشوهوا سمعة كل رجل مسموع الكلمة بين الديمقراطيين • ولا حرج عندهم أن يختلقوا الأكاذيب ، وأن يعرضوا لشئونه الخاصة ، وأن يذموا أعماله أقبح الذم ولو لم يكن عندهم دليل واحد على ما يذمونه منهما • واذا تكلموا عن الأدباء والشعراء الذين لا يؤمنون بالشيوعية عابوا عليهم انهم حالمون وأنهم خياليون ، لأنهم لا يكتبون عن المسائل الاقتصادية ، ولا يقفون أقلامهم على أسعار الطعام واللباس ، وشئون الأموال والعمال » •

« والأدباء الديمقراطيون لا يحرمون هذه الموضوعات ولا يزال منهم من يعرض لها من الناحية الفنية التي هو أقدر على تصويرها • وانما يعلم الأدباء الديمقراطيون أن في الدنيا علما اسمه علم الاقتصاد وعلماء اسمهم العلماء الاقتصاديون ، وأن هؤلاء أولى بدرس المسائل التي يفهمونها ويفرغون لها ويستطيعون الحكم فيها لأن الأدب لم يخلق لالغاء علم الاقتصاد » •

وغالبا ما كان العقاد يدهش من عدم قدرة المصريين على ادراك حقيقة موقفه • وكان يعجب من أن الناس لا تستطيع أن تفهم أنه يقاتل لا لشيء إلا للمبادىء نفسها • كان كثيرا ما يبدى استغرابه من أن الناس لا يستطيعون أن يقتنعوا أنه يفعل هذا كله لمجرد الايمان بما يفعل غير مدفوع بدوافع مادية أو لمصلحة شخصية • والمسألة فى هذا الشأن تتعلق عند العقاد بالخلق • وهو نفسه يحكى هذه النادرة فى معرض حديثه عن الحق المجرد وعن شقاء الانسانية بين العقل والهوى :

« يقولون فى الصعيد ان نوتيا سمع مضغا قويا فى مخزن الخبز الجاف من سفينته فأشفق من نفاد المؤنة فى الطريق وصاح مغضبا : من هذا الذى يقضم فى الخبز قضم الحمار ؟

فقيل له ابنك حسن !

« قال : اسم الله عليه ! أهو الذى يقرش هكذا قرش الفوير ؟

والرجل قد صدق بعض الصدق فيما سمع من قضم حمار ومن قرش فوير • فان أكل ابنه من الخبز يسره ولا يؤذيه • وان الانطلاق الغريب عليه يؤذيه ولا يسره • ويبقى أن يسمع المسافر الذى لا يسمع حمارا ولا فويرا ولكنه يسمع الصوتين على حسب ما عنده من الزاد •

وما أعجز الانسان أن يتبين حقيقة بهذا الصغر وبهذه البساطة ما لم يسمع من جانب مخزن الخبز صوت حمار وصوت فأر وصوت انسان •

هذا نقص فى خليقة بنى آدم يؤدى الى تمام • وذلك هو النقص الذى يحبه جماعة من أصحاب المذاهب الاجتماعية ويفرضون دوامه ويحضون على الاقتداء به فى فهم التاريخ • فهم يجعلون الهوى فرضا لزاما فى معالجة كل حقيقة من حقائق الحياة •

ولكن مغالبة الهوى غير مستحيلة • فاذا كانت للمرء قوة خلق تصحب المعرفة غلب الهوى بالجمع بين معرفته وقوة خلقه • وأصبحت مصلحته تابعة لما يلزمها من جادة قويمة فى رأيه •

كذلك كان العقاد يقول «ان الشيوعية ليست مسألة أغنياء وفقراء• والا لكنت أحق الناس بالدعوة الى الشيوعية أو بالسكوت عنها لبعدى عن الغنى اليوم وبعد اليوم • ولكنها مسألة الانسان وكرامة الانسان •• » •

وكان يسأل نفسه : كيف لا يصدق هؤلاء الناس أن دفاعه أو

هجومه ليس مبنيا على غرض من الأغراض وليس مصدره تشجيع الهيئات السياسية أو الأجنبية ؟ ألا يمكن أن يكون الانسان صاحب دعوة من أجل الدعوة ذاتها وحدها ؟ هل من الضرورى أن يكون هناك اغواء سوى اغراء المثل والمبادىء المجردة ؟ هل هؤلاء النـاس فعلا أعجز من أن يتصوروا معانى البطولة والتضحية والاستشهاد ؟

والواقع أنك لو تابعت تطور العقـاد الروحى فى شـبابه لوجدت بذور التعلق بالمثل والمبادىء واضحة جلية . فقد أحب محمد فريد وجدى وعمل معه وتعلم منه وتأثر بشخصيته تأثرا عميقا وظل يحفظ له الحب والود والوفاء الى آخر لحظات حياته . والوفاء فى طبع العقاد شىء سوى ما اصطلح عليه الناس . انه شـعور باطنى دافق يجعله مقيدا بسلاسل وعهود نحو الشخص الذى يركز فيه هـذا الوفاء . ان الوفاء عنده صفة الانسان العليـا التى تميز وجوده وروحه من جميـع المخلوقات . وهى صفة تضفى على كلمـاته التى يسجلها عن الشـخص الذى يفى له معنى خفيا فيه شاعرية وفيه حنان وفيه تأثير باطنى كامن وفيه مع ذلك تماسك الفن والحب والود والسخاء وعبور التاريخ فى لحظات كأنك مع الشخص ذاته . خذ مثلا لذلك هذه الكلمات البسيطة التى سجلها فى نهاية مقالة عن محمـد فريد وجدى ضمن كتـابه « رجال عرفتهم » (ص ١٦٧) :

« ولم ألق محمد فريد وجدى بعد تعطيل الدستور غير مرات معدودات . وكنت قد برحت القاهرة الى اسوان ثم عدت الى القاهرة للعلاج من وعكة قطعتنى عن العمل بضعة أشهر .

« فى حديث من أحاديث الرياضة على الأقدام كان لقـائى الأول له بعد عودتى الى القاهرة . فاننى عرفت مسكنه بعد انتقاله اليه من مسكنه بدار الصحيفة ، فقصدت اليه على أثر رياضة فى الخلاء وبيدى كتاب من كتب الفلسفة الاجتماعية . فقال لى وقد نظر فى الـكتاب ولمح على وجهى اعراض السقم : وفى مثل هذا الكتاب تقرأ وأنت ترتاض للاستشفاء ؟ .

«وأذكر أننى فاتحتـه باعتقـادى قصر العمـر وقـلة الجـدوى من الاستشفاء . فابتسم ابتسامته الأبوية وفتح الصفحة الأولى من الـكتاب وهو يقول لى : اكتب هنا . . ثم أملى على كلاما فحواه اننى ساعود الى هذه الأسطر وأنا شيخ معمر لـكى أعرف أننى كنت على خطأ كبير حين قدرت لنفسى نهاية العمر القصير . .

« رحم الله ذلك القـلب الطهور وذلك الروح الـكريم وذلك الخلق الفريد . .

« ان يكن اليوم لا يذكر حق ذكراه فما هو بالخمول ولا هو بالقصور عن حق الخلود ، ولكنه يعيش في عزلة من دنيا التاريخ كما عاش أيامه في عزلة من دنيا الحياة » •

لا أدرى ما هذا الجو الذى يسبغه الله على كلمات العقاد حين يتحدث عن أحبائه ممن انتقلوا الى ذمة التاريخ ؟ لا أستطيع أن أسمى هذه مجرد شاعرية •• فالشاعرية تأتى وراء الكلمات فتستشعر من طلائها حلاوة النغم واللفظ والروح والتعبير •• الشاعرية هي الاحساس المفعم الذى لا تراه في الكلمات ، ولكنك لا تخطئه قط في بزته وأمواته وشياته • أما هذا الذى يفيض به الاحساس بالوفاء على كلمات العقاد فاعتقد أنه شيء يشبه الطعوم التى تأكلها • ولن يخلو فمك من طعوم ماتقرؤه للعقاد حتى الغصة الخفيفة التى تسد زورك عند الأسى والشجن •

خذ علاقة العقاد بسعد زغلول وبالنقراشي وخذ احساساته العارمة الجياشة التى تبدت في غرامياته • وقد صدق العقاد واخلاصه في كل المواقف وفي كل اتجاهات التفكير التي مر بها وستجد قطعا أن الوفاء صبغة لم يخل منها قط موقف من مواقفه حتى في أشد الهجمات النقدية عليه • واذا كانت فكرة الارادة هى مفتاح شخصية العقاد فى فلسفته فان الشعور بالوفاء هو مفتاح شخصيته المفكرة •

والعقاد نموذج للمفكر القادر على الانتقال من جو الى جو ومن مستوى الى آخر في سرعة ويسر • وقد أراد العقاد ألا يحرم نفسه الاشتغال بالفلسفة اشتغالا مدرسيا أصيلا • وقد وجد بلا شك صعوبة كبرى في الاقبال على كتب الفلسفة الخالصة لقراءتها والامعان فيها ودرسها وفهمها ثم في الشروع في عرض نماذج من كتاباتها كأهل التخصص من أصحابها • هذا الوضع يستغرق سنين طويلة من الشباب الجامعي الذى يقبل على دراسة الفلسفة من أجل تذليل صعوباتها أمامه فضلا عن التخصص فيها والتبحر في علومها وفروعها • ولم يقف العقاد أمام معلم وعرف مع ذلك كل دلالات الفلسفة اليونانية والحديثة كما اطلع على تفاصيل فلسفات العصور الوسطى • وعالج العقاد مشاكل عدة في صميم فلسفات أرسطو وأفلاطون وأفلوطين والقديس توما الاكويني والقديس أوغسطين • وتطوع لشرح مواقف الغزالي وابن رشد وابن سينا ووازن بين فلسفات الاسلام وأحدث الفلسفات الأوربية •

وقد شرح العقاد ملامح الفكر الأوربى الحديث ، ولكنه لم ينخدع أمام مظاهر العقل في ثقافة الغرب وعلمائه وفلاسفته • لم ينبهر بحضارة

أوربا ولم تضيع من قلبه حرارة ايمانه بالشرق والعروبة وتراث الفكر العربى وعلوم الاسلام ٠

ولكنه في الوقت نفسه لم يكن ينظر في بساطة أو فى استخفاف الى معالم الفكر في أية صورة من صوره ٠ وكان يحمد الله على أن عقله لم يفسد تحت تأثير الدراسات الجامعية فى مظهرها التقليدى ٠ وقد كان لتحرر عقله من الخدمة الأكاديمية أثر كبير في شخصية العقاد وتفكيره ٠

فهو أولا لم يكن يشعر بالجلال الذى تسبغه الجامعات على علوم الغرب وحكمة أوربا ٠ لم يتهيب قط في مناقشة أية فكرة تصدر عن أعلم علماء الأرض ٠ وأذكر بهذه المناسبة أن أحد أساتذة قسم الفلسفة بكلية الآداب رفض تناول فلسفة سارتر بالتشريح بحجة أنه فيلسوف ملحد ! فما بالك بالأثر الذى يتركه مثل هذا التصرف أمام طلاب الفلسفة بالكلية التى تدافع عن حرية العلم وكرامته ٠ والمتخرجون من الجامعات يعيبون على العقاد أنه وقف طويلا يساند أفكار الاسلام ومبادئه ٠ ولكن هل يعرفون أن العقاد لم يكن يخشى أن يتناول أقدس المقدسات بالشرح والتحليل والنقد ٠

وقد تعرض العقاد لنقاط كثيرة فى فلسفات سارتر والبير كامو وأحس بأن هذه الفلسفات تحمل بذور الألم ووساوس الخوف وملامح الحزن والتشاؤم ٠ فعارض جوانبها الانهزامية وأبرز ما فيها من مواقف الجدية والسمو ولم يعرف أى تردد أو حيرة أمام مذهب من المذاهب مهما تعقد أو خرج على المألوف ٠ وناقش المفكرين فى العالم أجمع مناقشات حادة تحمل طابع التفكير الشخصى ٠

وفى الوقت نفسه — وهذه هى النقطة الثانية الهامة — لم تسحر حضارة الغرب فكر العقاد ولم تشغله عن المقومات الحقيقية الأصيلة فى فنون العرب وفلسفاتهم ٠ فلم يندفع قط في الاكبار من مذاهب الفكر الغربى الى حد اهمال مقومات العروبة الأصيلة ، لا شك أنه استفاد الكثير من ملازمة المؤلفات الغربية وقراءتها وأنه استخلص جذور مواقفه من عبارات الفلاسفة وأساليب الشعراء والأدباء والعلماء ، بل انه استفاد منهم طريقة الاتزان وفحص الأمور على نحو تحليلي ينفذ الى قرارات المبادىء الأولية ، ويخترق حجم الصفات الاقليمية والعادات البيئية ٠

والتفت العقاد الى أهمية الملامح الانسانية فى الآداب والفنون عن طريق مقارناته المتصلة بين الانتاج الفكرى فى شتى بقاع العالم ٠ وعرف

أن الإنسان لا بد أن يلتقي في النهاية بأخيه الانسان ، واستقر في ذهنه أنه اذا أراد أن يبلغ بكلماته آذان الناس جميعا ، فعليه أن يعالج القضايا معالجة من يعتمد أساسا على البراهين التي يقبلها العقل في أي زمان ومكان ، لذلك لم يستند في دعم قضاياه ونظرياته على الوحي أو المسلمات الإقليمية أو العقائدية التي تقبلها بعض العقول ، وتصدف عنها عقول أخرى في ظروف أخرى ٠

كذلك لم يفقد العقاد في كتاباته هذه الحماسة لأصالة العرب وحكمتهم ٠ ولو تعلم العقاد في الجامعة لخشى أن يناقش القضايا التي أشاعها معلمو الجامعة كأنها مسلمات ٠ واصطدم العقاد بأساتذة الجامعات أكثر من مرة في أكثر من موقف ٠ ولم يفقد العقاد أبدا حرارة الشعور بالتبعية ازاء ما يعزو اليه من النظريات في تفسير الأوضاع الاجتماعية أو التاريخية أو الفلسفية أو النقدية ٠

بل العجيب حقا هو أن العقاد كان يسترد صحته اذا نزل الى المعارك الأدبية أو السياسية ، وكان يبدو عليه الذبول والشحوب حتى يشتبك في معركة حامية تعيد لون الورود الى خديه وتدفع في عروقه حمية الشباب ، ولم ينهزم العقاد في مساجلة قط ، وخرج منتصرا في كل موقف من مواقف الرأي ٠

ولم يشأ العقاد أن يدخل في مناقشات مع كل من يناوشه من أصحاب الأقلام أو من أصحاب النظريات المعارضة ٠ كان ينازل أساتذة الجامعات أو الأدباء الكبار والمتوسطين ٠ دخل العقاد في مناقشات في علم الاجتماع مع الدكتور علي عبد الواحد وافي ، وعرض نظرياته في شيء من الافاضة وناقشها مناقشات علمية ذات أهمية بالغة ، كذلك لم يسلم من قلمه الساخر الأديب طه حسين في عدة مناسبات ٠ كان يناصره كصاحب رأي حينما كان يلزم الدولة بأن تبيح الحرية لأي نوع من الدراسات والبحوث ، ووقف في البرلمان يدافع عن حرية البحث العلمي حينما أراد الجميع أن يوقعوا الشر بالدكتور طه حسين ، ولكنه كان يناصر الدكتور طه حسين من ناحية الشكل لا من ناحية الموضوع ٠

فالعقاد لا يحب الموقف السلبي الذي اختطه طه حسين متأثرا بالمستشرقين في كتابه عن الأدب الجاهلي ٠ وهاجم العقاد نظريات طه حسين واستخدم كل قواه المنطقية في اثبات الحقائق التاريخية المتصلة بالبيئة الجاهلية ٠ وعاد العقاد يناقش طه حسين في نظرياته عن

أبي نواس وأبي العلاء المعري • وكان العقاد قد اكتسب أصالة ومرونة منطقية لا تبارى في مجال النزال الفكري •

ويشرح العقاد في بحث كامل عن المقالة النزالية أسلوبه ومنهجه في الدخول في المعارك الأدبية والفكرية ويكشف عن الأسرار والدقائق الخاصة بطريقته في المساجلة والنقاش ، وكان قد ألقى هذا البحث على طلاب معهد الصحافة في كلية الآداب سنة ١٩٤٧ ، وتبع القاء البحث استفسارات من جانب الطلاب والمستمعين واجابات من قبل العقاد على أصحاب الأسئلة • ولعل هذه الجلسة كانت من أمتع اللحظات التي تعرفنا فيها على العقاد الأديب المفكر لأنه فسر الكثير مما يتصل بأهم لحظات حياته •

والعقاد في الواقع لايحب الهجوم الا اذا وجد أن في الكلام المعروض خطرا على قيمة من القيم التي يؤمن هو نفسه بها • اذا شعر العقاد بأن ثمة أثرا سيئا لبعض كلمات أحد الكتاب فانه لايلبث أن يتعرض للموضوع في غير مواربة ، ولكنه لا يهاجم أحدا لمجرد الرغبة في التجريح • أما اذا هاجم العقاد أحد الكتاب أو النقاد فانه يدرس الأمر مليا ليعرف السبب الذي يدفعه الى النقد • يحاول أولا أن يتبين الجانب النظري الذي يصدر عنه الكاتب أو الناقد • فاذا كان المصدر ايمانه باليسارية كف عن الدخول مواجهة في نقاش معه ونظر في أصول المذاهب اليسارية ذاتها ليرى فيها ما يصلح للمناقشة بهذه المناسبة •

كان العقاد في مثل هذه المواقف يشن هجوما عنيفا على الأصول المذهبية التي يعتمد عليها هؤلاء المتهجمون ، ويكتفي بأن يبعث في قلوبهم الغيظ مرتين : المرة الأولى لعدم مواجهتهم بالرد المباشر ، والمرة الثانية بالاستمرار في حملته على الينابيع التي يستقون منها أفكارهم •

ومما يفسر نجاح العقاد في هذه المساجلات اعتداده الشديد بنفسه في أمثال تلك المواقف • فهو شديد الاعتزاز والايمان بنفسه كبير الأمل في مقدرته • وهذا واضح من قوله :

اني لأصغر أرضا ليس يعمرها
من الخلائق أندادي وأمثالي

وكذلك من قوله مخاطبا الجيبون في حديقة الحيوان :

فاملأ الأقفاص يا جيبون ظفرا أي ظفر
وقل العقاد لا يخطيء في تعريف قدر

وكان يعتقد أنه يستطيع أن يفعل أى شيء يريد أن يعمله · كان يقول فى مجلسه : « أنا اذا أردت أن أعمل شيئا فلا بد أن أحققه · اذا وضعت بين قدمى الكرة فلن يسلبها أحد منى حتى أضعها وضعا فى المرمى المقابل » · وكان يقول هذا وهو مقتنع بأن أحدا لا يستطيع أن ينازله فى مجال اللعب بكرة القدم ·

واذا اكتشف العقاد أن ناقده لم يصدر عن غرض معين ولم يهدف الى الايذاء والتجريح وانما عرض الموضوع عرضا أمينا صادقا فانه لا يلبث أن يرد عليه حاملا فى سطوره ما لا يخطر على البال من الأسانيد ونظريات التأييد وخواطر المنطق · ولكنه لم يكن يستطيع أن يتخلص بحال من روحه الساخرة · وكانت سخرياته هى التى تقض مضاجع خصومه ، وكانت هى السر فى جمال حملاته النقدية وحب الناس لها ·

ولا يعرف العقاد من لا يعرف مساجلاته سواء فى ميدان السياسة أو فى ميدان الأدب والفلسفة والشعر · ان المساجلة شيء أصيل فى قلبه وعقله ، وليس مصدر ذلك أنه بطبيعته يحب التجريح والايذاء · ان مصدره هو طبيعة العقاد فى حيويته وارادته وفى تحديه واقتحامه · وكان يميل الى اثبات براعته فى استخدام أسلوبه بالطريقة التى تبهر مستمعيه · واستخدامه للصور والأخيلة فى كلماته وعباراته النقدية تزيد من قدرته على البيان والتنفيذ ·

وقد اعتاد العقاد فى مقالاته النزالية أن يستوثق من أضعف الجوانب فى كلام الخصوم وأن يأخذ بتلابيب هذا الجانب دون الجوانب الأخرى ويظل فى تحليل هذا الجانب ومجاراة منطقه فى اشتقاق النتائج حتى يظهر كل ما يحمله هذا العنصر من الضعف ومن الحاجة الى التقويم· وقد أعان العقاد على السخرية من خصومه ما هو مطبوع عليه شخصيا من الملكة الفنية فى التعبير والتصوير ، ولكن الذى أعانه أكثر من ذلك هو فهمه الحقيقى لطبيعة النكتة والفكاهة · فكان هو نفسه من أكبر المتذوقين للنكتة والراوين لها ، وكان يبنى تقديره للفكاهة على فهم فلسفى حقيقى للضحك ·

كتب العقاد فى مارس عام ١٩٤٧ مقالا عن « فلسفة الضحك » يفيض بالتحليلات لتعريفه الذى انتهى اليه وهو أن الضحك منطق سريع · فكما وضع العقاد تعريفا فلسفيا لنظريته فى الجمال حين قال ان الجمال هو الحرية أضاف أيضا هذا التعريف للفكاهة بأن الضحك هو المنطق السريع · فهو يرى بعد عرضه لنظريات الفلاسفة فى تعريف الفكاهة أن

كل ما قالوه قد يفسر جانبا واحدا من جوانب الضحك ، ولكنه لا يفسر جميع جوانبه .

وقد بنى العقاد نظريته في أن الضحك منطق سريع على حقيقة هامة . فانفراد الانسان بملكة الضحك وملكة النطق يدل على ارتباط أحدهما بالآخر . اذا كان الانسان وحده قادرا على النطق وعلى الضحك من بين جميع الكائنات الحية فمعنى ذلك وجود ترابط بين الأمرين ، ورجوعهما الى خاصة واحدة وهي قوة الادراك والتصور العاطفي سواء كانت عاملة أو مستكنة تتهيأ للعمل .

واعتمادا على هذا قال العقاد أنه يظن أن النكتة تضحكنا لأنها تفضح الخلل وتهتك الدعوى الملفقة وتطلعنا على سخافة العقول التي لا يستقيم تفكيرها ولا تطرد حجتها . ومن ثم تكون النكتة هي المنطق الصحيح وهي الحجة المفحمة وهي البرهان الذي يرجح بالبراهين في معرض الجدل .

على هذا الأساس الفلسفي للفكاهة كان العقاد يملك زمام المواقف في اثارة الضحك حول أقوال الآخرين ومفهوماتهم . فاستقامت له القدرة على تفنيد آراء الخصوم في قوة لم يعرفها الفكر العربي مع اثارة الضحك في نفسية القارىء بغير عناء .

والواقع أن العقاد لم يكن في ندوته مجرد مفكر يروى لتلاميذه ومحبيه الآراء الفلسفية والنظريات الأدبية . لقد كان يجعلهم يضحكون أحيانا أوقاتا طويلة كأنهم حضروا اليه خصيصا ليشفوا لواعج صدورهم بما يرويه عليهم من النكات . كان يدفع الجميع الى الضحك العميق بغير عناء . وكان يعابث تلاميذه الصغار ويتفكه معهم ويقابل شقاواتهم في معاكسته بنفس الروح المرحة المحبة للسرور واللهو وبنفس الرغبة في المداعبة والفكاهة .

والذين كانوا لا يعرفون العقاد شخصيا لم يكونوا يتصورون ملكاته الحقيقية . وكان العقاد ذكيا في نكاته كما كان ذكيا في جميع تصوراته . ومن بين آماله التي لم يحققها تأليف كتاب كامل عن خادمه أحمد حمزه الذي كان مصدرا لمواقف مضحكة لا تنتهى .

ويخطىء كل من يتخيل العقاد مفكرا جامدا عابسا على نحو ما كان يحلو لبعض الناس أن يصوروه . فروح الفكاهة لا تنفصل اطلاقا عن مقدرته على التفكير والكتابة . واذا شئنا أن نفسر ملكة العقاد في النزال والمساجلة حقا فيمكننا أن نقول ان براعة العقاد في الفكاهة وولعه

بالضحك هو الذى كان يكمن غالبا وراء مناوشاته فى عالم الأدب والفكر - أن السر الحقيقى لمشاجرات العقاد هو ولعه بالضحك · ليس مرجع النزال الفكرى شراسته أو قسوته أو خشونة أسلوبه وحبه للقتال · أبدا ·· أبدا ·· كان السبب الحقيقى لكل مناقشاته الحادة هو ميل دفين الى الضحك والاضحاك · فكانت المساجلات بمثابة الأرض التى يمرن عليها قواه الساخرة ·

وكانت هذه الرغبة من قبل العقاد قوية الى درجة أنها كادت تتحول الى نوع من الاستهتار لولا احترامه العميق لعمله الفكرى ولولا احساسه الأصيل بالمسئولية حيال مجالات العلم والأدب · وكما قلنا فى أول هذا الكلام أن العقاد الذى لم يذاكر الفصول العلمية من أجل الدخول فى الامتحانات لم يشعر قط بامتهان لأبواب المعرفة · لقد ظلت المعارف العلمية ذات مكانة قدسية فى ذهنه ولم يفسد هذا الشعور عنده ابتذال المعرفة فى التهيؤ للامتحانات أو الدخول فى الاختبارات على نحو يفقدها هيبتها ·

وكما لم يشعر العقاد بابتذال المعرفة حينما تصبح وسائل يراد منها المرور بالامتحانات لم يشعر كذلك بالرهبة أمام ثقافة الغرب وعظمائه · ولذلك تجده قادرا على مواجهة أعنف النظريات وأخطرها فى نوع من الاستخفاف ، وبغير التهيب الذى يلقاها به الكثيرون · ولهذا وجد العقاد سهولة كبيرة فى معالجة المشاكل المتصلة بالمقارنات بين فكر الشرق وفكر الغرب · ولم ينخذل العقاد فى الدفاع عن شخصيات العروبة أمام مفكرى الغرب وأبطاله وزعمائه · ووضع رجالنا فى مصاف أكبر رجالات الغرب. ولم يجد أى حرج فى الموازنة بين حضارة الاسلام وحضارة الغرب أو بين فلاسفة الشرق وحكمائه وأنبيائه وشعرائه وبين أمثالهم عند الغربيين والأوربيين على وجه الخصوص ·

وقد وضع العقاد الخطوط الأولية لتقدير الحضارة العربية القديمة فى كتابه عن أثر العرب فى الحضارة الأوربية · لقد وضع الأصول لتقديرها على النحو الصحيح فقال : « ان قوة التفكير تقاس بالقدرة على فهم ما يبتكره الآخرون كما تقاس بالقدرة على ابتكاره · فلا نتهم أمة بالعجز عن التفكير اذا استطاعت أن تفهم مبتكرات الفكر فى أمة أخرى، وشعرت بالحاجة الى فهمها وخلقت لها جوا تروج فيه وتشغل به أذهان أبنائها · وبخاصة اذا علمنا أن الابتكار المحض لم يكتب قط لأمة من الأمم · ولم يعهد قط فى ثقافة قومية أنها كانت محض ابتكار خلا من كل استعارة واقتباس » ·

وتعصب العقاد نفسه مدافعا عن كل ما يمس فكر العرب وحضارتهم . ولو لم يكتسب العقاد طبيعيته فى التشييع من العمل فى الدعاية الحزبية والصحافة الوطنية لما استطاع أن يؤازر حركات الثقافة العربية بهذه الجرأة والحماسة النادرتين . واستفاد من قدرته المنطقية على التحليل والتفنيد والتأييد فى مساندة المواقف الخاصة بحضارة العرب وفلسفتهم وعلومهم ونهضاتهم .

وكان هذا التعصب فى مؤازرة الفكر العربى ومظاهره هو مصدر الجمال فى أسلوب العقاد وحرارته فى الكتابة والشرح .. ولكن مع ذلك يمكن أن نقول أن السر الحقيقى يكمن فيما يضفيه العقاد على عباراته من الشاعرية .. وكان نصيب العقاد من الشاعرية كبيرا حتى بلغت به مبلغ التصوف ولم يكن العقاد ينكر تصوفه ونزوعه الى عالم الروح . وحكى لنا أنه تمثل فى عقله عالم الروح وتطلع بذهنه مرات معدودة الى عالم بلا نهاية .. وقال انه اكتشف الدنيا المحجوبة خلف هذا العالم المادى ، وأن ملكوت السماء يراه المرء فى هذه اللمحات كما لو كان عالما متكاملا بغير جزئيات .

تطلع العقاد الى عالم الروح ثلاث أو أربع مرات . هكذا روى لنا العقاد وقال انه شاهد الأشياء وقد التحمت فى صور كلية بحيث تغيب الجزئيات فى لمحات قصيرة .

ولكن هذا لا يعنى أن العقاد كان متدينا على نحو ما اعتدنا تدين الناس واعتقادهم فى الاسلام . لقد كان العقاد مثلا عميق الايمان بالله ولكنه لا يرى فى هذا ما يوجب عليه قبول سخافات الحياة . وقال مرة : أيوه يا مولانا .. ان الله موجود ولكن ليس معنى هذا أن يكبس على أنفاسنا .. اذا شاء أن يريحنا بالموت فى ثوان فلا مانع ولكننا لا نحتمل أن يضغط على أرواحنا بهذا الشكل » .

وكان فى مرضه الأخير معتقدا تمام الاعتقاد أن الله يمتحن صلابته ومراسه .. ولذلك كان يبدو فى لحظاته الأخيرة مرحا شديد الثقة بنفسه كمن يلعب مباراة سيقوم بعدها وقد أثبت صبره وجلده .

وكان يشعر بأن علاقته بالله لا ينبغى أن تشوبها شائبة ولا أن يتوسط بينه وبين الله وسيط . ولذلك كان يرى فى المرض مداعبة من قبل رب الوجود . وفى السنوات ١٩٤٥ ، ١٩٤٦ فى أثناء انهماكه فى تأليف كتابه عن « الله » كان يروى لنا أنه كثيرا ما يصاب بمغص أو بعض التوعك فينظر الى السماء يناجى الله قائلا : « على كيفك ... انك

تعطل قواى التى وجهتها هـذه الأيام فى الدفاع عنـك • ألعلك لا تريد منى التوقف عن الدعوة لك ؟ على كل حال هذا موضـوعك الذى تعوقنى بالمرض عن المضى فيـه • اذا لم تـكن تريد أن نعمـل من أجلك فأنت وخاطرك » •

وشعر دائما بأن الشدائد هى علامة من قبل الله يشير اليـه فيها بأنه حتمى الوجود وأن هـذه الدقائق العنيفة التى يمر بهـا شأنها الى زوال لا محالة • فالمحن عند العقاد علامات الهية يرى فيها استجلاء لروحه وقواه وتعزيزا لصبره والهامه • ولذلك يصطدم كل من يعرف العقاد حديثا بأنه يعامل الله معاملة خاصة كما لو كان بينهما شـأن لا يشابه ما بين الله والناس جميعا • تحس فى كلمات العقاد أنه معتاد الكلام مع الله وأنه يزيل ما بينهما من الكلفة فى كل خطراته •

ولا عجب أن استطاع العقاد مرات عـدة أن يتكهن بأحداث قريبة الوقوع وكأنه يشتم فى الجو رائحة تلك الأحداث • وقد تـكرر ذلك فى حياته حتى صار يشعر بأنه ملهم بما لا يجرى فى حدود الزمان والمكان• ولهذا لم يكن العقاد يستبعد أى مظهر من مظاهر الحياة الروحية ولم يكن يرى مانعا فى حدوث مظاهر الاحساس على البعد (التليباثى) أو مظاهر الكهانة بما يقع بعد أعوام • وصار العقاد مؤمنا بأن العـلم لا يفسر كل شىء ولن يلم بكل أسرار الموجودات •

لماذا خرج على الوفد سنة ١٩٣٦ ؟ وكيف أمكنه أن ينفـذ خروجه على حزب الوفد حين ذاك وهو لا يملك درهما يقيه مغبة العيش ؟ وكيف قال حينئذ للنحاس رئيس الوفد : انه كاتب الشرق بالحق الالهى •

ولم يكن العقاد يمزح حين استخدم هذا التعبير • فقد كان جادا فى شعوره بمهمته ازاء الأحداث الجارية • كان شديد الاحساس بأن رسالته فى عالم الفكر لا يمكن أن تكون عبثا • أن اشتغاله بالفكر تعبير عن رعاية الهية ولا يمكن أن يصـدر عن أقدار عادية • ومن رأى العقـاد لم يكن يسـتطيع أن يراه رجلا عاديا • كان فذا ونادر المثـال فى عالم الفـكر والروح • وكل من رآه لم يكن يستطيع أن يخفى فى قلبه احساسا غريبا بأن هذا الرجل أقوى من أن يكون مجرد انسان •• أى انسان •

فى بيتى

ألف العقاد هذا الكتاب متبنيا نفسه أسلوب الجدل الأفلاطونى يتبعا فيه الطريقة السقراطية فى الحوار . ويجب أن ننظر الى الكتاب نفسه على ضوء هذه الرغبة العقادية . فدلالة هذا المنهج السقراطى كبيرة فيما يتعلق بالأحلام الكبيرة والبواعث القوية التى كانت تراوده عند تأليف الكتاب . لعله كان يمنى نفسه بجمهورية جديدة على نحو جمهورية أفلاطون . ولعله كان يريد أن يعالج جملة من المشكلات التى شغلت ذهنه فى ذلك الحين . ولعله اتخذ هذه الصورة الأدبية فى الحوار تخفيفا لخاطره من صعوبة استعراض جملة موضوعات كتابه بغير استناد الى طرف آخر يستثيره ويصغى اليه ويضع على لسانه ما يبدو له أنه يجول بأذهان من يحاورونه عادة من الشباب . كان العقاد يفترض أسئلة صاحبه بينه وبين نفسه كصدى لاستفسارات معارفه وأصدقائه وتلاميذه هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كانت هذه الأسئلة معبرة عن الاحتمالات المعارضة لأفكاره وآرائه . ولعلها من هذه الناحية الثانية تمثل صراعا داخليا فى نفسية العقاد بين الرأى ونقيضه . أو لعلها تمثل طريقة العقاد فى تقليب الموضوع من جوانبه المختلفة من أجل الوصول الى ما يعتقد أنه الحق . لذلك نعتقد أن الكتاب يصور ناحية هامة فى العقاد وهى ناحية النقاش والتردد والمعارضة الداخلية .

ولكنك لا تكاد تنظر فى شخصية هذا الصاحب التى تتكون من

جملة أوصاف العقاد له أثناء حواره معه حتى تلمس شيئا هاما • ان أوصاف العقاد لشخصية هذا الصاحب مستمدة من احساسه بنفسية من يسألونه من الأصدقاء والمعارف والمحاورين عادة • كان العقاد لا يجيب الناس فى ندوته وفى نقاشه بالاماكن العامة والمجالس بطريقة آلية • انما كان العقاد ينفذ بسرعة وذكاء الى نفسية المتسائل ليدرك نياته وليعرف أسلوبه فى التفكير من سؤاله وكان يلمح على وجه السائل علامات نفسية تعبر عن أحاسيسه حيال ما يلقيه اليه العقاد من كلام • ولهذا كان العقاد غالبا ما يختط أسلوبا معينا فى رده واجابته وفقا للموقف ذاته • فيبدو العقاد أحيانا عنيدا متمردا ويبدو مرة أخرى رفيقا حليما ويبدو مرة ثالثة بسيطا سيابا • ولكنه كان يبدو أحيانا فى اجاباته على بعض الناس حدبا عطوفا ومليئا بالرغبة فى الادهاش حين يكتشف فى شخصية محدثه سلامة الطوية التى ترتاع وتبتهج لمظهر العلم والمعرفة الكثيرة الفياضة • وهنا كان يمتزج حبه فى اظهار آرائه عادة بطرف من الغرور وبميل الى الابتكار والاتيان بالجديد •

لهذا أحببت أن أترك العقاد جانبا قليلا لأكتشف طبيعة الصاحب المحاور • فقد نقع من هذه الناحية على أشياء وجوانب معبرة عن التقاء العقاد بالآخرين ويفوتنا باهمالها ركن هام من الاركان التى تمثل حياة العقاد بين سطور هذا الكتاب •

فهذا الصاحب المحاور يأتى بأسئلته عادة لايجاد نبرة فى الكلام وللوقوف عند بعض المعانى والالحاح فى اظهارها • ولهذا تعبر أسئلته عن البساطة والاقتناع السريع بالحجة المعروضة • وهذا مقصود طبعا حتى تتوافر للعقاد مناسبة لنقض الآراء التى يتقبلها الناس ببساطة عادة فى حياتهم •

قال صاحبه المحاور : على كل حال لا أستطيع الشك فى المادة وهى تحيط بى وتصدنى وتصدمنى اذا أنا غالطت نفسى •

فيجيب العقاد : بل فى المادة تستطيع أن تشك وتفرط فى الشك قبل أن تواتيك دواعى الشك فى عالم الروح • هذه الكثافة المادية لا شىء يا صاحبى لولا القوة التى تكمن فى أطوائها •• وان شئت مصداقا لذلك فافرض أن يدك التى تقف عند هذه الخشبة قد زادت قوتها ألف ضعف أو عشرة آلاف • ثم عد الى لمس الخشبة بتلك القوة المضاعفة فهل تقف عندها ؟•• كلا •• انها لا تقف عندها بل تعبرها كما تعبر الماء أو كما تعبر الهواء •

ويعرض العقاد رأيه في موقف النازية والفاشية والشيوعية من مشكلة الفقر والحلول التي تقدمت بها • وكثيرا ما اعتاد العقاد أن يعرض رأيه في هذه المسائل وأن يلمح بوادر الشك في نفوس سامعيه • لذلك يسقط شعوره ذاك على صاحبه المحاور فيقول :

" وشك صاحبي غير قليل ثم تمتم كأنه يسأل نفسه : أو ليست هي بشارة علمية كما يقول كارل ماركس وأتباعه حين يميزون بين دعوات الاصلاح التي يسمونها بالدعوة العلمية ؟ انهم يزعمون أنهم قدروا عواقبها وقاسوا مراحلها كما يفعل الفلكي حين يرصد مدار السيارات ويحسب مواعيد الشروق والغروب وساعات الكسوف والخسوف •

قلت : هذه هي الخرافة التي لا ينبغي أن نصدقها أيها الرفيق • فليس أقدم في هذا العالم الانساني من الدعوة الى انصاف الضعفاء ولا من الوعد بأمنية النعيم المقيم ولا من اثارة النفوس على الشيطان الرجيم ولا من تثبيت العقائد بالحماسة والكفاح •• وهذه الدعوة التي يزعمونها علمية هي تبشير لايعوزه شبح الشيطان ولا الفردوس ولا العقيدة العمياء•وغاية الفرق بينها وبين سابقاتها أن الشيطان هنا هو الرأسمالية التي ترجع اليها جميع الخبائث والشرور ، وان الفردوس هو العصر الموعود الذي يسود فيه الصعاليك ، وأن حماسة العقيدة هنا هي حماسة المعدات والاحقاد • وليس أكذب ممن يزعم أنه يخاطب العقل وهو يخاطب المعدة ويخاطب الحسد والحفيظة • فلا اقناع هنا ولا اقناع في غير هذا من ضروب الحماسة والبغضاء • وليس الاقناع بالمعدة بعد الاقناع بالروح تقدما نغبط عليه •

فقال صاحبي : أليست الثورة الروسية بعد الحرب العالمية الماضية كانت على كل حال كهانة من هذه الكهانات العلمية •

فبادرته قائلا : بل حماك الله وحمانا أن نغتر بهذه اللجاجة التي أوضع فيها بعض الفارغين ممن لايعقلون مايقولون "•

ففي أمثال هذه المواقف تكون أسئلة صاحبه المتحاور تكئات من أجل الضغط والالحاح على بعض الزوايا التي أحب العقاد ابرازها وتفنيدها • ولذلك فشخصية المحاور سليمة الطوية الا فيما يعتريها من بعض الشك ومن الرغبة في التسليم بالمأخوذ به من الرأى المكرور المعاد ، ولكنه يعود فيكشف عن معالم أخرى غير هذه في شخصيته حين يقول : وكانت في صاحبي على ما يظهر عادة كثير من الناس ، بل عادة

أكثر الناس : وهى أنهم يكرهون المرض الـــذى جربوه ، ولا يكرهون المرض الذى لم يجـربوه حتى يجربوه فيســـمعون ذم الذمم الذى يقض مضاجعهم ويعرضون عن ذم السرطان وهو بعيد منهم •

ويعود الى وصفه فيقول : وكان صاحبى من أولئك الذين يعلقون أحكامهم على الخطأ حتى يتبين لهم وجه الصواب ، وكانه لا يعرف أن هذا الوجه دميم الا اذا عرف أن ذلك الوجه وسيم ، ولا يصدق أن هذا العلاج قاتل الا اذا صدق أن ذلك الدواء محقق الشفاء • فشك طويلا بعد ماسمع من مساوى الشيوعية والنازية •

ويضيف الى صفاته صفة أخرى حين يقول عنه : وكان على ديدن الكثيرين يرى أن هذا البحث فيما وراء الطبيعة من الوقت الضائع أو فضول القول • فسألنى وهو يتحرج قليلا : ما فائدة هذا كله ؟ الا يمكن أن يعيش الانسان على هذه الأرض وهو فى غنى عن هذه الفلسفة التى يسمونها سر الوجود ؟

وأردت ألا أتخلف عنه فى جرأة الرأى فقلت : بل هى آخر شيء يستغنى عنه الانسان •

وهنا نلمح عادة العقاد فى التجاوب مع الحديث وفقا لموقف السائل الذى كان يستشفه عادة من وراء نظراته وأسلوبه فى الاستفهام • وذلك واضح من قوله : وأردت ألا أتخلف عنه فى جرأة الرأى • أى أنه شاء أن يصدمه بالذهاب الى أبعد الأشواط فى نقيض ذلك الرأى ثم يفرض على بديهته أن تسعفه بالحجج والبراهين المؤيدة لميله المفاجيء فى الاثبات والتأكيد • كان العقاد يزج بنفسه فى الاتجاه الذى ينشأ كصدى للرأى الذى يسمعه ثم يطلب الى عقله أن يبرر منحاه وأن يؤكد وثبته • ومن هنا كانت فى الغالب معظم ابتكارات العقاد فى انتزاع الأفكار • وكأنما كل على ثقة من أن منطقه سيسعفه وقت اللزوم •

ويصف العقاد محاوره مرة أخرى فيقول : كان صاحبى من الذين يتحرجون ولا يمنعهم تحرجهم أن يسمعوا وجهات الأنظار •

من كل هذه الأوصاف التى ذكرها العقاد لصاحبيه المحاور لانلمح شخصية واضحة المعالم لأنه لم يفترض فى هذه الشخصية أكثر من الملامح التى اعتاد أن يلتقطها من وجوه السائلين والمستفسرين الذين قابلوه فى حياته • فمن هؤلاء من كان ينكر رأيه أو يغضى على غير اقتناع • ومنهم من كان يحاوره لمجرد ايجاد مناسبة للحديث فيما بينهما ، وقد عكس العقاد

على محاوره جملة التفاتاته الى سائليه فى أثناء النقـاش كما ساق على لسانه نقط الاتكاء أو نقط الاستزادة من الايضاح حتى أصبح الكتاب سلسا شائقا فى مستطاع كل قارىء أن ينهيه فى سويعات .

وقد ضمن العقاد كتابه فى بيتى معظم نظراته فى الحياة والأدب والفلسفة وجعله بمثابة استجلاء سريع لمواقفه وآرائه . ولكن هـذه الآراء هى أخطر ما سجله يراع العقاد واختار لها نسقا حواريا ينبىء أولا بأهميتها وثانيا بضرورة معالجتها على المستوى الشعبى العادى . وأهم من ذلك أنه جعل بيته مدار أفكار كتابه فى بيتى . وقد يخطر على بال الانسان حين ذاك أن يتساءل : كيف يوحى البيت بكل ذلك وهو المكان الذى يعيش فيه المرء حتى لا يكاد يستغرب فيه شيئا ؟ بل ولا يقوى على أن يستوحى منه طرفا غير أطراف الحياة اليومية العادية ؟

وهنا يكتشف العقاد طبيعة المنهج الظاهرى فى النظر الى الحقائق حتى يستلهم معنى الجدة فى كل ما يراه داخل بيته ، وحتى يتمكن من رؤيته بعين الغريب المتملى فى ظواهر الأشياء . يقول العقاد لمحاوره : « هل خطر لك قط أن تسأل نفسك : كيف تبده الكتب الكثيرة ــ مجتمعة فى مكان واحد ــ من يدخل عليها لأول مرة ؟ كيف يقع ألف كتاب أو عشرة آلاف كتاب موقعها ممن يفجأ بهـا ويعرف ما هى وان لم يعرف معناها ؟ اننا فى هذه الحضارة قد تعودنا منظر الكتب مجتمعات بالمئات والألوف . ولكننا خلقاء أن نتجرد من فعل العادة ولو لحظة عابرة لننظر الى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها . فكيف تبدهنا رؤية الكتب لمئات من أصحاب القرائح والعقول محشورة فى بضـعة رفوف ؟ اننى لا أسأل أولئك القراء والدارسين الذين ألفوا عشرة الكتب بالليل والنهار . ان هؤلاء ينظرون الى كتبهـم كما ينظر المهندس الى الأزرار التى فى لوحته وقد ينطلق كل زر منها بما يحرك مدينة بأسرها . ولكنهم يملكون زمامهم أو زمام تلك المرئيات وهم يحسون بها . وكلهم يحضرون معها ما ألفوه وتعودوه وكرروه قد يغيب عنهم فيها جانب المفاجأة والغرابة . ولكننى أحب من حين الى حين أن أستغرب ما آلف وأن آلف ما أستغرب . ويثير هذا الشوق فى خاطرى أن أشهد وقع هذه الغرابة مرتجلا فى بعض النفوس ولاسيما النفوس التى تقاربه الكتب من بعيد . فانما تختلف الأشياء عندنا بما يقترن بها من تداعى الخواطر وما توحيه من اللوازم والملابسات .

هذا من جهة الشبه بينه وبين هوسرل .

ولكننا لن نعدم مواقف شبيهة بمواقف ليبنتس أيضا • فقد كان ليبنتس ينظر الى الميتافيزيقا كما لو كانت علم الدين الطبيعى • لذلك وصف مذهبه الميتافيزيقى بأنه لا يتعارض مع عقائد المسيحية • وكانت معظم شروحه الفلسفية تدعيما لمبادئ الكاثوليكية • وعاب عليه الشباب انسياقه وراء أفكار حكام عصره • ولكن « ليبنتس » كان على يقين من أنه لو صاغ فلسفته صياغة منطقية بحتة لما أمكن الناس العاديين متابعتها • وليس من شك فى ذهاب العقاد هذا المذهب •

قال صاحبى : وهل وصلت قط من فلسفة حياتك الى شىء ؟

قلت : نعم • ان الله موجود •

قال : باسم الفلسفة تتكلم أو باسم الدين ؟

قلت : باسم الفلسفة أتكلم الآن • والفلسفة تعلمنا أن العدم معدوم فالموجود موجود • موجود بلا أول ولا آخر • لأنك لاتستطيع أن تقول : كان العدم قبله أو يكون العدم بعده ! وموجود بلا نقص لأن النقص يعترى الوجود من جانب عدم ولا عدم هناك •• موجود بلا بداية ولا نهاية ولا نقص ولا قصور •• والوجود الكامل الأمثل هو الله •

وعبر رسل فى كلامه عن فلسفة ليبنتس عن احساسه بانقسامها الى فلسفتين • الجيدة هى تلك التى تستند الى المنطق والسوقية هى التى تعتمد على ما وراء الطبيعة • ولكن السيدة روث سو عارضت هذا التقسيم فى كتابها عن ليبنتس وأشارت الى أن ليبنتس لم يحب اطلاقا فصل المنطق عن الميتافيزيقا • وكان ليبنتس يجنح الى الاعتقاد بمساندة كل من المنطق والميتافيزيقا للآخر • وما كان ليرغب فى عرض التعبيرات الانسانية لو لم يؤمن بأن صياغة هذه التعبيرات ملائمة لكل ما يجب أن يقال عن العالم •

ورأى العقاد كما ورد فى كتاب فى بيتى مطابق لهذا الرأى • قال العقاد : اننا قادرون أن نقول فى أمان : ان المنطق والحياة لا يفترقان ! وان الآفة فيمن لا يفهمون المنطق أنهم لا يحسونه وفيمن لا يحسون الحياة أنهم لايفهمونها • فمامن شىء فى هذه الحياة يناقض المنطق بحال • فان فهمناه فهو مفسر بأسبابه ومقدماته وان لم نفهمه فليس لنا أن نناقض بينه وبين المنطق أو القياس • فانما الاحساس القويم هو الفارق الوحيد بين المنطق القوى والمنطق الضعيف • وانما الخطأ فى المنطق خطأ فى الاحساس بالأمور على حقائقها النفسية •

فهو لا يضع أى فواصل بين منطق الوجود وحكمة الوجود .

وبعد أن يسجل العقـــاد هذه النظرات المنهجية يخطو الى لبـاب المشاكل . فيرى أولا أن سر النقائض وراء مظاهر الطبيعة المتعارضة هو الاستزادة من الحياة . فالرغبة الاصيلة لدى الانسان ولدى الكائنات هى حب التوسع واستقصاء آماد الحيـــاة . وبنى على هذا السر مبدأه فى تفضيل الشعر على القصـة فى الادب وبنى عليه تفضيله للمذاهب التى تقر حرية الفرد على المذاهب التى تعطلها . وأوغل العقـاد فى استخدام نظرته تلك حتى فضل المذهب الذى يحيى مبادىء العيش السديد مع الخطأ على المذهب الذى يعدمها اعداما لا يفتح مجالا للخطأ أو للصواب .

وعقد مقارنة بين الشيوعية ورأس المال قائلا : « ان جشع المستغلين شر ، ولكن الشيوعية ليست بخير وأن رأس المال محنة للاخلاق ، ولكن الشيوعية محو للاخلاق لا تقوم لها فيها قائمة . ولو انتظمت للعـــالم حكومة واحدة تسوس أعماله وتقرر منها المفيد وغير المفيد لكان هذا هو البلاء فوق كل بلاء . لان هذه الحكومة قد تشل دوافع الحياة فى النفوس وهى تزعم انها تقتلع منها الحماقة والغرور . ولو اننا رجعنا الى تواريخ بنى الانســان لننزع منهـا آثار الحماقة والغـرور كلها لانتزعنا نصف الحضارة الانسانية وذهب النصف الآخر بذهابه كما يذهب البيت كله اذا انهار نصف الجدران ! » .

ويرى العقاد ثانيا أن التاريخ لم يستقم قط فى اتجاه واحد كمـا استقام فى اتجاه الحرية الفردية ، أو فى اتجــاه النهوض بالتبعة . وكذلك الاخلاق .

ويسجل العقاد ثالثا أن الطريق الوحيد لعلاج المشكلات الاجتماعية والاقتصادية هو التعاون .. التعاون بين الامم كبارها وصغـارها وبين الطبقات غنيها وفقيرها وبين السلطـــات وبين الافراد . ان المالك الذى يؤخذ منه معظم ربحه ضريبة للدولة انما هو موظف فى ملكها لا يتقاضى من الربح أكبر من أجر الوكيل المؤتمن على مصلحة غيره ، وكأنما ملكت الدولة مرافق البلاد كلها ولم تحرم المالكين ذلك الحـــافز الفردى الذى يحث المرء على العمل لغيره كأنه يعمل لنفسه ولأبنائه .

ومما يذكر أن العقاد لم يكن شبيها بأفلاطون فى تأليف كتابه فى بيتى وحسب وانما شابهه أيضـــا حين دعاه صديقه النقراشى فى فترة توليه الوزارة سنة ١٩٤٧ من أجل تطبيق نظريته التعـاونية على نحو

ما دعا ديونيسيوس افلاطون الى سيرافوسة لتطبيق جمهوريته . فكان العقاد صاحب نظرية الضرائب التصاعدية وتحديد الملكية وتوزيع الاراضى التى بدأت فى كفر سعد وتقوية الجيش على الرغم من يستخبط الملك وعمله الدائب على تعطيل كل المشروعات ووقوفه منها موقف المساوم . فقد اشترط حين ذاك أن يؤلف العقاد كتابا ، وزاره فى بيته بمصر الجديدة مرات لهذا الغرض . فأخذ العقاد يسوف مع فاروق ويمهله على أمل كسب المشروعات لصالح الشعب حتى غضب العقاد غضبته التى انهال بعدها على فاروق تجريحا وسببا لمراوغته فى تطبيق أى اصلاح من اصلاحاته . وهنا تطورت العلاقات بينهما الى عداء سافر . وكان العقاد يقول لنا فى ندوته حين ذاك ان وصفه لفاروق فى المقالتين اللتين كتبهما عنه بالملك المصلح المحب لخير شعبه لم يكن الا بقصد تشجيعه على الاصلاح وايهامه بأنه طيب عطوف وتقييده بهذه الصفات . ومن الملاحظ أن هاتين المقالتين لم يحتويا على أكثر من سرد مشاكل متصلة بالحياة العامة يعرج فيهما عند نهايتهما على وصفه بخصلتين أو ثلاث تلزمه بأن يتصرف على ضوئها فى سلوكه الشخصى . ولكن لم يلبث العقاد ان يئس من قبوله لأى مبدأ اصلاحى وكمن فى قلبه الغيظ المرير . وانتهى الأمر بتأليفه كتابه الخطير عن ١١ يوليه وضرب الاسكندرية الذى ظهر قبل حدوث ثورة ١٩٥٢ بأيام معدودة . وجاء الكتاب مليئا بالامثلة والشواهد على فساد الاسرة المالكة وعلى أنه لا يرجى على يديها أى اصلاح فضلا عما كان لها من أيد بيضاء على نشر الفساد وممالأة الاستعمار وارهاق الشعب واثقاله بالمصائب والأدواء .

ونعود الى آراء العقاد فى كتابه فى بيتى فنراه يؤكد وجود الله باسم الفلسفة . ونراه يؤكد أن التناقض ضرورة من ضرورات تكييف الوجود المتميز . ويفسر الشرور فى الوجود على أساس أن حياة الفرد ليست نهاية النهايات وليست المقياس لما كان وما سيكون . وقد يتعذب الانسان فى طلب الكمال وهو راض وقد يرفض النعمة فرارا من النقص وهو لا يخشى العقاب .

ويتساءل العقاد على لسان صاحبه المحاور : ولكن ما غناء الفنون الجميلة فى عصرنا هذا عصر العلوم والصناعات ؟ ويجيب بقوله : ان الذى نحسبه من الكماليات هو الكمال الذى تتفاضل به منازل الناس . والامة بغير تعبير أمة مهزولة أو مشرفة على الموت . وكذلك تكون الامم التى خلت من الفنون . لان الفنون هى تعبير الامم عن الحياة . ولكنه

ينكر على الفن السيريالي الحافه في استيحاء الوعي الباطن واساءته في التعبير عنه ويشير الى أن الوعي الباطن كان دائما موجودا قبل تسميته باسمه • وادعاء الارتكان اليه من أجل تشويه المشاهد والوجوه بالبقع والخطوط والاصباغ في غير وضوح هو ادعاء لا سلامة فيه • فقد وجد الفن في الدنيا لأن النفوس تمتلىء بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال فلا تقنع به شعورا بل تطلبه حسا منظورا • ولا تشاء أن نظل فيها حاسة من حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثاله • ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيم •

أما عن الموسيقى فلعلنا نقترب الى الانصاف ـ كما يقول العقاد ـ وندنو من التحقيق حين نقسم الموسيقى الى نهجين يختلفان باختلاف الذوق والبديهة ولا نقسمها الى اقليمين جغرافيين بين أناس في الشرق وأناس في الغرب أو أناس في الشمال وأناس في الجنوب •

فهناك موسيقى الحس المحدود وهي التي تؤدي لنا وظيفة الجارية والنديم وتسلينا بأنغام الفرح حين نفرح وأنغام الشجن حين ننوح •

وهناك موسيقى الروح وهي التي تخاطبنا من منبر الالهام وشرفات الغيب وتجلس لنا مجلس المفسرين والهداة وتقول لنا ما يعجز عنه الكلام لأن الألحان لا تقصر عن وصف الأسرار حين تقصر عنها المعاني والحروف •

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس الحي التي تطربنا وتشجونا كما يختلج الطرب والشجو بالجسم القوي الصحيح •

ولدينا من جهة أخرى موسيقى الحس المريض التي تطرب من تطرب وتشجو من تشجو كأنها السم المخدر أو الشهوة السقيمة التي تترهل بها الاجسام في مخادع اللذات •

فأما الموسيقى التي لا غنى فيها عن مرانة الآذان والأذواق فهي تلك الموسيقى العالية التي نتمنى لنا نصيبا منها كنصيب الاوربيين أو أوفى من ذلك النصيب • فان الصفة الاولى التي لا تنفصل من الموسيقى والغناء هي صفة الانسجام والتناسب بين الاصوات •

والممثل القدير على المسرح هو الممثل الذي يمثل لك ما لا يقال أو هو الممثل الذي يشغل فراغ القول بين عبارة وعبارة من كلمات المؤلفين • لان مصاحبة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين • وانما يعسر عليهم أن يمثلوا لك

مالا يقـــال بين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا لك ما ندركه انت ولا يقوله المؤلف بلسانه ولا تسمعه أنت بأذنيك ٠

وبعد فهذه هي خلاصة الآراء التي عرضهـــا العقاد فى كتابه فى بيتى ٠ وقد كان هذا الكتاب يوم تأليفه حدثا ضخما فى حياتنا الفكرية والادبية لاستعراضه جملة مشاكل الحياة والفنون والاقتصاد والسياسة والاذواق ٠ وكانت آراؤه محاولة جريئة فى مجتمـــع متخلف ٠ وهى لا تزال ذات أهمية بالغة في المقاييس التى وضعتها للاستحسان وعدم الاستحسان فى مجالات المعرفة والثقافة الحية وفي مجالات المشـــاكل الاجتماعية وأنظمة الحكم ٠ وأحدثت هذه الآراء دويا بعيد المدى في أعماق فكرنا وجذور مفهوماتنا ٠ وكانت هذه أول مرة يحدد فيها كاتب عربى جملة مواقفه من الحيـــاة والوجود ومن العبقرية وأســـاليب الاستطعام والتذوق فى نظام المعيشة اليـــومية ٠ وعبرت عن أدب نام متطور مع الحياة البيئية نفسها وعن فكر ملاصق لكل دروب المعاش على أرضنا ٠ قال صاحبى : أو لا يجوز للفنان أن يتعصب لوطنه ؟ قلت : بلى يجوز ٠ بل يجب فى كثير من الاحيان ٠ ولكن على أن يصدق البيان ولا يتكفل بتشويه الحقيقة ، لأن الفن جمال ، والجمال عدو لكل تشويه ٠

الاشياء والشخوص فى حياة العقاد

العقاد فيلسوف المعاني والدلالات .. العقـــاد حكيم الوازع الخلقي والباعث النفسي .. العقـــاد أديب الجوهر والاعماق .. هذا العقاد عاش على سطوح الاشياء وتحسس مواقع الظاهرات. وتلمس جذر الموجودات وتفنن فى استعادة الاشباح وأرواح الرجال وتماثيل الابطال .

ونظر العقاد الى كل مظاهر الحياة والكائنات من حوله كأنها ماثلة فى صور من المعالم والشكول والشخوص . وكأن الاشباح والارواح كانت تملأ أصونة الكتب ورفوفها . قال فى كتابه «فى بيتى» (ص ٢٠-٢٢) : « والتفت صاحبى الى الرفوف يتصفح عناوينها ويسألنى : ألا يزعجك بعض الاحيان أن تخلع على الكتب هذه الصورة وأن تراها حاضرة الارواح جياشة الحركة بحياة مؤلفيها ؟

قلت : أنا لا أراها الا على هذه الصورة كلما أعرضت عن صورتها الممثلة فى الجلود والاوراق : أرواح فى انتظار الطلسم أو مردة فى قماقم سليمان . وأين برج بابل من لهجات رف واحد ها هنا لو تحركت له ألسنة وتفتحت له أفواه ؟ وأين الجحيم كلها لو انبعثت المردة من أرصادها وتمردت على الطلسم الأعظم الذى يحبسها فى قماقمها ؟

« فهذا يا صاحبى مارد يحملنا الى قطب الشمال وبجانبه مارد مثله يحملنا الى قطب الجنوب ! وها هنا مارد ثالث يتعدى بنا أقطاب الارض الى الشعرى اليمانية وما وراء السديم ·· لا ياصاحبى يرحمك الله ·· لا نهاية لانطلاق هذه المردة فى مداها فرادى ولا مجتمعات · فدعها فى قماقمها وانظر اليها ومعك أرصادها » ·

وتجسمت كل لحظة من لحظات فكره ووجوده فى التصاوير والمرئيات والمحسوسات · كأنما يستكنه أقصى آماد الحقيقة من أبسط مظاهر الحياة · وكأنما يستشعر جلال الكون بأسره فى سلوك الحيوان والحشرات ·

قال العقاد فى كتابه « فى بيتى » (ص ١١٨) : « فان عادة عندى ـ بل أقوى من عادة ـ أن أشعر بوحدة الخلق كله وأن أنظر الى جميع الاحياء كأنها تجربة واحدة تنجلى عن مقصد واحد · واننا ربما فهمنا مقصد التجربة من مسوداتها الاولى قبل أن نفهمه من النسخة المنقحة المصقولة ·· وان كانت النسخة المنقحة المصقولة أجود فى التعبير وأفصح فى الأداء ·

« وما قرأت قط خرافات الاقدمين عن وشائج الاحياء الا خيل الى أنها تنطوى على أكثر من خرافة أو لعبة خيال · وتساءلت قبل نيف وثلاثين سنة (صدر كتاب فى بيتى فى أغسطس ١٩٤٥) عن مغزى تلك الاساطير التى تحكى عن أناس لهم أجسام آدميين ووجوه كلاب · أو مغزى تلك التماثيل التى تجمع بين أجسام الوحوش ورؤوس الآدميين · فقلت فى كتاب الفصول « ما مغزى هذا الاجماع والتواتر ؟ وماذا فى طى هذا الاعتقاد بأن الانسان يتحول أحيانا من هيئته الى هيئة حيوان أدنا منه · أو أن فى عالم الحياة مخلوقا بعضه انسان وبعضه حيوان ؟ هذا شعور لم يرد الينا من ناحية الحواس ولكنا لا نجهله · وصحيح أن الخيال مفطور على مزج أشكال الحس والباس الموجودات لباس الانسانية· ولكن لماذا فطر الخيال على ذلك ؟ أكان يستحيل أن يفطر على غير هذه الفطرة ؟ وهل لو خلق الانسان من غير عنصره المعروف كان يتخيل هذا الخيال بعينه ؟ الا يجوز أن يكون مغزى هذا الاجماع والتواتر أن فى جبلة الانسان شعورا راسخا بوحدة الخلق وتلاحم سلسلة المخلوقات ·· شعورا أعمق من الفكر ·· لا بل أعمق من الخيال نفسه · يتكلم باللسان فيكنى ويلفق ويتكلم بالبديهة فيصرح ويصدق ؟

ولماذا ننفى وجود شعور كهذا يصل الانسان على وجه ما بشىء من

أسرار الحياة مع علمنا أن الانسان قد اتصل بالحياة قبل أن يصله بها عقله وحواسه ؟

« أليس ترجيح وجود هذا الشعور أولى وأحرى بقدم العلاقة بين الاحياء والطبيعة ؟ فلايبلغن من قصور العقل ألا يصدق الا بالعقل وحده. ولا يبلغن من ضيق النظر أن نقسر حواس النفس كلها على أن تنمو نمو الحواس الخمس . كأن الانسان لا يتصل بالدنيا الا بها . وكأنما الخيال ليس جزءا من الانسان كما هي جزء منه .. »

كانت للعقاد نظرة يلقيها فتفهم منها أى شيء وكل شيء . ولاندرى ما كانت تحمله هذه النظرة اليه . كانت له مشية تحسبه فيها لا اباليا عاتيا وتدور في قلبه وخاطره فى أثنائها كل لمحـــات التأمل والتخيل والاستبطان . حمل العقاد فى باطنه معانى الاشياء وأقدار الشـــخوص وعاش يتلفت كما يتلفت المصور الذى يبحث عن نموذج من اللون والحجم والشكل والطابع والمثال . عاش يحس بدقات قلبه كأنهـــا ربان الزمن ويستشعر وجود أبسط الكائنات كأسلوب فى الوجود وطريقة فى الأداء وكنهج يكشف عن السر الدفين الذى طالما تمنى الوصول اليه والتحقق منه . عاش العقاد يبحث عن ذلك السر ويظن أنه ها هنا ماثل فى كل شكل ومرأى وفى كل لمحة وملمس وفى كل استجابة لأســاليب التفنن واللعب الذى تقوم به الطبيعة داخل اطار الموجودات .

والاحساس عند العقاد شيء عميق يبلغ مبلغ العقل فى أبعـــاده وأعماقه . ومن عرف العقاد عن قرب أدرك أن العقاد فيلسوف يفطن الى المحسوس قدر فطنته الى أعلى مراتب التأمل الوجدانى والسمو العقلى . وجاء على لسان العقاد فى كتابه «فى بيتى» (ص ٦٣) : « ان المعرفة قد تنال من اقرار الجسد كما تنال من انكاره وقد تنجم من الاقبـال على الدنيا كما تنجم من الاعراض عنها . »

والعقاد فرق فى التصوير بين مذاهب الاقدمين ومذاهب الاحساسيين المحدثين على أساس اختلاف النظرة بين اســـتخدام الحس المباشر وبين استخدام العلم بالاشياء . قال العقاد (ص ٧٣) فى كتابه «فى بيتى» : لقد كان الأساتذة الأقدمون يصورون ما يعلمون ويحسبون . فجاء من بعدهم أساتذة المدرسة « الاحساســـية » ليصوروا ما يحســـون وما يشهدون .

«كان الاستاذ القديم يعلم وهو يصور الشجرة ان لها غصونا وأوراقا

فيصورها ذات غصون وأوراق مفروزة كما يعلمها • وان كان يراها من حيث يجلس لتصويرها لونا أخضر لاتنفصل ورقة فيه عن سائر الاوراق•

«وكان الاستاذ القديم يحسب الظل سوادا لانه نقيض البياض وان كان ليضرب أحيانا الى لون البنفسج أو الرماد •

« فجاء الاحساسيون فأصلحوا هذا وذاك وكان لهم الفضل والتوفيق في هذا الابتداء •

« كان الاقدمون يصورون ما يعلمون ويحسبون وكان الاحساسيون الصادقون يصورون ما يحسون ويشهدون » •

وهو يؤمن بعد هذا أن للحس رسالة لا تقل أهمية عن رســـالة العقل والتجريد • وفطن العقاد الى أن الاحساسيين صححوا قيم المرئيات حين اتجهوا مباشرة الى المحسوس يستوحونه استيحاء فعليا ، كذلك فطن العقاد الى أن التطور الى المعنويات ذاته يقتضى المرور بالاشياء واستلهامها فترة طويلة حتى تصبح قادرة على انارة السبيل الى الدلالات والمهايا • فاكتشاف التعبير الخاص لا يتأتى الا بعد استلهام التعبير العـــام أمدا طويلا • واستكناه البواعث والنيات لا يتيسر الا اذا عرفنا اســـتخدام البصر والبصيرة •

يقول العقاد مرة أخرى في كتابه «في بيتي» (ص ٦٧) : « فاذا الفن أيضا مظهر لبروز الفرد الانساني من الغمار الشامل الى مكان التخصيص والتمييز • فالتمثال القديم نموذج للشكل والقالب والقوام يتساوى فيه كل ذي خلق سوى من الناس ولكنه شـــامل عـام لا تتميز فيه الملامح والتعبيرات ولا يتمثل فيه التخصص والانفراد • ثم تتعاقب صور الافراد بروزا وتباينا حتى ينسى الناظر اليها النماذج الشاملة ويتناولها بالتقسيم والتفصيل •

« ويظهر هذا في تماثيل العصور الاغريقية لأنهم صدقوا وصف الطبيعة وصدقوا الشعور بها على السواء •• وكانهم حين يمثلون الأبطال الأقدمين يمثلون عناوين شتى لكل نموذج من نماذج البطولة يصنع على غراره قالب باق وتتعدد منه أنماط متكررات » •

فالعقاد يرى أن النظرة الحســية تحتــاج الى مران ودربة من أجل الوصول الى مرتبة التخصيص والتمييز • وهو يرى أن الاحساسيين جددوا النظر الى كل شيء • وقد لمحت فرانسواز ساجان خاطرة من هذا القبيل

في مسرحيتها الأخيرة عن « السعادة والانفراد والعبور » (ص ١١٦) حين قالت على لسان فلاديمير بطل المسرحية ردا على سؤال : « هل وقعت في شراك الحب ؟ فأجاب : نعم في المصيدة نفسها التي نصبتها ٠٠ ولكننا لا نتقي الحب بأن نكتفي بأدائه ومباشرته : فذاك أمر سـهل ٠ ان المرء ينتهي حينئذ باكتشاف الوجه ٠ هذا غريب ٠ لقد اعتقدت اني مستقل منفرد ٠ وهأنذا فريسـة للحب ٠٠ المشتعل ٠٠ الأبله » ٠ فالانسان يكتشف وجه الحبيب أي يقع على التعبير الذي يخصه حين يخالطه ويعاشره في المحبة والائتلاف ٠ كأن فرانسواز ساجان تقول ان المرء **يقع في شراك الحب المعنوي عن طريق الائتلاف الحسي** ٠ ان الفة الأشياء وتمثل الشخوص هو الذي ينهض بالمرء الى اكتشاف ما تعكسه من معان ودلالات ٠ هكذا فعل العقاد مع اللغة ، وهكذا فعل مع التصوير الشعري ، وهكذا فعل في استقاء نماذج الجمال والحرية ، وهكذا شعر بأقدار العباقرة والنابغين ، وهكذا برزت مشاعره حول ذلك كله في أجمل رسوم وأبهى ملامح وحلل وخيالات ٠

والتمثيل أيضا عند العقاد محاولة لاستخلاص ما لا يقال فيما يقال واكتشاف حركة الخاطر والشعور بين براثن الحركة الحسية في المواقف والمشاهد ٠ يقول العقاد في كتاب « في بيتي » (ص ٩٩) : « قال : كيف ترى صديقك الفنان قد مثلك في هذه الأصباغ والألوان ؟ » قلت : على شرطي في كل تمثيل » ٠

« وشرطي في الممثل القدير – على المسرح – انه هو الممثل الذي يمثل لك ما لا يقال ٠ أو هو الممثل الذي يشغل فراغ القول بين عبارة وعبارة من كلمات المؤلفين ٠ لأن مصاحبة الكلمة الضاحكة بالمنظر الضاحك أو مصاحبة الكلمة الباكية بالمنظر المحزن فن لا يعسر على الكثيرين ٠ وانما يعسر عليهم أن يمثلوا لك ما لا يقال بين الكلمتين أو بين المنظرين : يصعب عليهم أن يمثلوا له ما تدركه أنت ولا يقوله المؤلف بلسانه ، ولا تسمعه أنت بأذنيك ٠

« وكذلك أرى صورتي كما صورها صديقنا الأستاذ (صلاح طاهر) لأنه يمثل القابليات قبل تمثيل الملامح والمحسوسات ٠ فليس في الصورة حالة محسوسة عني بهـا دون غيرهـا ٠ ولكن ما من حـالة قد تطرأ على النفس الا نظرت الى الصورة فرأيتها قابلة لها موافقة للتعبير عنها ٠ وهذه هي ملكة الايحاء التي تشترط في جميع الفنون ٠ فما تحبسه الكلمات

والأصباغ من المعانى أو الملامح أقل فى العمل الفنى مما ينطلق به الخيال أو يسترسل فيه تداعى الخواطر والأفكار » ٠

والواقع أن ها هنا ملاحظتين : احداهما خاصة بالمسرح والأخرى خاصة بالتصوير ٠ أما ملاحظته عن المسرح فتتفق مع ملاحظة « ألبير كامو » حين قال ان الممثل يؤدى بجسده وكيانه دورا معنويا عضويا داخل اطار المنظر فوق دور المشاهد والمواقف المحسوسة والعبارات المتداولة ٠ ثانيا يضيف ملاحظته عن التصوير قائلا ان التقاط التعبيرات هو مجال الخصب الحقيقى فى الأداء التشكيلى ٠ لكن نقل المحسوسات فى درجات متساوية ضرورة لا محيص عنها من أجل الانتقال الى ملامح النفس والفكر ٠

والعقاد يشعر بأن أزمتنا الحقيقية هى أزمة الاحســـاس والخيال لا أزمة العلم والمعرفة العقلية ٠ جاء فى كتاب « فى بيتى » (ص ٨٥) :

« زعمونا ــ أو زعمنا لأنفسنا نحن الشرقيين ــ أننا خياليون واننا لو أصبحنا واقعيين لنفضنا عنا غبار الخمول ٠ والحق الذى لا مرية فيه عندى أننا واقعيون فاشلون فى الواقعيات ٠ فليست قصور ألف ليلة وليلة ولاحسانها وجواهرها وموائد طعامها وشرابها خيالا يحتاج الى ملكة من ملكات التصور والادراك ٠ ولكنها كلها واقع ناقص أو واقع موقوف التنفيذ ٠ فاذا حصل التنفيذ حصـــل الواقع الذى يلمس ويرى ويشم ويذاق ٠

« واليوم الذى نتخيل فيه فنحسن التخيل هو اليوم الذى ننفض فيه غبار الخمول ٠ لأننا نحس الوعى بهذا التخيل ونطبع الصورة الصادقة فى بداهتنا من صور الوجود ٠ ولن تنطبع فى النفس صورة صادقة لما حولها وهى راكدة قاعدة أو عازفة عن الحركة والسعى والاستجابة لتحول الأحوال ٠

« فكن على رأيى أو رأى غيرى فى الحفاوة بالشعر والشعراء ٠ ولكن لا تجعل الشعراء مقياسك الذى تقيس به قدرة العمل ٠ لأنهم يتفرغون للتعبير فيفوتهم التفرغ لما عداه من الشئون ٠ واتخذ مقياسك من الامم العاملة القائلة تجد أن الشعر الاصيل والعمل الاصيل يرجعان معا الى مقياس فرد : وهو الوعى الأصيل » ٠

ففى الفترة التى ظهرت فيها دعوات الى اليقظة الواقعية كان العقاد يدعو الى يقظة الحس والشعور والتخيل ٠ كان الكثيرون يرون أن من دواعى تقدمنا فى كل مظاهرنا المعيشية أن نتحول الى قوم يقدرون الواقع

حق قدره • وكان العقاد يحسب أن قدرتنا على التخيل الأصيل الواعى هى مناط التقدم فى بلادنا •

« وقيمة الصـــورة ـ هكذا يقول العقـاد فى كتاب « فى بيتى » (ص ١١٥) ـ ان تاريخ الفن كله بل تاريخ العبادة من أوائله مرتبط بالباعث على تمثيلها فى هذه الرموز •

« فقد وجد الفن فى الدنيا لأن النفوس تمتلىء بالشعور وتشتغل به كل الاشتغال • فلا تقنع به شعورا بل تطلبه حسا منظورا • ولا تشاء أن تظل فيها حاسة من حواسها فارغة منه غير مملوءة بمثاله • ومن هنا نشأ التصوير ونشأ التجسيم » •

وجعل العقاد من رسالته توجيه الأذواق الى هذه الوجهـة وخص شعر ابن الرومى بجانب كبير من اهتمـامه لابراز هذا الجانب الذى لم يتعرف عليه النقاد أو جمهور العارفين بالآداب والفنون • قال العقاد فى كتاب « فى بيتى » (ص ١٢٠) : « ضل معظم النقاد فى أمر ابن الرومى لأنه من طراز غير الطراز الذى يقيسون عليه • فهو عندى ـ بغير خلجة من الشك ـ وحيد شعراء العالم من مشرقه الى مغربه ومن قديمه الى حديثه فى ملكة « الوعى والتصوير » •• وهى أنفس الملكات التى يرزقها رجال الفنون • فلا يناظره فيها فحل من فحول التشبيه والتصـوير • ومثل واحد يغنى عن مئات الأمثال وهو وصـفه لحقل الكتـان حيث يقول فى بيتين اثنين :

وجلس من الكتـان أخضر ناعم
توسـنه دانى الربـاب مطير
اذا اطردت فيه الشمال تتابعت
ذوائبـه حتى يقـال غـدير

« فالواعية الفنية وحدها هى التى تغـريه بوصف حقل من حقـول الكتان التى مرت بألف شاعر منذ الخليقـة ولم يلتفتوا اليها • لأن حقـل الكتان لا يحسب من موضوعات الوصف التقليدية بين شعراء التقليد • فليس هو بروضة من رياض الورد والياسمين • وليس هو بسـتانا من بساتين الفاكهة والثمرات • ولا هو بمنزه من منازه الحسـان أو موعد من مواعد الغرام • فانظر كيف علق هذا المنظر بوعيه اللاقط المستوعب وكيف أحصى عليه كل ما يحصيه التصـوير فى شرط النقـد الحديث بعد طول المشاهدة والمراجعة لآيات الأساتذة من نوابغ التصوير •• واذكر كيف

صنع ذلك بداهة وابتداعا غير عامد ولا منتبه ٠ وهم يتعمدون مايسجلون من ملاحظات النقد ويتنبهون اليه ٠

« فالنقد الحديث يشترط على المصور النافذ البصر والبصيرة أن يستوعب المنظر فلا يفوته اللون ولا الملمس ولا الزمان ولا جو المكان ولا الحركة التى تشيع فيه ان كانت فيه حركة أو السكون الذى يشمله ان كان به سكون ٠

« وكل أولئك تجده فى البيتين الاثنين مطبوعا منقولا اليك نقل البداهة عن تلك الواعية المستوعبة التى لا تفوتها مدركة من مدركات الحس والخيال : لمح اخضرار اللون ونعومة الملمس وأحاط بوقت الصورة كما مثلت أمامه فهو وقت الوسن ٠ وأحاط بجو المكان فهو المكان الذى يطل عليه رباب مسف فويق الأرض يؤذن بالمطر القريب ٠ وأحاط بالحركة وبمصدرها من ريح الشمال فاذا رءوس الشجر تموج بالحركة الذاهبة الآيبة فكأنها صفحة غدير ٠ لا موضع لنقص فى الصورة ولا محل فيها لزيادة٠ وليس أصدق من الوعى الذى أحسن اللقط وأحسن التمثيل فى لمحة عين وفى بيتين اثنين » ٠

وقد أبرز العقاد هذا الجانب فى شخصية ابن الرومى ابرازا طيبا يتناسب مع رغبته فى شيوع هذه الطبيعة لدي الشعراء جميعا ٠ بل كان العقاد يضرب المثل بابن الرومى وأمله أن يستوفز كل الشعراء المحدثين لبلوغ هذه المرتبة ٠ قال العقاد (ص ٢٠٣ من كتاب : ابن الرومى ــ حياته من شعره) : « وذوق الجمال وتداعي الخواطر كانا فى ابن الرومى على أدق وأيقظ ما يكونان فى انسان ٠ كانت له عين خاطفة تلتهم الألوان والأشكال التهام الجائع المنهوم الذى لا يشبع ٠ وقد عرفنا أمثلة من ذلك فى دقة تشبيهاته واحكام صوره وغرابة التفاته الى مواقع للنظر لا يلتفت اليها شاعر غيره ٠ وسنعرف اضعاف ذلك عند الكلام على عبقريته وفنه وأسلوبه فى تناول الحس وتصويره » ٠

ويعود العقاد فيقول (ابن الرومى ص ٢٨٠) : « وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومى ولاحظها من الذكاء والتوفز بأوفر من حظ غيرها ٠ فان الرجل كان يسمع ويشم ويذوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور ٠ فلا تقصر حاسة من حواسه عن أختها ولا تشكو احداهن كلالا أو فتورا فى حصتها من التمييز والشعور ٠

وهو القائل فى وصف مغنية :

مد فى شأو صوتها نفس كاف كانفاس عاشقيها مديد
وأرق الدلال والغنج منه وبراه الشجا فكاد يبيد
فتراه يموت طورا ويحيا مستلذ بسيطه والنشيد
فيه وشى وفيه حلى من النغم مصوغ يختال فيه القصيد

« فكأنه قد بلغ فى تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للأنغام ألوانا وزخارف وأوشية تكاد تنطبع فى صفحة الخيال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها فى قرارة الوجدان . وهو لا يدع لك أن تشرح أو تستخلص ما تقرؤه من كلامه حتى يقول لك بالعبارة الصريحة انه يصل بين الرؤية والسماع ويترجم بين الحاستين فينقل الى لغة العيون ما تضمنته لغة الآذان » .

وعلى نحو ما تنبه العقاد الى جوانب الحس والمشاهدة والشخوص فى طبيعة ابن الرومى الفنية أحب أن يبتعث الحياة من جديد فى أبى العلاء المعرى حتى يجول ويصول فى عالمنا المعاصر بفكره القديم وبأقواله المحفوظة . لم يكن العقاد يعالج موضوعا ما على نحو ما عالجه سواه . ولم يخط فى الأدب الا بأساليب جديدة ومبتكرة . وكان يبدع المنهج فى الكتابة عن الشخص أو المذهب مستوحيا أصوله ومستمدا خطوطه من طبيعة الشخص ذاته ومن روحه وملكاته .

وليس غريبا أن يدعو العقاد أبا العلاء صاحب رسالة الغفران من حظيرة الخلود الى شهود ذكراه عند اقامة تابوت فى المعرة على قبره احتفالا بانقضاء ألف سنة هجرية على وفاة الشيخ أو على مولده كما يرجح العقاد . فهذا من طبيعة العقاد فى استحياء الأشخاص فى عقله وذهنه ومن أنسب الوسائل لتنمية حياته بين أشباحهم التى خالطها فى كل لحظاته . وهو كذلك ملائم لشخص أبى العلاء الذى جسم حياة الفردوس فى شخوص ماثلة . وكانت ملاحظة العقاد مماشية لرغبته فى التجديد من جهة ولميله الى النظر فيما يفعله المعرى لو وجد على الأرض ذاتها فى غير زمانه من جهة أخرى ولاستحداث الاسلوب الذى يتجاوب مع نظرته الى الأشياء والشخوص من جهة ثالثة .

وعندما دعى المعرى الى شهود ذكراه كان الأمد لا يزال فسيحا بينه وبين شهود ذلك اليوم . ومن ثم كان فى الوقت متسع لرحلة علائية حول الكرة الأرضية . وفى هذه الرحلة يرى أبو العلاء ما يعنى العقاد ان يراه ويقول ما ينبغى أن يقول أو يقول العقاد على لسانه ما يشبه ما كان

يقوله في زمنه قياسا على ما صنع هو في السماء حين حدثنا في رسالة الغفران بلسان الأدباء والشعراء وجعل لهم من كلامهم وأخبارهم دليلا له في كلامه وأخباره ٠

فكتب العقاد رجعة أبي العلاء عارضا فيها حوادث الدنيا كما تتمثل لأبي العلاء ولمن ينظرون الى أمور العصر الحاضر مثل نظرته في سائر الأمور ٠ وقد أتي لذلك بصفوة الآراء التي توافقه وتستخلص من جملة تفكيره ٠ وأقام لأبي العلاء تمثالا حسيا كاملا في جميع ملامحه وقسماته٠ ولكنه تمثال أسقط العقاد على كتفيه بكل ما كان يود قوله في حكام عصره وعيوب زمنه ٠

وهذه في الواقع وسيلة العقاد الى الابتكار الأدبي المحض والى تاليف ما يراه لازما بغير سورة المسئولين والحكام ٠ وقد ابتدع هذا الأسلوب في مجمع الأحياء وفي قصيدة ترجمة شيطان وفي محادثته على صفحات كتابه في بيتي ٠ وكان ايمان العقاد بضرورة الاقتراب من الظواهر والمرئيات والشخوص والكائنات الحية قويا الى أن انتزع من قلبه كل تقليد وكل حرص على الصقل والرونق في صياغة العبارات ٠ وآمن العقاد بالرمزية وضرورتها في الأدب بشرط ألا تتعدى نطاق الحس الظاهر. فالأدب لا يستغني عن الوحي والاشارة كما يقول العقاد (المدرسة الرمزية ــ الرسالة القديمة عدد رقم ٦١٥ في ١٦ من أبريل عام ١٩٤٥) وأبلغ الفن ما يجمع الكثير في القليل ويطلق الذهن من وراء الظواهر القريبة الى المعاني البعيدة التي تومىء اليها الالفاظ ولا تحتويها بجملتها الا على سبيل التنبيه والتقريب ٠ ولكن هذه المدرسة غلت وتمادت في الغلو كما يقول العقاد ٠ وبعد أن كان الرمزيون لا يتجاوزون في دعوتهم التذكير بوجود الأسرار والمعاني التي توحي اليها اصبحوا ينكرون الحس الظاهر وينكرون الحواس وعملها ولا يدينون بشيء غير ما يسمونه رموز الوعي الباطن وأحاجيه ٠

فالرمزية سليمة في حدودها الأولى وهي حدود الاعتراف بالخفايا والأسرار ولكنها دعوة مريضة عوجاء حين تنكر الوضوح لأنه وضوح وكفى وتشيد بالتعمية لأنها تعمية وكفى ٠ وميزان الصدق في هذا المذهب وفقا لرأى العقاد أن يكون الرمز ضرورة لا اختيار فيها ٠ فأنت تفصح حتى يعيبك الافصاح فتعمد الى الرمز والايحاء لتقريب المعنى البعيد لا لابعاد المعنى القريب ٠ والأصل في الابانة عن الذهن أو النفس أن يحاول المبين جهده توضيح معناه حتى تعييه العبارة فيلجأ الى الاشارة ٠

وقد عاش العقاد هذه التجربة طويلا • وعرف على الدوام ان الرمز اختصار لعبارة مفهومة أو صورة ظاهرة • فالرمز كما يقول العقاد شيء مالوف في تعبير الانسان وفي طبيعة الانسان ولكنه مالوف على حالة واحدة وهي حالة الاضطرار والعجز عن الافصاح • والشاعر لا يعاب اذا مثل لنا الكواكب والأزهار فالبسها ثياب الأحياء • ومن ضاق به اللفظ فعمد الى التخييل والتشبيه فالناس لا يحسبونه من هذه المدرسة أو تلك • لأن المدرسة التي يصدر عنها في هذه الحالة هي مدرسة البديهة الانسانية حيث كان الانسان وبأي لغة من اللغات الغز أو ابان .

وفحوى ذلك كما يقول العقاد (المدرسة الرمزية ــ مجلة الكتاب القديمة ــ دار المعارف ص ٣٦٢) أنه لا حاجة الى مدرسة لتعليم الناس كيف يرمزون ويكنون حين ينبغي الرمز وتنبغي الكناية • والحياة تنطوي على كثير من الدقائق والأسرار والعالم نفسه نور وظلام وجهر وخفاء • ويفاجئنا هذا العالم بمعان لا تترجم عنها الألفاظ ولا غنى فيها عن الاشارة والاستعارة أو عن تمثيل الظل والحجاب بالحجاب .

وعندما توفى بول فاليرى لم يفت العقاد أن يسجل رأيه في جملة من المشاكل (الرسالة القديمة العدد ٦٤١ فى ١٥ من اكتوبر سنة ١٩٤٥) المتصلة بصميم صناعة الشعر والفن • واورد تعريف بول فاليرى للانسان كما ورد في بحثه الشائق عن الانســـان الاوربي • وقد بدأه ــ هكذا يقول العقاد ــ بكلمة عن الانسان عامة قال فيها : « انه هو المخلوق الذى ينفرد بين سائر المخلوقات ويعلو على سائر المخلوقات بالاحلام • وانه أبدا مصروف عما هو كائن بما لم يكن بعد أو بما يرجو أن يكون • وأن الخلائق الأخرى تطيع التغيير الذى يطرأ عليها من خارجها • وهو وحده يطوع تلك العوامل المتغيرة بما توحيه اليه بواطنه وخفاياه » •

واذا عرف بول فاليرى الشعر قال : « انه ينبغي أن يكون عيدا للذهن و لاينبغي أن يكون شيئا غير ذلك » ولكنه يعود فيقول : « عيد أى فرح • ولكنه رصين ولكنه مرتب ولكنه ذو مغزى • أو هو صورة لغير هذه المطروقات الشائعة أو صورة للحالات والمساعي التي تقبل الانتظام والاتزان •• »

ويضيف العقاد هنا اضافة أعتقد أنها من أهم ما أشير اليه في مجال الأدب • وأظن انها التفاتة عميقة في صناعة الشعر عندما يتنازع الانسان عامل التلقائية الرحبة من جهة وعامل الصنعة الضرورية من جهة أخرى •

يقول العقاد عن بول فاليرى انه لا يستثنى من القاعدة السالفة الشعر الغنائى الذى هو أدنى أبواب الشعر الى الطلاقة والجموح • فهو عنده هتفة ولكنها متطورة أو مشغولة بصناعة الفنان •

وهذا تأييد لضرورة أثبتها دائما في بحث صناعة الشعر • فقد بينت مدى الحاجة الى درس أعمق أعماق الصناعة الفنية من أجل ابتكار أبسط الهتفات واللمحات التى تظهر فى أعين الناس طبيعية تلقائية •

وعلى هدى هذا المعيار فصل العقاد بين الغناء وبين الموسيقى فى نطاقها الواسع • فالموسيقى تشمل الغناء بلا خوف • (العقاد : التربية الموسيقية • عدد مارس سنة ١٩٥٠ من مجلة الكتاب ـ دار المعارف) الا أن الغناء موسيقى حسية يشاركنا فيها كل ذى احساس من الحيوان • ولا يرتقى الغناء الى مرتبة الموسيقى العليا الا اذا اتسعت فيه علاقة الحس بعلاقة التعبير وترجم للانسان عن خوالج السريرة وخواطر الروح ومحاسن الطبيعة التى تعلو على متناول الاحياء المعبرة عن حسن الغريزة وحدها بما تغنيه •

والفارق بين الغناء الساذج والموسيقى المركبة انما هو الفارق فى مجال واحد : وهو مجال التعبير عن الروح والضمير • وموسيقى التعبير هى التى نعنيها ونرجحها • فلا خطر على انسان ولا على مجتمع يعبر عن وجدانه بالكلام ويعبر عنه بالألحان والأنغام •

والعقاد يستشعر هذه الحقيقة فى كل ما يراه ويسمعه ويدخل فى نطاق حسه ووعيه • ويقيم موازناته على هذا الأساس نفسه فى مستويات عدة• فكل حى يستطيع أن يشعر بشوكة الوردة لأن الشعور بها لايحتاج لى أكثر من جلد وأعصاب • هذا الشعور القريب لا يتطلب أكثر من لحس ذاته • ولكن الجلد والأعصاب لا تكفى للشعور بجمال الوردة ونضرتها ومعانى الصباحة والحسن التى تتراءى بهـا للعيون والأذواق وتتمثل بها فى عالم الخيال •

وكل حى يستطيع أن يرى ظواهر الاشياء وأن يسمع ظواهر الأصوات • فاذا دخل هذا الحى دار الآثار أو دار الفنون الموسيقية رأى وسمع كل ما يرى بالعيون ويسمع بالآذان • ولم يجد فيما رآه أو سمعه مدعاة الى السرور أو مدعاة الى تكرار الزيارة باختياره •

ولكن اذا ملك من أدوات النفس حاسة فوق حاستى البصر والسمع

ـ وهى حاسة الذوق ـ عرف مواضع الفرح فيما رآه وسمعه • ونظر فى دار الآثار الى جمال الصناعة ودلالة المعانى التاريخية الخالدة وسمع فى دار الفنون الموسيقية آيات التعبير المتسق وأسرار العاطفة الخفية التى تترجم عن نفسها بلغة الألحان •

كل انسان يستطيع أن يجد فى تمثال المرمر وسيلة الى الألم لأنه يحصل على الألم بصدمة في الرأس والقدم • ولكنه لا يحصل على السرور الذى يوحى به التمثال الا اذا أدرك محاسن الفنون وتهيأت له أدوات الذوق والمعرفة وعمق البديهة وسمو الخيال •

ويجلس العقاد على شاطىء الاسكندرية فيلحظ فتاة تمضى بملابس البحر على الرمال فى محاذاة الماء فينبض قلبه بعين الاحساس ويشعر على التو بأنه حيال كنز هائل من الحسن والجمال • يشعر بأنه أمام ثروة لمن أحب الغنى • بيد أنها ثروة عند من يحسب موارده بحساب الحياة • وكل ما تتقاضاك من جهد بضع نظرات •

والغريب فى هذه الجميلة الفاتنة التى لحظها أن العين لا تحس أنها أدركتها لأنها اذا أدركتها تأملت فيها وسرحت فى معانيها . فاذا هى بعيد بعيد • أبعد من الفراش الذى يقع عليه الطفل فاذا هو على الغصن• ويثب اليه فى غصنه فاذا هو فى الهواء •

والجسم الجميل هو الجسم الذى لا فضول فيه • وهو الجسم الذى تراه فيخيل اليك ان كل عضو فيه يحمل نفسه غير محمول على سواه • من هنا جمال الرأس الطامح والجيد المشرئب والصدر البارز والخصر المرهف المشوق والردف الماثل والساق التى يبدو لك من خفتها وانطلاقها واستوائها انها لا تحمل شيئا من الاشياء ولا تنهض بعبء من الأعباء • بل من هنا جمال الحيوان الأعجم وجمال المهر الكريم وقد اختال بعنقه وشال بذنبه وضمر بدنه وأصبح فى جملته كالكلام المختصر المفيد أو الكلام المختصر البليغ لأنه يبلغ حيث يشاء •

فانما الحياة هنا هى مقاييس التقويم والتقدير • وما من شىء فى هذا العالم الا ومرجع تقويمه الى حظه من الحياة • ان دل هذا على شىء فانما يدل على أن الشعور هو وحدة التقويم والتسويم فى كل ما نملك وما نريد وان الذين يشبعون من الحياة هم أغنى الناس وأعظم أصحاب الثراء وان لم يعرف لهم اسم فى خزانات المصارف ودفاتر الشركات .

انت يا بنية ذخيرة فى الحياة •

انت يابنية كنز من الفتنة والحب والمتعة واللذائذ والآمال والأشجان والأحلام •

والرجل الذى يقفز من القاهرة الى الاسكندرية فى ساعة واحدة لا يلتفت بعد ذلك الى امرأة تزن القناطير المقنطرة من الشحم واللحم ليعجب منها فى مشيتها بجمل المحمل والتختروان •

والرجل الذى يصعد الى السماء لا يصبر على حمل الجبال فالملائكة وحدها هى التى تحسن الصعود الى تلك الآفاق •

وهكذا — هكذا يقول العقاد — تعلمنا الآلات أحيانا كيف نشعر وكيف نتذوق الجمال وكيف نصحح الأذواق •

وهكذا — هكذا أقول — كانت كل مثالية العقاد مستمدة من أعماق الحس والتجربة •

فلســـفة العقاد

- ١ -

هناك شيء هام يلاحظه كل من يقبل على تاريخ الفكر العربي المعاصر أو على تسجيل الأطوار الفلسفية ببلادنا وهو أن تاريخ المذاهب مجهول ان لم يكن معدوما .

فقد ظهر ولا شك مشتغلون بالفكر تابعوا عبارات وتحليلات مما ورد في تفصيلات كتب الفلسفة بالعصور الوسـطى الاسـلامية . كان هناك رجال في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يواصلون الجهود الفكرية التي بزغت في الأصول القديمة . وتجلت مقدرتهم في الحواشي التي وضعوها على المتون وفي التعليقات على الفكر الأساسية لفلاسفة الاسلام وعلمائه . ولكن هذه الكتابات كانت بطبيعة الحال بعيدة عن أن تسمى فلسفة . انها تحمل المصطلحات الفلسفية والكلامية وتعمد الى تفسيرات وشروح لهـا طابع التفنيد للمعتقدات والنحل . ولكنها لا تتعدى نطاقا محـــدودا من دروس المنطق والجدل .

وعلى ما في ذلك كله من مظاهر التفلسف والبحث المنطقي فانهـــا لا تخضع لمقومات التتابع والتطور للفكر في مظاهره العالمية . ليست هناك خيوط تربط هذه الفلسفات ربطا وثيقا بما انتهى اليه أعلام الحضـــارات

وأصحاب المبادىء • ولهذا نشعر بأن فلسفة الجمهورية العربية كانت حتى أول هذا القرن الذى نعيش فيه مجموعة من الجهود العقلية الانفرادية أو مجموعة من ملامح النشاط العقلي المصبوغ بالقدرة على التفنيد المنطقي دون اعتبار للتيارات العامة في البلاد الأخرى • وباختصار يمكن أن نقول عن هذه الجهود انها عمليات طحن عقلي خالية من التبويب المذهبى المتكامل •

وهى ، مع ما فيها من جهد وقوة ، لا تستقيم كفلسفة • فالفلسفة تمضى فى شريط ضيق مبدؤه فلسفة اليونان وحدوده استخدام المنطق والعقل استخداما يتناسب مع أسلوب الفكر وتاريخ الفلسفة فى استنباط القيم والتعبير عن روح العصر • أما منتهاه فهو الوضع المعاصر للفلسفة ممثلة فى التحليلات الوجودية والبراجماتيكية والتناسلية والظاهرية بوصفها أرفع مؤديات التطور العقلى مع المحافظة على طريقة الفلاسفة ومناهجهم فى مواجهة الاشكالات •

فالمفروض أن تكون الفلسفة مواصلة حقة صادقة لتفكير اليونان ولمواقف فلاسفة العصور الوسطى المسيحية والاسلامية ولمظاهر الفكر الفلسفى الحديث التي نشأت من الاستمرار فى التوليد والاحياء والابتكار والتي حققت معارفها استنادا الى التغييرات التى طرأت على العلوم والآداب وعلى ثقافات الأجيال جيلا بعد جيل •

ماذا نعنى بذلك ؟

المقصود طبعا هو الاحساس بأن ثقافة العصر الحديث الأساسية فى ميدان الفلسفة تقوم على الالمام بكل المواقف المستحدثة مع محاولة استيعاب المبادىء الجديدة والاستجابة لأبرز مهمات الفكر المعاصر . بدون ذلك لا تكون الفلسفة فلسفة . لابد من تنسيق علومنا الفلسفية ببلادنا تنسيقا يجعل أرضنا خصبة ويتيح لنا فرصة ازدهار الفلسفات دون تقيد بالمراحل المحلية .

ولا يمكن أن تأتى فلسفة العقاد كمواصلة بحتة لعلوم الفلسفة فى الغرب كما لم يمكن أن تكون جهدا عقليا خالصا دون انعكاسات بيئيه وشخصية • لا ننتظر بطبيعة الحال أن تنبع فلسفة العقاد من عقله دون أن تتأثر بعدة اتجاهات بعضها خاص بظروفه هو نفسه وبعضها ناتج عن الأوضاع والأجواء التى نشأ فيها • أو يصح أن نقول عن فلسفة العقاد انها تأثرت بجملة من العوامل وخضعت لبعض المقومات التى تكشفت فى مطلع هذا القرن ولم تقف فى الوقت نفسه عند حد الاجتهاد العقلى المطلق •

فالعقاد كتب أولى مقالاته قبل الحرب العالمية الأولى ونشر دواوينه الشعرية في سنوات تلك الحرب وبعدها • وبانتهـاء الحرب اشتبك في عمليات سياسية ووزع المنشورات السرية وشارك في تأييد حركات شعبية كانت في أشد الاحتياج الى كاتب يؤازرها ويبعث فيها الايمان برسالتها • ولذلك فطبيعة العمل الذى نصب العقاد نفسه ليعهد به طبيعة ادبيةشعرية وجوهر كيانه الفكرى قائم على أساس الاعتماد على الجماهير ومناصرة الاتجاهات العامة • لم يخلق العقاد اذن ليلتمس العزلة في أرجاء الفلسفة وحدها وليكون معروفا عند طبقة بعينها على الرغم من طبيعته الذهنية • فالكاتب الشاعر المسمى بالعقاد مكلف بشيء يخالف الوضع المقفل • انه وفى مخلص لقلمه ككاتب صحفى أشد الاخلاص والوفاء والكاتب مطالب بأكثر مما يطالب به الفيلسوف أو العالم • انه مطالب بالاشتراك الفعلى فى مساندة أفكار الجماهير وحمل أعباء السياسة والانخراط في سلك الحياة الاجتماعية •

وهذه فى الواقع صفة من ألزم صفات العصر • أعنى أن العقاد لم يوقف جهده على التفكير الفلسفي وعاش حياته ككاتب يتحمل تبعات الرأى ويقوم بالدعوة للحركات التي ترضيه ويتحمس لمشاعر الناس • وكان من الممكن طبعا أن يحتل العقاد مكانته ككاتب مثل كتاب الوجودية وفلاسفتها من أمثال كامو وسارتر وسيمون دى بوفوار وموريس ميرلوبونتى • فهؤلاء كتاب وفلاسفة معا آثروا ارتياد أجواء الفكر الشعبية وعـدم الركون الى طابع الفكر العقلى المجرد • وعاونهم على ذلك طبعا شدة التقارب الثقافى بين طبقات القراء بحيث يمكن الكاتب أن يتناول مشاكل الفلسفة دون أن يجهد جمهوره وبغير أن يثقل على المتابعين لفكره وقلمه • أما ببلادنا فقد تطلب هذا الموقف من العقاد جهودا ضخمة لا نشك مع ذلك فى أنه وفاها كل التزاماتها • ولكن كان ذلك في بعض الأحيان على حساب الفلسفة التى لم ير العقاد بدا في تخصيص مقالات لها دون الدراسات والبحوث المطولة • وظهرت للعقاد مقالات عن نيتشة وداروين وماكس نورداو وكانت وشوبنهور كان فى مستطاعه بلا جدال أن يحيلها الى دراسات وكتب مطولة ، ولكنه محتاج الى تذويب الفوارق الثقافية أولا ومواجهة القراء كجمهور موحد كما انه محتاج ثانيا الى الوقت من أجل استيفاء حاجاته ككاتب .

هذا من جهة طبيعة العقاد الذاتية وجوهر رسالته • أما من جهـة الظروف التى أحاطت به وحورت مضمون جهـده الفكرى فأقل ما يقال بشأنها أنه واجه أربعة تيارات ألزمته بتحديد موقفه الروحى منذ البداية•

كان هناك تيار ناقد من بقية التركة الفكرية التى ورثها أبناء هذا القرن من جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ٠

وكان هناك تيار آخر يشع من بين قاعات العلم بالجامعة الجديدة ومذاهب الفكر الحديث التي بدأت تسرى فى عقول المثقفين بين جدرانها ٠

وكان هناك تيار ثالث متولد من دعاة مذهب النشوء والارتقاء على نحو لم يسبق له مثيل مع ميل حاد الى التطرف في انكار الأديان ٠

وكان هناك تيار رابع لا يتغيب عن أذهان المثقفين ممن يتابعون انحناءات الفكر وانتاج الأدباء والشعراء من الأوربيين وهو حقيقة الفلسفة الغربية ابان اقبال العقاد على تقريب مذاهبها للعرب ٠

أما من جهة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده فلن نضيف جديدا اذا أشرنا الى تعلق العقاد القوى بهذه المدرسة الروحية التليدة التى أنشأها هذان الرجلان ٠ لقد تابعا في جد واخلاص كل ما يتطلبه التجديد في مفهومات الدين والحضارة والفكر الاسلامى وأصبحا رمزين للنهضة الحقيقية في الموقف العربى التقليدى الأصيل ٠ ويمكن أن نؤكد في غير حاجة الى دليل أو برهان أن العقاد قد تلقى من هذا التيار عصب فكره الأصيل الوقاد وأنه قد بنى عتبات مذهبه فى الدين والمجتمع والكرامة والحرية وأصول الاعتقاد فوق نظريات هذين الرجلين ٠ وأحب العقاد في قرارة نفسه أن يواصل رسالة جمال الدين ومحمد عبده وأن يحتفظ بالمجرى الذى حفراه وأن يجعل من فلسفته جزءا مكملا للكيان العقلى الذى أبدعاه ٠

ولكن شيئا جديدا ظهر في الأفق قبل الحرب العالمية الأولى ، وهو الجامعة المصرية والتعليم الجامعى وصار الناس يتحدثون فجاة عن الرسائل والمناهج واصول البحث العلمى والمفهومات الاكاديمية والنظرة التحليلية في الدراسات ٠ ولا يخفى على العقاد حينئذ أن هذه الصورة الجديدة للمعرفة ستكون مقياسا دقيقا لمدى صدق الأحكام وثبوت الحقائق ٠ فسرعان ما يدرك الخطر الذى يهدده من هذا الجانب بوصفه أحد الباحثين الذين لم تخضع عقولهم للأسس المنهجية الجامعية ٠ واذا به يشجع أصحاب الرسالات وأنصار الأسلوب المنهجي واذا به ينفر من أصحاب الأسلوب المنمق المرصوف ويأخذ على عاتقه تحليل المشاكل بأسلوب رائق جدى ، كما أخذ على عاتقه من ثم استعراض آخر تطورات الفكر الغربى واستعراض مفهوم الأدب لدى شباب الجيل واستعراض المشاكل بحيث

لا تفوته ظروف العصر ومؤثرات البيئة وطبيعة المذهب • وكان العقاد أول من نفض عن عقله غبار التحلية البيانية واستجاب لدافع الكتابة العصرية الخاضعة لمستلزمات البحث والدراسة •

ولا أريد أن أتعرض تفصيلا للتيار الثالث الذى كان من أهم عوامل الانعكاس الروحي في عقل العقاد • فقد تعلم العقاد منه مبدأ الحرية المطلقة • ولكنني أشير اليه عابرا عسى أن يظهر من بين أصدقائنا بعض المتخصصين الذين يستطيعون أن يوفوه حقه • ذلك أن لهذا التيار وضعا خاصا بالنسبة الى الفكر العربي بأكمله • كان فرح أنطون والدكتور شبلي شميل وبعض مفكري السوريين واللبنانيين على رأس هذا الاتجاه وكانوا ينشرون بحوثا عن مذهب النشوء والارتقاء مع تأييد الحادي قوى • وعرفهم العقاد معرفة وثيقة في أثناء تردده على ندوة الأديبة مي زيادة أيام الثلاثاء وفي أثناء عمله بالاهرام • وأحس العقاد الشاب بمسئولية ضخمة نحو الفلسفة ونحو الاسلام في آن معا ازاء هجمات المتشككين • ارتبط احتياجه الى التفلسف بحاجة العقائد الى الحماية والمساندة وأنهى حيرته باطلاق العنان لخياله الشعري والزام عقله بالوقوف في صف العقائد والأديان •

أما التيار الرابع والأخير فقد شيده الناقلون والمترجمون عن حضارة الغرب وكان العقاد على رأسهم عندما نشر أولى بحوثه عن كبار مفكري الغرب مؤمنا بأن النزوع الى التجديد لن يتأتى الا بالتزام المناهج القياسية والاستقرائية ـ عرف العقاد أن أول الطريق الى الفلسفة يستلزم العروج على المذاهب الأخيرة لفلاسفة الفرنسيين والألمان والانجليز • واشترك لطفي السيد في هذه البحوث من وجهة اعتمادها على فلسفة اليونان • وتطلع العقاد الى الطريق يستنير فيه بالمبادىء الأوربية وثقافة الغرب وبدأ يخط الخطوط الأولى في فلسفة مصر الحديثة مستخدما مصطلحات الفلاسفة وعباراتهم وألفاظهم • وتحددت له فلسفة كاملة في الجمال وفي الطبيعة وفي المصير البشري وفي الوضع الالهي وفي حقيقة المدركات والمعطيات وفي حقيقة الفهم العقلي لدلالات الحرية وفي مهمة الأخلاق والميتافيزيقا •

وبعد ، فهذه هي العناصر التي تكونت منها اللبنة الأولى في بناء الفكر الفلسفي العربي لأول مرة في تاريخنا الطويل • ولهذا يقول الدكتور طه حسين ان العقاد فيلسوف شيطاني • ولو أراد الدكتور طه أن يشير الى قصيدة العقاد عن ترجمة شيطان التي تثبت قدرته على التحليق والتحليل الفكريين لكان ذلك قولا عاديا عابرا • ولكنه كان يعني أن العقاد فرض قدرته العقلية ومنطقه الخصب على أودية الفلسفة فأخضعها لبيانه العذب

الجميل • وهذا لم يتيسر حتى للمتخصصين فى الشروح والدراسات الفلسفية • وكان ذلك بغير استعداد تعليمى من أساتذة يمهدون له الطريق ويفتحون امامه الآفاق • فهو بمثابة المتسلق • ومع ذلك فبحوثه نمط فريد وعلامة فى أول طريق للفلسفة العربية المعاصرة •

— ٢ —

لم يكن لفلسفة شوبنهور — وهى الفلسفة التى ترى الوجود خلال صورته لدى الانسان — أن تخلو من شرح وتفسير لكيان الفرد • ان العالم هو فكرتى وفكرتك وفكرة الآخرين • ولكن هذه الفكرة ليست قسطا مشتركا بقدر ما هى ابداع شخصى للذات حيال الموضوع • ان العالم فكرة • وهذا يؤكد ترابط الذات والموضوع • ولكنه مع ذلك لا ينتقل بين ذوات كثيرين بحيث يخلق نوعا من الانسجام الكلى بين مجموعة من الأفراد• ولهذا كان للفرد الواحد قيمة كبيرة فى فلسفة شوبنهور •

ومن جهة أخرى نستطيع أن نشعر الى أى حد أراد شوبنهور أن يعارض فلسفة هيجل • ففى الوقت الذى أراد فيه هيجل أن يقيم الدولة على أساس الاحساس بحقيقة المجموع وظهور الروح الكلية فى مكان الأفراد نجد شوبنهور على خلاف ذلك ينشىء منصبا كاملا متناسقا مع احساسات الفرد وتصوراته • أو بعبارة أخرى كان هيجل يشرح لتلاميذه أن الرجل لا يستحيل الى حياة فردية الا بمعارضته وباتحاده بالعناصر الأخرى وبكل اللانهائية فى الحياة الفردية الموجودة خارجه • فهو موجود فقط ما دام الكل فى الحياة متقسما بحيث يكون هو جزءا والكل الباقى يكون جزءا آخر • وفى الوقت نفسه أنه موجود فقط مادام غير مكون لأى جزء وما دام لم يفصل منه شىء • فنحن نحيا فى رأى هيجل حياة لانهائية لتعدد لانهائى • وهذا التعدد منقسم الى ما لانهاية له من الاتحادات والانفصالات اللانهائية • وليس هذا الكل المنقسم والمتحد الا الطبيعة ، والناس عبارة عن تعبير صادر عن هذه الطبيعة •

ومما لاشك فيه أن العقاد كان متأثرا بفلسفة شوبنهور الى حد كبير على الرغم من اهماله للجزء الخاص بالتشاؤم فى هذه الفلسفة • ومفتاح شخصية العقاد — اذا شئنا أن نطبق عليه منهجه هو نفسه وأن نخضعه لأسلوبه فى التحليل — كان فكرة الارادة • يمكنك أن ترد كل أفكار العقاد وتصرفاته الى معنى من معانى الارادة أو الى شكل من أشكالها • لقد كاد

العقاد أن يتحول فى شبابه الأول الى آلة صماء شبيهة بالفيلسوف «كانت» الذى أعجب به أيما اعجاب • كان يقرر فيما بينه وبين نفسه أن يمضى فى حياة آلية رتيبة تشبه حياة « كانت » من حيث انتظام المواعيد ودقة المعاملات •

ولكن النفضة التى جاءته من قبل الحياة العارمة التى عاشها شوبنهور كانت كفيلة بدفعه الى الاحساس العميق بالحياة وجعلته ينظر الى الارادة كمظهر من مظاهر القوة التى لا تبطل لسبب من الأسباب • لذلك احتفظ العقاد بنظام صارم تخضع له ظروف معاشه ويقضى على نفسه الا يخرج عليه أو يتعداه • ولكنه مع ذلك يحن الى الطبيعة ويشعر بالحياة تتدفق فى قلبه وروحه ولا يتنازل عن فلسفته الجمالية وعن تذوقه لمفاتن العيش •

يقول العقاد : « وبعد ، فهل كان شوبنهور ـ الفيلسوف المتشائم ـ يجهل قدر الكلاب والنساء لأنه يكره الحياة ولا يشعر بالسرور ؟ لا •• اننا نظلمه بذلك ونبخس حق الكلاب والنساء عنده ! فهو صاحب ذلك الكلب الذى سماه أطفال المدينة شوبنهور الصغير لأنه كان لا يشاهد الا مع شوبنهور الكبير كالولد مع أبيه ! وناهيك بخبرة الفيلسوف بالنساء ! انها لخبرة تنم عنها فلسفته وسيرة حياته ولا يضارعه فيها ضابط عاش حياته كلها فى ميادين اللهو والمجون » •

وقد عرف العقاد آثار شوبنهور ومؤلفاته معرفة جيدة ودرسها دراسة مستفيضة ، ولم ترد مناسبة لذكر شوبنهور دون أن يشير الى مواقفه الفكرية اشارة واضحة • ولذلك اعتاد النظر فى تفسير شوبنهور للارادة وأدرك أهميتها بالنسبة الى الميتافيزيقا • فقدرتنا على أن ننظر فى داخلية نفوسنا التى تتمثل فى الانطواء الاستبطانى هى التى تقودنا مباشرة الى اكتشاف الارادة • ويقول العقاد فى مقاله عن «كانت» سنة ١٩٢٤ : « وكما قسم كانت الحقائق الى قسمين : حقائق الأشياء فى ظواهرها ، وحقائق الأشياء فى ذاتها ، كذلك قسم الانسان الى قوتين : العقل والارادة أو الوجدان • فالعقل يدرك الأشياء فى ظواهرها والارادة تحيط بالأشياء فى ذواتها لأنها هى من عالم هذه الذوات • ومن هنا نفهم أن علم ما وراء الطبيعة مستحيل من طريق العقل فى رأى كانت ولا سبيل اليه الا من طريق الارادة التى تحيط بكنه الأشياء » •

ولهذا يصف العقاد ملكة التفكير الفلسفى بانها لاتشبه كل الشبه

ملكة العلم التجريبي وملكة الفروض الرياضية ولكنها تشترك فيهما بنصيب لاغنى عنه . وقوامها الأكبر ان تحسن الفهم فى المسائل المجردة أو المفارقة كما يقول المتقدمون . وهي بهذا قد تشبه الرياضة الى حد بعيد لولا أن الرياضة تنتهى الى الفرض ولايعنيها أن تتصوره أو تحوم حوله بوجدان أو الهام . كذلك وردت فى ختام بحثه عن الامام الغزالي عبارته التالية « ان للفلسفة اداة لاتتم بغير قسط من التصوف . لأن التصوف قدرة على انتزاع النفس من المألوف . وتلك قدرة لايستغنى عنها الفيلسوف المفكر ولا الفيلسوف الحكيم » .

وقد استخدم العقاد فى حياته هذه الملكة استخداما حقق لهـا صفاتها التى أضفاها عليها وساعده على ذلك قوة فكريةخارقة . وتمثلت له الارادة كقدرة على استبطان النفس الانسانية من أجل التعرف على اسرار الوجود فى ذاته . كما تمثلت له فى الفرد الذى توزعت جذوره على النوع بأكمله . ولهذا يتعرض العقاد للوجودية من هذه الناحية فيقول « القول بالوجودية راى فى حقيقة وجود الفرد بالنسبة للنوع الانسانى كله . وخلاصة هذا الراى ان الفرد هو الموجود حقا بخلاف النوع الانسانى الذى لاوجود له غير وجود أفراده المتفرقين . ولهذا يقولون بحرية الانسان وينكرون أن تفنى هذه الحرية فى غمار الجماعات » .

ويعود العقاد لتأكيد معنى الارادة النوعى عندما يحلل فكرة الوجودية عند الفرد والنوع فيقول « إنهم يقولون ان الوجود الحقيقى هو وجود الفرد المعروف بشخصه وكيانه . وانما النوع كلمة أو لفظة أو خيال لاوجود له فى غير التصور . وليست الانسانية الا كلمة خاوية لاتوجد بمعزل عن هذا الفرد وذاك الفرد او هذا الانسان وذلك الانسان . الا أن الواقع الذى لامراء فيه ان النوع موجود فى تركيب كل انسان وانسانة وانه ما من خلية فى بنية الفرد لم يتمثل فيها النوع تمثيلا أوفى واعمق من تمثيل الفرد ذاته : خصائصه ومقوماته . وعلى هذا لايمكن أن يقال ان الفرد موجود حقيقى وأن النوع وهم ليس له وجود . لأننا لانستطيع ان نتخيل فردا مجردا من الخصائص النوعية فى كل خصلة من خصاله وكل خلجة من خلجات وعيه وشعوره . وكاتب هذه السطور « العقاد » وجودى اذا كان معنى الوجودية انصاف الضمير الفردى وتقديس الانسان المستقل بفكره وخلقه » .

ويشرح العقاد مذهبيته فيقول « ان افضل القيم الفلسفية عندى

هي قيمة الذاتية وقيمة الحرية . ولمن شاء أن يحسب الايمان بذلك موافقا للايمان بجوهر الوجودية . لأن الوجودية على تعدد مذاهبها تقوم على رعاية حق الفرد وحمايته من طغيان الجماعة على فكره وضميره. ولكن التشابه بين هذا التقويم العقلي الاخلاقي وبين جوهر الوجودية يسلكني في عداد القائلين بمذاهب الوجودية المختلفة . فليس من طبيعة تفكيري واعتقادي أن أدين بمذهب فلسفي محدود او أقتدي بشرعة فيلسوف واحد . لأنني آمنت بأن الحياة الانسانية أوسع نطاقا من أن تنحصر في وجهة واحدة ولاسيما الوجهة التي تطالع الحقائق المطلقة كيفما اتفق التجاوب بينها وبين ادراك الانسان » .

والارادة الكلية عند العقاد هي التي تختفي وراء مظاهر الحياة وهي التي تتجسم في الافعال التلقائية . وهذا هو مايشعر به الانسان حين يواجه مفاتن الجمال . ومن كلماته المعروفة «بالايجاز أن الجمال هو الحرية . فالوظيفة تخلق العضو : هذه حقيقة مقررة . والانسان لا يمشي لأن له قدمين بل هو له قدمان لأنه أراد أن يمشي . وهو لا ينظر لأن له عينين بل هو ذو عينين لأنه أراد أن ينظر وهكذا قل في جميع الأعضاء والجوارح » .

« وحسبنا من توضيح الصلات بين الجمال والحرية ملاحظة وجيزة تغني عن كثير ولاغنى عنها للتمهيد الى معرفة الجمال كما يتجلى في وظائف الاعضاء أو كما يتجلى في المراة على التخصيص . فمن المتفق عليه

اننا لا نعرف شعورا انسانيا يناقض الشعور بالجمال كما يناقضه القسر والحبس والانقفال .

ولا نعرف شعورا انسانيا يوافق الشعور بالجمال كما يوافقه الشعور بالانطلاق والاسترسال واطراد الفكر والخاطر والاحساس فلايكون الجمال أبدا في معناه بعيدا من الحرية . ولاتكون الحرية ابدا في معناها بعيدة عن الجمال . ولن يتمثل ذلك في شيء كما يتمثل في الحركة الجميلة من الجسم الجميل : أي في الرقص الفني الرفيع . فالراقصة وهي تتمايل كما تريد على أطراف أصابعها ترتفع بالجسم الى عالم المعاني التي تسخر المادة لحركاتها ولا تحفل بقانون الجذب الذي يتسلط على الاجساد الأرضية من الأحياء وغير الأحياء . فهي هنا كالشاعر الذي يخطر له المعنى فيلتمس له جسما من الألفاظ مطيعا لمعناه . أو كالمثال الذي يشيع في نفسه الجمال فيلتمس له قالبا من

الدمى الحسان يفرغه عليه • وكالخاطر الذى ينطلق من عالم الاثقال والضرورات الى عالم لاثقل فيه ولا ضرورة » •

وترجع فكرة العقاد هذه عن الجمال الى أولى سنى حياته • وكان فى تلك السنوات قد اطلع على كتب هيوم وقرأ اكثر مؤلفاته . واثر فيه تأثيرا واضحا كلام هيوم عن السببية . ومن بين ما استقر فى خاطره فى تلك السنوات أن كلام هيوم عن المعجزات وعن الأسباب قريب جدا من كلام ابن رشد فى براهين المعجزات ومن مذهب الغزالى فى الاسباب . ويلخص العقاد مذهب الغزالى فى الاسباب فيقول « ان السبب على اصطلاحنا فى العصر الحاضر ظاهرة تقترن بالشىء وليست هى علة وجوده • وهو مذهب يوافق آراء العلماء المحدثين الذين يقررون أن مهمة العلم هى وصف الظواهر المقترنة وليس من مهمته أن يصل الى العلل ولاسيما العلة الاولى » •

وقد ذكر العقاد هذه الفكرة فى مستهل حياته الكتابية وصار يبلورها فى أثناء تعرضه لطبيعة العلية المادية وترتب المسببات على اسبابها . وبسط العقاد نظرية هيوم فى عدة مناسبات سنة ١٩٢٦ . واسترعى نظره ان اقتران العلل بعضها ببعض لايجعل من احداها سببا مباشرا ومحركا للاخرى • فالاسباب تتابع دون أن يكون السبب نفسه مصدر الدفع الحركى فى السبب . واستعان العقاد بآراء (ادنجتون وجينز وهيزنبرج) التى توضح أن ارتباط العلة بالمعلول فى كل الظواهر المادية هو مجرد اقتران فى الزمان . ولم يكن العقاد يرى خطرا فى العلوم على الفلسفة وانما يشعر ان المعارف العلمية ضرورية للفلسفة . وليس معنى ذلك أن تنتصر الفلسفات المادية بناء على تقدم العلوم . « فمن الخطأ أن يقال ان المذهب المادى ينتشر بفضل تقدم العلوم الطبيعية • لأن تقدم العلوم قبل عصر كارل ماركس لا يذكر بالقياس الى تقدمها فى عصر بلانك وهيزنبرج وادنجتون وجينز وآوليفرلودج . ومنهم مع ذلك من تلهمه تلك العلوم أن الكون كله فكرة رياضية وأن المادة لم يبق منها الا الحسبة التى تقاس بالرياضيات » ففى رأى العقاد ان المادة فى القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد بل دخلته وأصبحت فى تقدير الثقات عملية رياضية أو نسبة من النسب التى تقاس بمعادلات الحساب •

وكان العقاد حريصا على ان يظهر دائما موقف العلم من الفكرة التى يتعرض لها وكان يعرف ان الأساس المنهجى الاستقرائى كما شرحه

فى كتـابه عن فرنسيس بيكون هو الدعامة الاولى للفـكر الحديث .
ولا يستطيع الباحث أن يقبل على علوم الفلسفة دون أن يمرن فكره على معالجة القضـايا والمشاكل وعلى دراسة أسس التحليل . لذلك لم يجد العقاد مبررا لدعوة المنطقية الوضعية الى هجر تاريخ الفلسفة . ويصر العقـاد على أن تكوين الفيلسـوف يسـتلزم الالمـام بتاريخ المذاهب الفلسفية منذ اقدم العصور حتى اليوم . ويقول فى ذلك « ان الفيلسوف الجدير باسم الفيلسوف فى العصر الحديث لا يخلو أن يكون قد اطلع على مذاهب القرون الوسطى أو على التعقيبات التى أوحتها الى المخـالفين وابتعثتها فى عقـول المفكرين . وليس فى العصر الحاضر من اشـتغل بالفلسفة ، ولم يطلع على اطوار المذاهب الفلسفية السابقة ، وسوابق الآراء حول اصول المسائل الكبرى فيما وراء الطبيعة . ويكفى أن يكون قد اطلع على خلاصة هذه الاطوار لتنعقد الرابطة بينه وبين السلف الذى لا فكاك منه ، ولا سيما السلف الذى وضع الأساس ثم تعاقبت بعده أدوار البناء » .

وهذا العقل الفلسفى عند العقاد هو الذى « يستطيع أن يفرق بين الوجود فى الزمن وبين الوجود بلا زمن ، وهو الوجود الابدى السرمدى : وجود الخالق المنزه عن الحدود والأشكال . والعقل الفلسفي يسـتطيع ان يفرق بين الوجودين ، وأن يدرك أنهما نقيضان متقابلان فى أهم الصـفات ، ولا يلزم من ادراكه الفرق بينهما أنه يحيط بهما تصـورا وتصويرا للحس أو للبديهة . لأن التناقض بين الوجود والعدم مثلا معقول ، وان لم يكن فى وسع العقل أن يحيط بماهية الوجود كله ، أو يدرك العدم على أى حال من أحوال الادراك ، غير ادراك الفارق بينه وبين الوجود . وكذلك الأبد والزمن نقيضـان : فالأبد لا يتصـور مع الحركة . ولكن الزمن لا يتصور الا مع الحركة . الأبد لا تعقل له حركة فى مكان لأنه بلا بداية ولا نهاية ، وبلا أول ولا آخر ، وبلا حيز ينتقل من بعد الى بعد ومن موضع الى موضع . والزمن على نقيض ذلك لا يتصوره العقل الا مع الحركة التى لا يخلو منها مكان » . ومذهب أفلاطون فى الزمان اصح ــ عند العقاد ــ من مذهب معارضيه فانه يرى أن الزمان محاكاة للأبدية انعم الله به على الموجودات ، لأنها لا تستطيع أن تشبه الله فى صفة الدوام بلا ابتداء ولا انتهاء .

ولم يشأ العقاد أن يتركنا فى حيرة بشأن بدء التفكير الفلسـفى الحديث فاشار الى المساجلة التى وقعت بين الامام محمد عبده وفرح

انطون حول فلسفة ابن رشد فى الشرق العربى فى أوائل القرن العشرين . وكانت هذه المساجلة فى حينها كما يقول العقاد حديث المحافظين والمجددين بين أبناء البلاد العربية والاسلامية من مراكش الى التخوم الهندية : وهى المساجلة التى اعتمد فيها محمد عبده على مراجعة العربية على حين استند فرح انطون الى شروح رينان فى كتابه عن ابن رشد . ولا شك أن هذه الوثبة التى بدأت فى أوائل القرن العشرين (سنة ١٩٠٢) كانت على مفترق الطريق بين عهد التقليد وعهد الاجتهاد ، وفى ابان الحركة التى أيقظت العقول لمواجهة الحياة فى العصر الحديث . وكلمة العقاد هذه بمثابة الانذار لأول مطالع الفكر الفلسفى الحقيقى ببلادنا على النحو الذى رأينا . فهى نقطة الابتداء فى الاهتمام بهذه العلوم الفلسفية التى تربط فكرنا بفكر السلف وتثبت معالم الوصل بيننا وبين حضارة الغرب ..

- ٣ -

فلسفة العقاد فلسفة أصيلة نابعة من صميم كيانه وتفكيره . وهى ليست مجرد احتراف صناعى ، وانما هى ضرورة فى حياته التى تجاوزت نطاق الأوطان ، وأصبح نطاقها الكون كله في كل زمان . ليست الفلسفة عارضا فى حياة العقاد ، وانما هى شيء صادر عن طبيعة حسه وعقله . وتعريفه لها بأنها العلم الكلى على حد تعبير الفارابى لا ينجم عن مجرد كونها بحثا فى علوم مابعد الطبيعة أو فيما وراء المادة وما وراء الزمان والمكان . بل ينجم هذا التعريف عن كونها ضرورة . فهى ليست من البعد عن حياتنا الفردية او حياتنا الاجتماعية بحيث تخرج من عالم الطبيعة الى ما وراءها . وان الانسان ما عاش ولن يعيش بغير فلسفة حياة منذ بحث فى العلاقة بينه وبين العالم المنظور والعالم المحجوب . وهذه الصناعة التى تسمى بالفلسفة لا تغادر الطبيعة كل المغادرة ولا تنطلق منها الى ما وراءها بغير رجعة الينا فى حياة الغذاء والكساء .

فهى — أى الفلسفة — علم كلى لشمولها مباحث الطبيعة ومباحث ما وراء الطبيعة فى وقت واحد . وهى علم كلى لتخطيها حدود الجزئيات والفرديات والتماسها الخصائص الشاملة فى جميع الموجودات .

قلنا اننا اذا شئنا أن نستخدم منهج العقاد ذاته فى اكتشاف مفتاح شخصيته الذى ننفذ به الى جميع خطوط فكره وقفنا عند كلمة

الارادة . الارادة عند العقاد هى المحور الذى تدور حوله كل فلسفته . وقد تأثر العقاد بشوبنهور وفلسفته تأثرا عميقا . واستفاد من النظر فى مؤلفاته فى اكتشاف الطابع الفلسفى الاصيل لحقيقة الارادة .

قال فيثاغورس قبل خمسة وعشرين قرنا ان العدد هو سر الوجود وان النسبة بين الأشياء هى نسبة بين أعداد . فكان فرضه هذا فى نظر العقاد أقرب الى الصدق من فروض علمية كثيرة فتن بها النـاس الى سنوات . وقد قاله فيثاغورس حين رأى أن الأوصاف كلها قد تفارق الموجودات من لون أو لمس أو صلابة أو ليونة أو وزن أو ما شابه هذه الأعراض الكثيرة الا العدد . فانه ملازم لكل موجود فردا كان أو أكثر من فرد وكاملا كان أو غير كامل . وان الفروق بين الأشياء هى فروق بين تركيب وتركيب أو فروق بين نسب الاعداد . وان الكون كله دور موسيقى هائل يدور على قياس منسجم كما يدير العازف الماهر ألحان الغناء .

وانشد الكون ألحانه التى لاعداد لها . وتوالت الفترات التى نعدها نحن بالسنوات والقرون . وظهر اليوم للباحثين ان الاجسام نسب بين اعداد . وان الفارق بينها فارق فى هذه النسب دون غيرها . وان التناسق فى هذه النسب اصدق من اجرام المادة الملموسة باليدين . وان الأصح فى تركيب الذرة أن يقال انه عددى لا انه مادى ملموس .

والعقاد يستمرىء هذا اللون من التفكير . ولكنه يعود فيتساءل : هل هذا التناسق النسبى بين الكائنات والموجودات هو مجرد اجتماع أو انشقاق بغير قصد أو دلالة ؟ أو ان ثمة وضـعا سابقا على وجـود النسب يدعو الى افتراض وجهتها فى التناسب أو التوزع وفى التقارب أو الانشقاق ؟ ما الذى يفرض على الماهيات النسقية للأشياء وجهتها فى التذبذب والتخلخل وفى التكاثف أو التحلل ؟ ها هنا وضع العقاد الارادة بوصفها سياقا أو أسلوبا هادفا داخل اطار الوجود القصدى للكائنات والأحياء والموجودات والأحداث ومظاهر الطبيعة وأكوان ما بعد الطبيعة بل وللأفراد والجماعات البشرية ذاتها .

والارادة تتمثـل فى الوجود بمجرد الوجود . الارادة والوجود يظهران معا . ويكفى أن نقول عن الوجود انه موجـود لنقرر انعدام العدم . وكذلك يكفى أن نقرر وجود الوجود لنكتشف مظهر الارادة . فالوجود ليس الارادة . ولكن الوجود لا يكون الا بارادة . ولهذا تعد الارادة بديهية لا تحتمل الصدق والكذب على نحو ما تقـول ان الوجود

موجود . والكوجيتو الديكارتي يستمد حقيقته من الكيان الذاتي للانسان • أما مصادر العقاد في وجود الارادة فهي أولية على نحو أوليه الحياة والوجود معا . ان الكوجيتو الديكارتي يتخطى الوجود من اجل العودة لاثباته من جديد عن طريق وجود الذات اليقيني . أما العقاد فيكتشف بديهية الوجود .. مجرد الوجود .. كمعنى من معاني الارادة الممتدة في الموجود .. أي موجود .. الموجود الموضوعي كالمرئيات والمدركات أو الموجود الذاتي كالجماعة والأفراد •

ومن الوجود بالمعنى الأعم الأشمل يستلهم العقاد معنى الارادة المنبثقة • ومن الارادة ينتقل العقاد الى بطن الحقائق الذاتية والموضوعية على السواء . ومن حقيقة الارادة الذاتية يكتشف النوع وفي اطار النوع يحدد اتجاه التاريخ وفي حدود التاريخ يلتمس بواعث الفرد وحرياته وتبعاته •

ومجرد الوجود يهدم القول بالعبث أو بالمصادفة ويثبت الارادة ويؤكدها . وليس الوجود والارادة شيئين مختلفين أو ظاهرتين منفصلتين ترتبطان برابطة ما • انهما شيء واحد يظهر لنا على نحوين مختلفين احدهما مباشر والآخر غير مباشر . الأول حسي موضوعي والثاني معنوي غائي . يقول العقاد في مقدمة كتابه مطالعات في الكتب والحياة : « انني أعجب لفهم حقائق الأشياء على ذلك الوجه الذي يجعل العالم المادي مناقضا للعالم الروحي كأنهما عالمان منفصلان في فضائين منعزلين . فالصواب عندي أن العالم كله «قوى» من طبيعة الروح التي نتصورها. وما الفرق بين الظاهر والباطن منها الا في طريقة الادراك واستعداد الحواس » •

والعقاد هنا ينمي الطريقة الكلاسيكية في التفكير • انه يعارض شوبنهور من جملة وجوه. فشوبنهور يبدأ بالفرد ليعود فيقضي عليه . أما العقاد فيبدأ بالارادة الكونية ليعود فيبرز كيان الفرد . وقد تعلم العقاد هنا من نيتشه شيئا ثمينا جعله يعرض هو الآخر عن شوبنهور على نحو ما فعل نيتشه حين انتفض على أستاذه شوبنهور بعد أن تعبد بعبادته وأخلص له الحب والولاء زمنا ليس بالقصير .

والعقاد بطبيعته ينفر من التشاؤم ولذلك أدرك معنى الارادة على نحو عارض به مذهب شوبنهور ، فشوبنهور يفهم الارادة على أنها حقيقة يلمسها الفرد في نفسه ثم يصبح الفرد نفسه عند شوبنهور ظاهرة من ظواهر الارادة . اما العقاد فيلتفت الى الوجود الماهوي على

أنه ارادة ويضع ارادة الوجود في مرتبة واحدة مع ظاهرة الوجود ويستخلص منها بديهية لا تحتاج الى دليل . وشوبنهور يبدأ من الفرد ليعود فيلحقه بالوجود الظاهري الوهمي الخداع . أما العقاد فيبدأ من ارادة الوجود ليكتشفها في حقيقة الفرد الحر بين ضرورات الوجود .

يقول العقاد في نفس المرجع السابق (ص٢٢٠) : « انما الذى يجمل بنا أن نفهمه ان قيود الضرورة هي مسبار ما في النفوس من جوهر الحرية الصحيحة كما أن القيود التى تثقل بها اعضاء البهلوان الماهر هى مسبار مهارته وقدرته على الخطران والوثب واللعب » وسبق هذا أن اشار العقاد في مقدمة المراجعات الى حقيقة الارادة بقوله : « ان الكون كله والحياة (وهي أعم من الكون في نظرى) والفن ومناظر الأرض والسماء .. كل أولئك مظهر للتآلف أو للتنازع بين الحرية والضرورة او بين الجمال والمنفعة أو بين الروح والمادة أو بين أفراح الفن وأوزانه : قوى مطلقة وقوانين تحكم هذه القوى المطلقة . وكلما ائتلفت القوى والقوانين اقتربت من السمة الفنية والنظام الجميل الذى يبين بالمادة صفاء الروح ويسبر بالقيود أغوار الحرية .. » ولو أحببنا استكمال عبارة العقاد لقلنا « ويستشف بالوجود بديهية الارادة » .

ويمضي العقاد في توضيح فكرته قائلا : « وهكذا فلتكن الحياة وعلى هذا المعنى فلنفهم ضروراتها وقوانينها . فما الضرورات والقوانين الا القالب الذى تحصر فيه الحياة عند صبها وصياغتها ليكون لها حيز محدود في هذا الوجود ولتسلم من العدم المطلق الذى تصير بها الفوضى اليه . والا فتصور عالما لا موانع فيه ولا اثقال ثم انظر ماذا لعله يكون ؟ انه لا يكون الا فضاء بغير فاصل او هيولى بغير تكوين .. وسبيلنا بعد اذ عرفنا هذا أن نرزح بقيود الحياة ونخضع لها أو أن نحملها معنا ونتعلم الجرى بها كأنها لا تعوقنا عن مرامنا . فأما ان رزحنا بها وخضعنا لها فقد جعلنا القيد هو الغرض والغاية ونسينا بذلك غرض الحياة الأسمى وغايتها القصوى » .

فالوجود عند العقاد — مجرد الوجود — ارادة . لأنه وجود في ضرورات واحكام تبتعث تلقائيا الارادة . ومايسميه العقاد الحياة هو هو الارادة . والوجود هو الارادة والا لامتنع وجود الوجود نفسه . ان الوجود هو ارادة افناء العدم والقضاء عليه . ان الوجود ذاته يحمل في ذاته ارادة منع العدم . والوجود بغير الارادة لا تفهم معه الضرورات والقيود والأحكام .

وفلسفة العقاد على هذا النحو هي فلسفة الوجود الارادي . وهي ضربة قاصمة لكل الفلسفات الحديثة . فالوجود يعانق الارادة على نحو ما يعانق الخيال الشارد القافية المحبوسة ، وتقترن الارادة بالوجود لتمنع العبث العدمي ولتمنع عشوية الوجود الاعتباطي . والعقاد يريد أن يبدأ من حقيقة بديهية لاتحتاج الى اشهاد واستدلال . وقول العقاد ان الوجود موجود يستلزم في ذهنه أن العدم معدوم . وكون الوجود في حد ذاته يعني ان العدم معدوم فهذا الوجود من ثم مقترن بالارادة . اذا قلنا ثمت وجود فمعنى قولنا هذا أن ثمت ارادة محت العدم . « فما حاجة الانسان اذن — كما يقول العقاد — الى شهادة الشهود بوجود الشيء والشيء بقضه وقضيضه موجود بين يديه ؟ »

« اننا نعطي الوجود الزم لوازمه اذا قلنا انه غير المعدوم . وحين نقول هذا الوجود قصدنا بذلك هذه الموجودات .

« ومن أعجب العجب قول بعض الناس ان الوجود يتوقف على احساس من يحسونه . فهل معنى ذلك أن الشيء لا يكون موجودا لذاته الا اذا وجد من يحس أنه موجود ؟ » (العقاد : ملاحظات وردود على تأملات ونقود — الرسالة العدد ٧٣٥ في ١٩٤٧/٨/٤) .

ولهذا انصرف العقاد بكليته الى تثبيت نظريته في الوجود الارادي على أساس سابق على الوجود الذاتي . وهذا النزوع نحو اليقين الموضوعي في فلسفة العقاد معارض لكل فلسفة تأملية أولا ومعارض لكل فلسفة ذاتية مبنية على اليقين الذاتي عن طريق الكوجيتو ثانيا ومتأثر بفلسفة داروين في ارادة الحياة وبفلسفة نيتشة في ارادة القوة من ناحية ثالثة . وهو لذلك ينظر الى الكوجيتو الديكارتي نظرة ارتياب ويقول: ان قيمة الكوجيتو الديكارتي مستمدة من حقيقة الزمن الذي ظهرت فيه واثرها في تقرير حق الفكر وحق البحث . أما الكوجيتو الديكارتي فسواء أخطأ صاحبه أو أصاب فليس من حقنا أن نوقف اليقين بالوجود على الفكر أو أن ننظر في مشكلة الوجود ابتداء من نظرية المعرفة .

ان فلسفة الوجود الارادي تشترع منهجا جديدا يخرج على كل المواقف الفلسفية التي شاعت في العصر الحديث . انها ترفض الوجود الآلي المحض من جهة تنكر اتخاذ الوجود الذاتي نقطة انطلاق الى مباحث ما بعد الطبيعة . وكان « كانت » قد قسم الحقائق الى قسمين : حقائق الأشياء في ظواهرها وحقائق الأشياء في ذاتها (العقاد : المطالعات

ص٢٥٩ – ٢٦٠) وكما قسم كانت الحقائق الى قسمين كذلك قسم الانســان الى قوتين ، العقل والارادة أو الوجدان . فالعقــل يدرك الأشياء فى ظواهرها والارادة تحيط بالأشياء فى ذواتها لأنها هى من عالم هذه الذوات . ومن هنا نفهم أن علم ماوراء الطبيعة مســـتحيل من طريق العقل فى رأى كانت ولا ســبيل اليه الا من طريق الارادة التى تحيط بكنه الأشياء » .

فالعقــاد يتخذ من موقف كانت نقطة تحليــل معرفيــة يخلص منها الى أنه اذا كان لا مندوحة عن اتخاذ ســـــبيل الى المعرفة فلابد من الارادة حتى ننفذ الى الأشياء فى ذاتها لأنها تحيط بكنه الأشياء ولأنهـا هى نفسها من عالم هذه الذوات . ويخلص من ذلك الى قوله : « على ان كانت لم يفصل كل الفصل بين عالم العقل وعالم الارادة أو عالم الحقائق اللدنية ، فاننا مع اعتمادنا على المحسوســات والمدركات فى تحصيل معارف العقل لا نســتغنى عن حقيقة أولية نبنى عليها هذه المعارف » .

اذن فالعقاد مع تعرضــه للمعرفة الكانتية لم يحتج الى اتخاذ حقيقة أولية أو مبدأ أساسى لليقين من غير الوجود الموضوعى من حيث هو وجود .

ويتسـاءل بعض النقاد : أى معنى تفيده عبارة غير المعدوم زيادة على الموجود ؟ « أليست عبارة غير المعدوم مرادفة لكلمة الموجود لا مفسرة لها ؟ بل أليست كلمة موجود أوضح من عبارة غير المعدوم ؟ .. »

ويجيب العقاد على ذلك (العقاد : عود الى مسألة العقل بالرسالة العدد ٧٦١ فى ٢ فبراير ١٩٤٨) بقوله : « اذا قلت لى ما مزية وصفك الموجود بغير المعدوم ؟ فهذه المزية هى اننا نخرج من هنا غير المحسوس وغير المفهوم وغير المدرك وغير المعلوم . فلا ننفى وجود شىء لأننا لانحسه أو لا نفهمه أو لا ندركه أو لانعلمه . ويصبح الموجود بذلك أعم وأكبر من أن يلتبس بالمحسوسات والمدركات والمفهومات والمعلومات » .

فالبديهية الأولية التى يشتقها العقاد من طبيعة الوجود تشبه بدائه الرياضيات ، ان الموجود غير المعدوم تعنى ان مجرد الوجود ينتفى معه العدم . ومجرد انتفاء العدم يحمل معنى الارادة . والوجود مجرد الوجود يقتضى رفض العدم أى أن الوجــود من حيث هو وجــود يكون مريدا ، ان وصف الوجود بانه غير المعدوم تعطى صفة الايجابية لهذا

الوجود . ومع الايجابية نلمح . الارادة ولا نلمح القسر والقهر . فالارادة هى الوجود من حيث هو وجود . وهى تلتحم بالوجود دون تصميم سابق أو اعداد وتدبير . لأن مجرد التدبير والاعداد يجعلان الارادة فعلا معقدا أو فعلا مركبا فى حين لا يتفق هذا مع طبيعة الأوليات البسيطة المتناهية فى اليقين والبداهة . ومن ثم كان الوجود ، وكونه – مجرد كونه – يحمل معنى الارادة .

ولهذا لم يشأ العقاد أن يضيف أى وصف لهذه البديهية الأولية . ولم يتردد فى الاحتفاظ بعبارته أن الوجود موجود والعدم معدوم . لأن الموجود غير المعدوم . وبمجرد الوجود ينتفى العدم . وكل ما يطلب من التعريف كما يقول العقاد انه ينفى الالتباس ويحصر الصفة . وتعريف الخط المستقيم مثلا هو أنه أقرب موصول بين نقطتين . فماذا نفهم من أقرب موصول بين نقطتين الا انه الخط المستقيم ؟ هل تطالبنى بافهامك ما النقطة قبل أن تسلم بالموصل بين النقطتين ؟ (المرجع السابق) .

والوجود الارادى هو الوجود الذى لا يحتاج الى حجة أو الى دليل . انه مجرد الوجود وما كان ليكون وجودا لو لم يكن ارادة بمعنى من المعانى . وهو يتمثل فى الموجودات بأنواعها الذاتية المدركة أو المادية الخرساء . واذا تلاحمت هذه الموجودات القائمة على صورة أحداث فى الزمان أو توزعت فمعنى هذا أن ثمة نظاما . وليست المصادفة أقرب الحلول ولا أضمن المواقف . وأحرى بنا أمام العوارض التاريخية أن نفضل القول بالتدبير على القول بالمصادفة العمياء . وأحرى بنا كذلك ان نحسب حساب النوع الانسانى الذى يتجه فعلا من التفرق الى التضامن كما يتجه الفرد من الهوان والضياع الى الكرامة والكفاية .

فالنوع الانسانى ينتقل فى تاريخه المعروف من التفرق فى الموقع والمصلحة الى التضامن فى جوانب الأرض وفى مرافق المصلحة العالمية .

ينتقل من القبيلة الى الشعب الى الدولة الى الجامعة الدينية او العنصرية الى التوازن بين مجموعة من الفئات الدولية . . الى هذا الاشتباك المتلاحم فى سياسة العالم ومواصلاته وعلاقاته الى الوحدة التى أوشكت أن تكون وحدة للكرة الأرضية أمام غيرها من العوالم والأفلاك .

وقد يكون دليل النكسات أدل على وجهة التاريخ هـــذه من دليل الخطوات المطردة فى طريق التضامن والوحدة فاننا نكتفى بأن ننظر الى كل نكسة من هذه النكسات على حدة ثم ننظر الى حالة العالم الانسانى قبلها وبعدها فنرى على التحقيق أن العالم الانسانى كان بعد كل نكسة منها أقرب صلة وآدنى الى التضامن مما كان قبلها بسنوات . (العقاد : القرن العشرون ص ٩٢ ــ ٩٩) .

ووجهة التاريخ بالنسبة الى الانســان الفرد أوضح فيما يرى العقاد من وجهة النوع كله كما تبينت من الانتقال المتتابع من تضامن القبيلة المنعزلة الى تضــامن العــالم الذى تمتنع فيه العزلة على من يريدها .

فلا شك أن التاريخ يتنقل بالانسان الفرد من حالة مبهمة مهملة الى حالة الشــخصية المســتقلة بحقوقهــا وتبعاتها المتميزة بكيانها وحرمتها . فمن فرد لاتتميز حياته من حياة أبناء القبيلة الى شخصية محدودة المعالم تحاسب بعملها ولا تؤخذ بجريرة غيرها . وأوجز ما يقال فى القياس الذى نستمده من وجهة التاريخ أنه القياس الذى ينبىء عن تكامل الشخصية الانسانية فى حقوقها وتبعاتها .

وأهم ما نلاحظه فى هذا المنحى من التفكير أن العقــاد يفترض الارادة مع الوجود ويرى الوجود فلا يعرف له سوى دلالة ارادية تصحبه منذ مبدئه . فالوجود له معنى ومعناه لا يكتشف فى وســط الطريق . أى أن المصادفة لا تتدافع حتى تستخرج من الوجود دلائله وحوافزه ومعانيه . ان الوجود الارادى يفرض معنى الوجود مع الوجود ذاته . والمعانى ليست اكتشافا يلتقطه الانسان مصادفة فى طريق وجوده . وليست المعانى شيئا اجتذبه الانسان اجتذابا من العدم والخراب .

بلّ الوجود الارادى معناه ظاهر واتجاهه واضح ولا يحتاج الى افتعال المصادفة من اجل اثبات وجود الانسان كمخلص اكبر من العماء الذى يحيط به من كل جانب ومن كل زواية . كان البير كامو يقول :ان الوجود لا معنى له وقد وجدناه كذلك ولكننا سنجعل له معنى . كان يقول اننا لن ننتحر على الرغم من هذا العبث الذى وجدنا أنفسنا فيه ولكننا سنحيل هذا الهراء الى دلالات ، وسنحول التفــاهة الى معنويات وسنخلق لوجودنا معنى نعيش به ونتعزى من أجله . أما العقاد فيرفض قياس الوجود بالنظرة الانسانية التى تفترض لا معنوية الوجود . ويرى

أن الوجود لا يمكن الا يكون اراديا وما دامت قد تحققت له الارادة فقد استبعد كل عبث وازيل كل تخبط وأصبح الوجود معنويا منذ كان وجودا . لأن الوجود الذى نعرفه كارادة لن تضيع منه الرسوم ولن تزول من لمحاته المعانى والدلالات ولن نضيف اليه سوى ما رأيناه ولمسناه وأدركناه ووعيناه من كل ما ينبع من الوجود الزاخر فى هذا الكون العظيم .

ونستطيع من ثم أن نقف على جانب من جوانب أصالة العقاد . فالعقاد الفيلسوف الذاتى هو أول فيلسوف عصرى يتحقق من الموضوعية فى الموضوعية ذاتهـا . ان اشارات الفلاسفة المعاصرين الى الموضوعية تستمد كل مقوماتها وحقائقها من الذات المدركة العارفة . أما العقاد فيبث الموضوعية فى الوجود المادى ذاته وفى مظاهر الأشياء والكائنات . انه يجعل الموضوعية موضوعية بذاتها ويضع ثقته ويقينه فى المادة الارادية . وهو يشبه موقف « جاستون باشلار » فى عقلانية المادة حين يفسر الوجود على أساس ارادية المادة . جعل باشلار من العقل تجسيما ماديا على حين جعل العقاد من الارادة تمثلا فى المادة الموجودة . ان العقل صار تطبيقا ماديا عند باشلار فى حين ان الارادة هى التطبيق المادى لدى العقاد . ولذلك فجاستون باشلار هو صاحب مذهب عقلانية المادةعلى حين أن العقاد هو فيلسوف ارادية المادة . وبهذا يمكن أن نعرج على مادية العقاد لنكتشف فى ثناياها الروح والذات والوعى الكونى ولنتعرف على مذهب جديد فى المادية الارادية .

– ٤ –

تحتوى فلسفة العقاد على جزء فطرى وجزء صناعى نظرى . ونقصد بالجزء الفطرى تلك النظرات التى كان يرسلها فى غير كلف وفى غير تقيد بالصناعة الفكرية . وهى نظرات طبيعية تعبر عن مضمون فؤاده وعن موقفه الروحى ازاء الحياة والأزمات والناس . أما الجزء الصناعى النظرى فكان قلمه يجرى به حين يعد نفسه لمناوأة فكرة مذهبية أو حين يتعرض للنظريات الفلسفية وشخصيات الفلاسفة . وفى هذا الجانب كانت تظهر احيانا متاعبه حيال المصطلح الفلسفى . لذلك كان يتقن اختيار الكلمات القريبة المعبرة ويلقيها القاء سيالا وسط عباراته فتبدو حية كافية بنفسها . وقد بلغ العقاد تلك المرتبة لدوام مزاولته للكتابة الفلسفية منذ فجر حياته . فقد كتب عن نيتشة مقالا فى مجلة البيان قبل الحرب العالمية الأولى لعله كان أحد المقالات الثلاث أو الأربع الأولى التى كتبت

عنه باللغات العربية (العقاد : رجال عرفتهم ص ٦٥) • واذا عرفنا أن العقاد لم يتلق دراسة الفلسفة على أساتذة يرشدونه على مواضع الكلمات واستخداماتها الجارية المتفق عليها أدركنا مقدار الصعوبات التي كانت تقف فى طريقه • ولكنه كان قادرا على نفضها واعطائها اللمحة اللغوية المؤدية باجتهاده الشخصى الخاص •

من هذا مثلا قوله فى مقدمة المطالعات « فقوام الأمرين فى نظرى أن نجعل من القانون حرية ومن القيود حلية ومن الثورة نظاما ومن الواجب شوقا وفرحا ومن الكاوس أو الهيولى عالما مقسما وفلكا دائرا • » والمعروف فى استخداماتنا الفلسفية اليوم ان الكاوس هو العماء أو هو المادة المهوشة المضطربة • فوضعها العقاد وسط عبارته بنطقها الأوربى مستخدما كلمة الهيولى بعدها كلفظ محدد أو مقرب • فالهيولى هى المادة التى لم تتشكل بعد على شكل معين أو هى المادة التى تتشكل بها مظاهر الوجود اذا اقتحمتها الصورة •

وقد تعود العقاد منذ شبابه المبكر أن يشتق الكلمات وأن يستخدم ألفاظ الفلاسفة العرب القدماء وأن يخلق المقابلات الحديثة للألفاظ المستحدثة فى أساليب الفلاسفة الغربيين • وصارت هذه شبه هواية استمرت معه الى آخر أيامه • وكان يناقش اختيار الترجمات العربية للألفاظ الأوربية فى المجمع بطريقة أذهلت كل أعضاء المجمع وجعلتهم ينصتون اليه فى اعجاب وحب حينما يبدأ فى عرض رأيه بخصوص كلمة من الكلمات • ولم يقتصر عمله فى المجمع على المشاركة فى مناقشة المصطلحات الخاصة بالفلسفة وحدها • بل كان العقاد عضوا فى كل لجان المجمع الخاصة بتحديد الألفاظ العربية واحتفى به زملاؤه الأطباء والمهندسون والعلماء والأدباء • وكان العقاد مذهلا لما بلغه من براعة فى الاشتقاق والاسناد والتوليد •

وكان العقاد أول من استخدم ألفاظ العالم الخارجى والذهنية والحكمة الآلهية وعالم الظواهر والشيء فى ذاته والتقرير والنقيض والتركيب • وهو أول من تعرض لفلسفة الالهيات فى تاريخها الطويل وتتبعها حتى عصرنا الحديث مستحدثا الكلمات والعبارات لكل ما يصادفه فى اللغات الأوربية • وهو أول من تعرض لفلسفة العلوم ومباحث المنطق وصار يتصيد لها الكلمات العربية المماثلة خلال صفحات كتابه عن فرنسيس بيكون وخلال شروحه لنظريات العالم الحديث فى الذرة والضوء

والسببية وتكوين العالم والخلاء والتطور وبين سـطور كلماته عن بلانك وهايزنبرج وشريدنجر واد نجتون ٠

وقد نفذالعقاد الى صميم جوهر الفلسفة حين أدرك أن قيام فلسفة عربية جديدة مرتهن بتمحيصه لآراء الفلاسفة وتفنيده لنظرياتهم ورفضه لمواقفهم ٠ عرف العقاد أن ميلاد فلسفته الخاصة متوقف على قدرته على نقض النظريات على طريقة الفلاسفة الكبار ٠فكل فلسـفة جديدة تحتم نقض فلسفة قديمة ومعارضتها بالأسلوب الذى يتيح للفلسفة الجديدة أن تثبت وتتقدم ٠ هكذا فعل أرسطو بفلسفة أفلاطون وهكذا فعـل كانت بفلسفة الأقدمين وهكذا فعل ديكارت وهكذا فعل هيوم ٠

ونشـوء الفلسـفة العربية الحقيقيـة عند العرب الأقدمين اعتمد أساسا على نقد فلاسفة اليونان ٠ وأهم وأبرز فلسـفة عربية أوجـدها الغزالى نفسه بمعارضته القوية لنظريات أرسطو ٠ فهذا هو الذى ساعد على ابراز عنصر الابتكار فى فلسفة العرب وهو الذى عاون فى تكوين اتجاه عربى أصيل شامخ ٠ فقد اشـتغل العرب بنقـل فلسفة اليونان وتحليلها وعرضها وتفصيل مذاهبها ٠ وقد أثبت اشتغالهم بالفلسفة على ذلك النحو مشـاركتهم الجـدية فى حقل الفلسـفة وخاصة حين أضافوا اضافات هامة الى مذاهب الفلاسفة اليونانيين ٠ ولكن الفلسفة العربية الأصيلة انما ظهرت بالمعارضـة والوقوف موقف النـد للند مع نظريات أرسطو وأفلاطون ٠ وهذا هو الموقف الذى يجعل من الفلسفة مجالا حقيقيا للخلق والابداع بما يلائم البيئة ويظهر طبيعة الفكر كمظهر أصيل عند أبناء الحضارة المعينة أو الاقليم المعين ٠ لا تظهر ملامح الفكر الفلسـفى الخاص بأبنـاء بلد من البـلاد الا بمـوالاة المعارضة لنظريات الآخـرين وفلسفاتهم ٠ لهذا كان كتاب منطق المشرقيين لابن سيناء ابتكارا عربيـا ولهذا كان تهافت الفلاسفة للغزالى كتابا فريدا فى اظهار مكونات الروح العربية وكيان الفكر الميتافيزيقى الاسلامى ٠

وقد فطن العقاد لهذه الحقيقة التى أنجبت خير جهـــود الفلاسفة الاسلاميين ٠ فطن العقاد لهذه الحقيقة وعاونه على أدائها فكر متوقد وثاب وذهن قوى نافذ ومنطق طبيعى سريع الالتفات الى مكامن الضعف والقـوة فى النظرية المعروضة ٠ كانت الحجة قريبة الى ذهنه وفى متنـــاول يده حيثما احتاج اليهـا ٠ فلم يعرض فلسفة قط الا وسلط عليهــا فكرته الأصيلة ولم يقم بشرح نظرية الا وكشف عيوبها وأوضح موقفه منهـا ٠ فكان ماثلا فى كل كتاباته كنمط وأسلوب شخصى فى تنـاول النظرية ٠

كان حاضرا فى كل موقف وفى كل رأى • وهذه الطبيعة القوية النافذة هى التى جعلت العقاد فيلسوفا وهى التى جعلتنـا نكسب ميلاد فلسفة مصرية أصيلة •

هذا من ناحية • ومن ناحية أخرى أخذ العقاد لنفسه سمة واضحة فى تيار الفكر العربى المعـاصر • جعل من نفسه المدافع الأكـبر عن كل عداوات تهدد كيان العروبة وحضارة العرب وفلسفة الاسلام • دافع العقاد عن كل مظهر من مظاهر الفكر العربى ، وصار سهلا ميسرا بالنسبة اليه أن يتعرض لأقوى النظريات المعارضة فيدحضها بمنطقه القـوى وحجته الناصعة • ولم يخش العقاد قط أن يبين عيوب النظريات مهما كانت درجة أصحابها وخطورتهم •

بهذا الموقف الفلسفى استطاع العقاد ان يقول شيئا ذاتيا أصيلا فى كل رأى وفى كل فكرة • هكـذا تكونت نواة الفـكر العربى المعاصر • فالفلسفة القومية الأصيلة لاتظهر بمجرد استعراض نظريات الآخرين وانما بالثورات الفكرية التى تناهض مذاهب قائمة وفلسفات معروفة • وفطنة العقاد الى هذه الحقيقة هى التى جعلته يفرض عقله وفكره فى كل ميدان حتى يستخرج منه مكنوناته • بهذه الطريقه استكمل العقاد فلسفة شاملة جديدة • وبهذه الطريقة استحدث موقفا أصيلا فى حماية الفكر العربى واستقلاله وانبثقت على يديه ملامح الفـكر العربى الخلاق • فهو يعارض ويوازن ويجتاز وهو يستلهم قدرة روحه فى استخلاص الموقف الأصيل المتفق مع تراثنا التاريخى وموقفنا الحاضر • عارض نظريات الغربيين ووازن بين حضاراتنا وحضاراتهم واجتاز مواقف الفلاسفة الى حيث أراد أن يشيد قواما خاصا بكل عقائدنا وعلومنا • وأهم من هذا كله أنه استلهم مواقفنا الفطرية فى اعتزاز وبغير خجل أو استخفاف وسـجل أعمق الخطوط فى أغوار روحنا العربية •

فكل رسالة فى عالم الفكر أو الروح ــ كمـا يقول العقاد ــ فهى رسالة توكيد وتقرير أو رسالة توسيع وتحويل • ويندر جدا أن نرى فى عالم الفكر والروح رسالة ابتداء وابتداع لم يسبق لها تمهيد طويل •

ويزيد العقاد هـذه الحقيقة توضيحا فى معرض حديثه عن رسـالة باكون العلمية فيقول : « ان الرسـالات الفكرية أو الروحية تسبقهـا رسالات من قبيلها تتناول أطرافها ومبادئها وتهيىء الأذهان لانتشـارها والتوسع فيهـا • فكل رسـالة كبيرة فهى بمثابة كتاب من أجزاء متعددة

تترقى من البداية الى النهاية جزءا بعد جزء ودرجة بعد درجة ، ولم يحدث قط أن رسالة فكرية أو روحية تعم الانسانية ولدت فجأة أو خلقت خلقا بغير سابقة تمهد لها الطريق وتهيىء لها الأذهان . »

ولا ينسى العقاد فى هذه المناسبة أن يحدد شخص الفيلسوف بأنه الذى يبحث ويعلل ويعمم ويراجع مذاهب الفلاسفة ويصحح ما يراه موضعا للتصحيح . فالفيلسوف فى نظر العقاد هو الذى يراجع مذاهب الفلاسفة ويصحح منها ما يراه موضعا للتصحيح . وهذا فى الواقع هو الموقف الذى أخذ العقاد به نفسه فى كل ما كتب فى باب الفلسفة . ولم يخل بحث من بحوثه من هذه الخطة التى نسجها بيديه واستنها لنفسه . أو بعبارة أخرى أخضع العقاد كل دراساته الفلسفية لهذا المفهوم الواضح المحدد لمهمته كفيلسوف .

هاك مثلا قوله فى تعليق على نظرية المعرفة عند باكون : « فان التعويل على التجربة والأحصاء عند باكون قد سول له أن يستخف بكل معرفة لا تصل الى الذهن من طريق التجربة والاحصاء . ومن ثم أنكر على كبار الفلكيين أن يطبقوا قضايا الرياضة على علم الفلك وما يرتبط به من المعارف الأرضية . وهذا مع تسليمه ببعض المعارف التى تدرك بالبديهة كمعرفة الناس مثلا أن أجزاء الشيء لا تكون أكبر منه . وأن اضافة المتساوى الى المتفاوت ينتج عنه كم لا يتساوى . وما يترقى من هذه الحقائق الى منزلة القواعد الهندسية . ولكنه كان فى انصرافه الى طريقة التجربة يعطيها من الشأن ما يسلبه من كل طريقة أخرى لأن الدعاة كالعشاق لا يحبون معشوقين على قوة واحدة فى المحبة » .

فالعقاد لا يوافق بيكون على أن التجربة والاحصاء هما سبيل المعرفة الوحيد . ويرى أن البداهة الرياضية والبداهة الوجدانية أو ما يسميه هو نفسه بالوعى الكونى سبل توصل العقل البشرى الى المدارك التى تخفى على حسه وملاحظته المباشرة . والوعى عند العقاد أعم من العقل المجمل وأعمق منه وأعرق فى اصالة وجوده مع الحياة الانسانية منذ نشأتها الأولى . واعتماد الانسان على الوعى الكونى أعظم جدا من اعتماده على القضايا المنطقية والبراهين العقلية .

ونظرية المعرفة عند العقاد أصيلة ومستمدة من مواقفه الروحية والمنطقية على السواء . وقد أسس فروعها على أساس نظرته فى طبيعة العقل البشرى وطبيعة السبل الانسانية الى المعرفة . ورأيه فى هذه النقطة

بالذات متوغل فى تفكيره منذ شبابه حين كتب يقول (ساعات بين الكتب ص ٢٥ جـ ١) : « قد يقال ان العقائد ترمز وتورى وأن الآراء تتناول الأشياء مباشرة بغير رمز ولا تورية ٠ وهذا انما يكون صحيحا لو كنا نعرف شيئا واحدا فى هذا الكون معرفة مباشرة بغير رموز ولا توريات ٠»

ويشبه موقفه ذاك رأى الفيلسوفالفرنسى المعاصر جاستون باشلار صاحب مذهب المادية العقلانية ٠ فهذا الأخير يؤمن بضرورة تناول حقيقة العالم من جديد مرة بعد أخرى طالما أنها قائمة تحت مسئولية العقل ٠ والعقل لم يكف عن اتباع النزعة غير العقلية حتى يتوصل الى درجة أعلى فى العقلانية ٠ ولو بقى العقل فى حدود المعقول لانتهى الى الرضا بما بلغه وأدرك الغبطة بنجاحه واكتفى بجهوده عند هذا المستوى ٠ ولكن العقل لا يكف عن السعى والبحث والتنقيب ٠ فاننا نملك على حسب تعبير باشلار القدرة على استيقاظ المنابع ٠ ففى قلب كل انسان يوجد منبع لا ينضب وهو منبع الأحلام والتصاوير والأوهام ٠ ودوام هذه القدرة الأصيلة هو الذى يدفع بالعقل الى انكار النفى والتمسك بالنقد وأساليب الاستنباط والى عدم الاكتفاء بمراحل الكسب والتمام ٠

ويتناول العقاد نفس الموضوع فيقول (نفس المرجع) : « ولكن الحقيقة أن المعرفة المباشرة مستحيلة وان كل منظر نراه أو نغمة نسمعها أو خاطر نحس به ان هو الا رمز ظاهر لحالة باطنة لا يستطاع استكناهها والنفاذ الى حقيقتها ٠ فما اللون وما الصوت وما الفكر ، بل ما المادة نفسها التى نعيش فيها ومنها وبها الا رموز لحركاتيخفى علينا كنههاويستحيل علينا كل الاستحالة أن نباشرها فى ذواتها ٠ ولك أن تقول : ان النظر الى اللون الأحمر مثلا هو نوع منالايمان الرمزى يريك الصورة ولا يريك الحقيقة ٠ وان العقيدة فى آلهة الماء والبراكين عند قدماء الأمم هى نظر رمزى كذلك كان يعوزه سداد التحقيق ودقة الرمز والتعبير » ٠

ومع ذلك ينقض العقاد على الماديين فيكشف خلال عرضه لنظرياتهم قدرته المنطقية القوية فى تفنيد مذهبهم وفى الدفاع عن وجهات نظره التى تتضح شيئا فشيئا خلال عباراته ٠ فالعقاد يؤمن بأن الحكم العقلى المستقيم يقضى بأن نفهم ان ثمة قاصدا مريدا وراء القصد الذى يحققه العمل ٠ وهو يستند الى مبدأ الاقتصاد فى الفكر على نحو من الأنحاء حين يقول فى كتاب «الله» : « وخلاصة الرأى فى برهان الخلق أن القول بأن الحياة والعقل من عمل حى عاقل قضية عقلية لا غبار عليها وأن القول بأن

المادة هى مصدر كل شىء فى الكون يلجئنا الى فروض لا يقرها الحس ولا للنطق ولا توافق القسطاس الذى جعله الماديون مرجعا لجميع الآراء والاحكام وهو قسطاس المشاهدة والدليل المحسوس » • والقول بأن المادة تتجه الى التركيب ، فتنبثق الحياة منها ضرورة فى بعض الأطوار ليس فيه تفسير لظهور الحياة ، بل كل مافيه أنه وصف للظواهر الحية التى يقع عليها الحس ونعرفها بالاختبار • انه مجرد تسجيل للظواهر المحسوسة واعتبار وجودها تفسيرا لأسباب هذا الوجود • ولكن هذا القول لايفسر لنا اختصاص بعض الأجزاء بظهور الحياة فيها دون جميع الأجزاء التى تشتمل عليها الأكوان فى الأرض والسماء •

مهمة العقاد فى الأدب

أرأيت حين نذرت ، ودعـا النوى فدعوت ؟
من ذا الذى لباك ؟ من ذا أجاب مناك ؟
قديسة عطفت على المكنون من نجواك
ووعدتها فوفيت

قديسة سمعت لنا وسعت لتجمع بيننا
من ذا يعيب هواك ؟ من ذا اذن يلحاك ؟
والعذر عذر صبابتى والحق حق صباك
كذبوا اذن وصدقت

بالشمع كم أغريتها .. أتراك أنت خدعتها ؟!
كلا . وما أفواك .. فى خدعة وشباك !
فالنور لب غذائها والنور صفو رضاك
شغفت به وشغفت

نشر العقاد هذه القصيدة وعنوانها النذر المقبول عقب عودته من السودان فى أغسطس عام ١٩٤٢ . وما قرأت هذه القصيدة مرة الا أحسست احساسا عميقا بمعنى شاعريته . بل أحسست كذلك بمقدار

الفوارق التى تفصل شاعرية العقاد عن كل ما عداه • وبدا لى أن أنظر على اثر قراءتها فيما قاله مرة عن الشعر الزائف والشعر الصحيح فقرأت قوله : (ص ٧٣ ـ ٧٤ من ساعات بين الكتب جزءان فى مجلد) : « كيف نميز بين ضروب الاحساس ؟ فالاحساس القويم الصالح موجود ينعم به أو يشقى به أناس كثيرون • والشعر الجيد الصحيح موجود كذلك يقوله الشعراء ويقرؤه القارئون • ولكن التمييز بين احساسين كالتمييز بين شعرين أمر يرجع الى شخص المميز وملكاته واطواره ومطالعاته وليس الى قاعدة مرسومة ومعرفة كالمعرفة الرياضية التى لا تختلف بين عارف وعارف • وللتعليم فى هذا الأمر حظه الذى لا ينكر وأثره الذى لا يذهب سدى • فأنت تستطيع أن تضرب الأمثال وتبين للمتعلم المثل الجيد والمثل الردىء فيفهم عنك ما يفهم ويستعين بالأمثال على القياس والمقابلة • ولكنك لا بد منته معه الى حد يختلف فيه نظره ونظرك ويتباعد فيه حكمه وحكمك • ولن تستطيع أن تعطيه كل وسائل نقدك للشعر الا اذا استطعت أن تعطيه كل وسائل احساسك بالحياة » •

وقد نظم العقاد القصيدة السالفة فى موقف بسيط • كان قد سافر الى السودان فى أثناء اشتداد هجمات الألمان غرب الاسكندرية وودعته محبوبته قائلة : انها دعت الله أن يجعل عودته قريبة ونذرت بضع شمعات للسيدة زينب اذا آب سليما معافى • وعاد العقاد فأوفت محبوبته بالنذر ونظم هو القصيدة فى هذا المعنى •

ولم أشأ أن أسوق هذه القصيدة الا كمثل على الاحساس الشعرى الذى جاهد العقاد من أجل الدعوة له وتدعيم وسائله فى نفوس الناس • ومن محض الادعاء بل ومن محض الوهم أن يكون مثل هذا الشاعر مجهول القدر فضلا عن أن يكون موضع انكار للشاعرية • وكأنما صدق الناس حين قالوا انه لا كرامة لنبى فى وطنه • فالعقاد وهو رسول الشاعرية تنكر شاعريته • واعتقادى الحقيقى فى مثل هذا الموضوع هو أن العقاد كان شيئا غريبا فى تاريخ بلدنا الفكرى • كان شيئا غريبا لأن بلدنا لم تعرف الشعر قط فى تاريخها الطويل • وأول شاعر حقيقى نشأ فى ربوعها هو العقاد وأخشى ما أخشاه أن يكون آخر شاعر أيضا حتى اليوم على الأقل •

وقد تنبه العقاد الى هذه النظرية (كتاب ساعات بين الكتب ص ١٠٥) فقال : « تنوعت عبقريات العرب والانجليز والألمان والبولونيين وأمم أخرى فى الشرق والغرب وفى القديم والحديث • فما

شأن مصر يا نرى بين هذه العبقريات وما نصيبها من الشعر خاصه ، ومن وسائل الاعراب الاخرى عن ذوات النفوس ؟ وهل شعرها من شعر العبقرية والطبع العميق أو هو شعر الحس والألفاظ والأصداء ؛ خطر لى هذا السؤال مرات • خطر لى حين وقفنا بين القديم والجديد فى الأدب وعلمت أن اصلاح أدب أمة هو اصلاح لحياتها ومعيشتها وأن تغيير مقاييسها الفنية هو تغيير لكل ما فيها من مقاييس الفطرة والادراك والشعور • ورجعت الى مصر القديمة لأعرف جوابها على هذا السؤال فاذا آلاف السنين مضت فلم تنجب شاعرا واحدا عظيما • ونظرت الى العصور الحديثة بعد الاسلام فلم أعثر بشاعر واحد • ونظرت الى العصور القريبة فأحصيت من نظم شعرا فى مصر منذ خمسين سنة فاذا هم كلهم الا قليلا يرجعون الى أنساب غير مصرية • .وأغرب من هذا انك لا تجد فى هؤلاء واحدا يثابر على النظم بعد الثلاثين أو الأربعين • كأنما هى شاعرية الشباب وليست بشاعرية البيئة وسليقة القومية التى لا تفتأ فتية فى الانسان طول الحياة • وأدهشنى فوق كل هذا أنك تلقى بعض شباب المصريين الذين درسوا فى معاهد الغرب واطلعوا على طرف من آدابه فتلفيهم على جهل بالأدب ومقاييسه الصحيحة يحيرك ويخلف رجاءك • ولكننى مع هذا لم أجزم برأى ولم أبرح أحس فى نفسى الشك فيه والميل الى انكاره • وما عدل بى عن ذلك الحكم الجازم الا منظر واحد يزاه فى مصر كل من عرف الصعيد وعاش فى بقايا مصر القديمة بين اقليمى أسيوط وأسوان • وذلك المنظر هو حلقات الانشاد فى الليالى القمراء بين ظلال النخيل •

« من شهد تلك الحلقات ومن سمع ذلك الغناء ومن لمس ذلك الجذل المحزون فى قلوب أبناء تلك الأقاليم ومن سمع الأرغول يحن حنينه ويعول أعواله ويستخف فى رزانة ويرزن فى خفة وسهولة ومن أحيا ليلة من ليالى الصيف القمراء بين تلك الظلال على تلك الرمال صعب عليه أن يستمال الى الدلائل التى تنكر الشاعرية على سليقة المصريين • ولقد تروعك بين تلك الأغانى الساذجة لمعات كخطف البرق من متعة الحياة وسكر الطبيعة وحنين المجهول يرتفع الى ذروة الشعر وتومض بين اسمى الجواهر التى تجلوها قرائح العبقرية والالهام • فتؤمن أن المنجم غني والمعدن نفيس وأن شعرا هنا مخبوء يستحق أن يكشف عنه ويستمع اليه • وهى على ما نظنها خصائص الروح المصرية فى الصميم لأنها تتردد بين طرفى المزاج المصرى من الكآبة الساهية والمرح الراقص » •

فهنا احتكم العقاد فى رأيه الأول الى احساسه بالشاعرية واتخذ لنفسه موقفا ثم أدخل عليه احساسه بالمسئولية فعدل من كلامه وخفف من حكمه وعاد بريق الأمل الى قلبه • وعلى هذا النحو ظل العقاد رفيقه بالبراعم الشاعرة حتى أخريات أيامه مدفوعا برجائه فى أن تبلغ الأمة المصرية مرتبة الاحساس الصحيح وأن تعيش فى هذا الكون الانسانى وبمسئوليته نحو الشباب الطامح المنوط بالرجاء والأمل •

وقد حاول العقـــــاد أن يدفع الى الامام بعجلة التقدم فى الأدب والشعر عن طريق تثبيت الدعائم والأسس والمقاييس التى تعم الآداب كلها ولا تخص أحدا من الشعراء أو الكتاب والتى تعين على فهم الشعر على حقيقته وادراك معدنه • ووضع لذلك بيانا مشهورا فى سنة ١٩٤٧ (العقاد : مقاييس وأصول فى النقد والشعر ـ الرسالة ـ العدد ٧١٩ فى ١٤ ابريل ١٩٤٧) أودعه ما أسماه بالمقاييس الخالدة التى لا سبيل الى التشكيك فيها بحال من الأحوال •

فالمقياس الأول أن الشعر قيمة انسانية قبل أن يكون قيمة لفظية أو صناعية • فما من أمة على وجه الأرض الا وهى تنظم الشـــعر على اختلاف اللغات والأوزان • وهى لا تنظم الشعر لأنها تتكلم بهذه اللغة أو تلك وتعرف هذا الضرب من العروض أو ذاك • ولكنها تنظمه لأنها كائنات انسانية حية تجمعها كلها سليقة الانسان ونوازع الحياة •

فأول مقياس للشعر الصادق الرفيع انه يحتفظ بقيمته الكبرى اذا ترجم الى جميع اللغات • لأنه يرجع الى الطبيعة ولا يجعل مرجعه كله الى أعاريض الأوزان أو موقع الألفاظ فى الآذان •

نعم ان الموسيقية اللفظية مزية من مزايا الشعر فى كل لغة من اللغات • ولكنها اذا كانت هى مزيته الوحيـــدة أو مزيته الكبرى التى لا ينهض بغيرها فأول ما يفهم من ذلك أنه كلام منفصـــــل من الطبيعة الانسانية وأنه صناعة محض وتلفيق من الألفاظ والأوزان وليس من الشعر الانسانى الخالد فى طراز رفيع •

والمقياس الثانى أن الشعر تعبير عن نفس صاحبه وان كان وصفا لغيره •

فاذا قرأت ديوانا كاملا من الشعر وجب أن تعرف صاحبه وتتمثله فى دخائل طبعه ونوازع سريرته وأطوار حياته • واذا تتبعت غزله مثلا

فى أطوار تلك الحياة وجب أن تتمثل لك سمات حبه وسمات محبوبه فى كل طور من تلك الأطوار • فلا يكون الشعر تعبيرا عن نفس حية اذا كنت تجهل تلك النفس حين تقرأ ديوان صاحبها ولا تستخرج لها من ديوانه ترجمة حياة داخلية لا يعوزهـــا شىء من الأرقام والأعلام • ولا يكون الشعر تعبيرا اذا كنت تقرأ غزل الشاعر كله من صــــباه الى شيخوخته فلا ترى فيه فارقا بين محبوب ومحبوب ولا بين عاطفة وعاطفة ولا بين شباب ومشيب •

ولا يكون الشعر تعبيرا اذا كان صاحبه يزعم لك أنه معطيك صورة من الأحياء والجمادات وهو لا يعطيك صورة من نفسه • وانما هذا صناعة وفقر فى نوازع الحياة لا يبلغ بقائله من القوة أن يميزه شخصا كاملا بين غيره من شخوص الأحياء •

والمقياس الثالث للشعر الصــادق أن القصيدة بنية حية أو بنيــة عضوية يقع كل جزء منها فى موقعه الذى لا يغنى فيــه غيره كما تتآلف الأجسام من الجوارح والأعضاء • فاذا عالجتها بالتقديم والتأخير ماتت كما يموت الجسم الحى الذى تضع قدميه فى موضع رأسه أو رأسه فى موضع قدميه •

أما اذا جاز لك أن تبعثرها شذر مذر ثم تعيدها فى كل مرة على وضع جديد فهى اذن من عالم الجماد لا من عالم الأحياء • بل هى من عـــالم الجماد الذى لا فن فيه ولا تنسيق له ولا معنى لتركيبه • لأنك لا تستطيع أن تصنع هذا الصـــنيع بجماد كالتمثـــال أو جماد كالدولاب أو القدح المنقوش •

وأحس العقاد بحاجة هذا البيان أو هذا « المانيفستو » الشــعرى على حد تعبير النقاد الفرنسيين الى مزيد من التوعية فى مشكلة الوجدان والتفكير • فأتبعه بمقـــــال يستكمل به النقص فى معالجة هذه النقطة الهـامة فى تركيب الفن الأدبى ضــــمن نقاط البيان • وكتب فى ســنة ١٩٤٧ أيضا (العقاد : الأدب بين الوجدان والتفكير ــ الرسالة ــ العدد ٧٣٣ فى ٢١ يوليو ١٩٤٧) يقول : « اذا قلنا ان الأدب يختص بالوجدان ففى هذا القول جانب كبير من الصواب • ولكننا اذا قلنا هــذا وسكتنا عليه فقد يفوتنا أكثر الصواب وكأننا لم نقل شــيئا يجمع الفائدة من المعنى المقصود فى هذا الباب • فليس شرط الوجدان أن يكون مقصورا على أجهل الناس وأعجزهم عن التفكير • لأننا لا نرادف بين معنى الجهــل ومعنى الوجدان فى اللغة ولا فى مصطلحات الفنون والعلوم •

والأدب الرفيع لم يخل قط من عنصر التفكير . وشاهدنا على ذلك أدب الفحول من شعراء الأمم العالميين ومنهم أمثال شكسبير وجيتى والخيام وأبو الطيب . ونخص الشعراء بالذكر لأن صدق هذه الملاحظة فيهم يجعلها أقمن بالصدق على الأدباء الناثرين .

فأغانى شكسبير مثلا سلسلة من الأفكار التى يمتزج فيها الفهم بالشعور . ودع عنك قصائده التى نظمها فى الروايات أو اجراها على ألسنة الرجال والنساء . فان شعر الأغانى أحق شعر أن يقصر على الوجدان اذا صح ما يفهمه بعضهم من الأغراض الوجدانية وخلوها من التفكير .

وقصة فاوست الكبرى وهى أعظم أعمال « جيتى » هى فلسفة الحياة والبقاء ، وفلسفة الخير والشر وفلسفة المعرفة والضمير . وليس فهمها بأيسر من فهم قضايا المنطق أو معادلات الرياضة والكيمياء .

ورباعيات الخيام يصح أن تسمى فكر الخيام لأن الرباعية منها تدور على فكرة أو خلاصة أفكار ولا يمنعها الشعور أن تكون شعور انسان من المفكرين .

والحكم على المتنبى ميسر لمن يقرأ العربية وحدها ولا يقرأ غيرها من اللغات . وليس فى قصائد المتنبى قصيدة واحدة يقول القائل انه أهمل الفكر فيها أو أنها وجدان بغير تفكير .

ومن الحقائق التى تحضر فى هذا السياق أن نقص الفكر ليس بزيادة فى الحس والوجدان وأن زيادة الفكر لا تمنع الانسان أن يحس وأن يتسع وجدانه لأوسع آفاق الحياة . فقد ينقص فكر الانسان وينقص حسه على السواء . ومزية الانسان دائما أن يحس أنه يفكر وأن يفكر انه يحس وأن يكون نصيبه من الانسانية على قدر نصيبه من الفكر والاحساس . فليس هو بانسان كامل اذا خلا من التفكير ولا يكون الأدب كاملا وهو يعبر عن انسان ناقص فى ألزم مزاياه .

وبعد ، فان الاحساس طبقات وليس بطبقة واحدة بين جميع الناس . وكل طبقة من هذه الطبقات فهى لغز مغلق بالنسبة الى من يقفون دونها ولا يرتفعون اليها . فاذا عبر أحد منها عن شعوره ولم يفهمه الذين يقصرون عنها ويهبطون دونها فليس ذلك بمخرجه من أفق الشعور الذى هو فيه ولكنه يخرجهم هم من ذلك الأفق الرفيع .

ولعلنا بحاجه الى التنبيه الى سخافة شـائعة فى مصر والشرق بين أدعيـاء الاحسـاس ممن لا يحسون ولا يفكرون • وهى اعتقادهم أن الاحساس والتخنث مترادفان • ويوشك أن يموت الانسـان عندهم من فرط الاحساس لأنه يحس فى زعمه بمقـدار ما يتراخى ويتخاذل ويئن وينوح !

ونخلص من هـذا جميعه الى قول واحد يحمل جميع الأقوال فى الفن والأدب • وهو ان الفن والأدب وجدان ولكنه وجدان انسـان • ولا يكمل الانسان بغير ارتفاع فى طبقة الحس وارتفـاع فى طبقة التفكير • فلا يخلو الأدب المعبر عنـه من هذا وذاك ولا يقاس نصـيبه من الحس بمقدار نقصه فى التفكير • ولا يقال انه أحس تماما لأنه لم يفكر تماما بل يقال : ان التمـام فى مزاياه الانسـانية أن يتم له الحس ويتم له التفكير » •

والواقع أن العقاد لا يغالى قدر أنملة فى هذا الاتجاه • ولا يخشى أن يسوقه هذا المنحى الى الوقوع فى براثن التفلسف المحض • لأن العقاد يملك قدرة على الفحص والفهم تجعله سريع الفرز والاصـابة وشـديد الحيطة من التردى فى هاوية أدب التفلسف المصـطنع • فكما سـبق تنبيهنا الى مدى اهتمامه باسقاط انفعالاته على صورة حركة محسوسة فى الفصل الخاص بشعره والى مدى تعلقه بنظرية الشعر العضوى المتماسك تماسك الأنسجة الحية •• يمكننا أن نضيف الى ذلك أن العقاد قد فطن دائما الى ماهية الفلسفة فى حد ذاتهـا ، وماهية الفن الخالص • فطن العقاد الى ذلك وسار دائما على هدى احساسه بالفارق الجوهرى الأصيل بين الميدانين •

يقول العقاد (العقاد : الفلسفة والفن ـ مجلة الكتاب نوفمبر سنة ١٩٤٧) : « الفلسفة تجريد والفن تجسيد • فهما على هـذا التعريف نقيضان أو طرفان متقابلان • أو هما على الأقل شـيئان مختلفان • وقصارى القول فى هذه المسألة أن الفيلسوف لا يشغل مكان الفنان والفنان لا يشغل مكان الفيلسوف على أية حال • والسبب الأصيل الذى ترجع اليه تقديرات الفلاسفة فى الحكم على الفن هو موقفهم من قيمة المحسوسات بالنسبة الى الحقائق • فأنت تعرف رأى الفيلسـوف فى الفن اذا عرفت رأيه فى المحسوسات ومبلغ دلالتها على الحقيقـة لأن الفن لا ينفصل عن المحسوسات • والفلسفة لا تنفصل عن طلب الحقيقة فى أصول الأشياء

أو فروعها • فلا قيمة للفن فى نظر فيلسوف من الفلاسفة أكبر من قيمة الحقيقة التى يدل عليها •

واننا نرتقى فى تقدير الفن كلما ارتقينا فى تقدير الحس والبداهة وفى العلم بوظيفة الخيال • فليس الفن مقيدا بالحس والمدركات الحسية وليس الخيال خداعا منعزلا عن حقائق الأشياء بل هو وظيفة مبدعة تنفذ من أسرار الخلق الى الصميم » •

وكان العقاد شديد الحرص على الفصل بين عمله الشعرى وعمله الفلسفى • وكان شديد الوعى لحقيقة الاختلاف الجوهرى بين طبيعة هذين الميدانين • « ومن البديه أن العربى لا يرجع الى الشاعر ليسأله عن المذاهب الفلسفية ذات الشروح والحواشى وذات العلل والنتائج • ولكنه يرجع اليه ليجد عنده شيئا أصح وأقرب الى حسه وفهمه وعمله • يجد عنده شخصيات حية تتمثل فى كل منها صورة من صور الحياة كما هى وكما يتمناها » (العقاد : اللغة الشاعرة ـ مزايا الفن والتعبير فى اللغة العربية ص ٨٦ ـ مكتبة الانجلو سنة ١٩٦٠) •

« وعلى هذا النحو كما يقول العقاد (نفس المرجع ص ١٠٢) يفتح الشعر للعربى متحفا حافلا بأنماط الحياة ويصور بها القيم الأخلاقية فى شخصية تتناسق وتتجاوب فى سلوكها وفى تعبيرها عن هذا السلوك • واذا تعددت أمام العربى هذه الأنماط فهى لا تحير فكره ولا تبلبل خواطره كما تحار الأمم التى تتلقى الأيديولوجية من مذاهب الفلاسفة بين الجدل والمناقشة •• كلا •• لا حيرة فكر هنا ولا بلبلة خاطر ، لأن السليقة العربية تواجه هذه الأنماط بحسها ووعيها ، وتختار منها كل ما اقترب منها واستوضحته بظروفها وأطوارها » •

ثم عاد يقول (ص ١٠٦ نفس المرجع) : « ومكان الشعر العربى فى الأيديولوجية انه أكثر من أدب ، وأنه تعبير عضوى عن الحياة الباطنة : فهو تنفيس حر عن الوجدان فى قضاياه الخاصة والعامة ، ولا صدام فيه لأنه منوع كثير الأنماط يناسب حالات كثيرة من النقائض التى تعرض للانسان » •

الى هنا استعرضنا جميع الجوانب التى استقرت عليها نظرية العقاد فى الأدب وأوضحنا أهم ملامح مهمته فى هذا الميدان ، ولكن بقيت نقطة هامة تخص صناعة الشعر ذاته من حيث موسيقيته • وقد جاءت أقوال العقاد الفاصلة فى هذا الشأن على صفحات كتابه عن اللغة

الشاعرة (ص ١٤٦ وما بعدها) حيث يقول : « اذا نظرنا الى ما تم من أشكال العروض وما يتأتى أن يتم منها مع التنويع والتوزين ثبت لنا أنها قائمة على أساس صالح للبناء عليه وتجديد الأنماط والأشكال فيه على نحو يتسع لأغراض الشعر ولا يلجئنا الى نقض ذلك الأساس •

« وهذا كله مع التسليم بداهة بالتفرقة بين الكلام المنثور والكلام المنظوم في السهولة أو الصعوبة • فان التسهيل المطلوب لفن من الفنون كائنا ما كان ينبغي أن ينتهي عند بقاء الفن فنا مقرر القواعد والمقاييس• وما جهل الناس قط أن الكلام أسهل من الغناء ، وأن المشى أسهل من الرقص ، وأن الحركة المرسلة أسهل من الحركة الرياضية • ولم يكن ذلك قط مسوغا للاستغناء بالكلام عن فن الغناء أو بالمشى عن فن الرقص • أو بتحريك الأعضاء بغير هدى عن أصول الحركة الرياضيـــية أو الحركة فى ألعاب الفروسية •• فمهما يكن من تيســـير الأوزان بالتنويع والتوفيق فلا مناص فى النهاية من التفرقة بينها وبين الكلام المرسل فى ســـهولة الأداء • وانما المطلوب أن تكون فنا سهلا وليس المطلوب مجرد السهولة التى تخرجها من عداد الفنون •

« فاذا ترخص الشاعر الغربى فى القواعد فأسقط القافية واختار الوزن الذى يسمونه بالنظم الحر أو النظم الأبيض •• فجهد ما بلغوا اليه أنهم عادوا الى الأسطر المتوازنة أو الى الاكتفاء بالمقــاطع التى لا تبلغ فى دقتها مبلغ الأسباب والأوتاد والفواصل • وكل أولئك طور من الأطــوار التى تخطاها الشعر العربى فى الأزمنة الماضية أو سبقتهم اليه أمة من الأمم الشرقية وتوقف بها التطور عنده لارتباطه بالتقاليد الدينية » •

وقد نبه العقاد الى أهمية هذا الوضع ووضح نظرته توضــــيحا لا لبس فيه عندما تعرض لموضوع التجديد فى الشعر (العقــاد : كيف يكون التجديد فى الشـــعر • مجلة الكتاب يونية ١٩٥٠ دار المعارف) بعدد من مجلة الكتاب اختص بموضوع الشعر • فالعقاد يرى أن تنويع القوافي أوفق للشعر العربى من ارساله بغير قافية ، والشعر فى اعتقاده يقبل التنويع فى أوزان المصاريع والمقطوعات على أسلوب الموشحات• فيتسع الشعر بذلك للمعانى المختلفة والموضوعات المطولة ولا ينفصل عن الموسيقية التى نشأ فيها ودرج عليها• ونحن مجددون غاية التجديد كما يشير الى ذلك العقــاد اذا خرجنـــا بالشـــعر العربى من لحن الربابة الى لحن الفرقـــة الموسيقية •

ولا أجد فى نهاية هذا الفصل كلمة أختم بها رأى العقاد فى مشـــكلة القديم والجديد أوفق من كلمة ختم هو نفسه بها مقالا نشره عن الاتجاهات الحديثة فى الأدب المعاصر سنة ١٩٤٥ (الرسالة ـ العدد ٦٠٦ فى ١٢ فبراير ١٩٤٥) . قال العقاد «من الناس اليوم من يوصف بالابتكار والجرأة لأنه يستمسك بقـــديم كان الاستمســـاك به وقفـــا على الجامدين . ومنهم من يوصف بالجمود والمحاكاة لأنه يعجل الى الجديد الذى يستحب على سنة التقليد . ولعل الحقيقة المقبلة هى التى يكتب لها أن تثبت قدم الاستقلال وتطلق الآراء من حجر القديم والجديد على السواء » .

مهمة العقاد في اللغة

من عبارات العقاد التي مهد بها لكتابه في بيتي : « اننا خلقاء أن نتجرد من فعل العـــادة ولو لحظة عابرة لننظر الى هذه الظاهرة من جانب غرابتها لا من جانب ألفتها » .

ومن عباراته أيضا التي تصـــــور منهجه في التفكير (العقـــاد : في بيتي ص ١٤) : « ولكنني أحب من حين الى حين أن أستغرب ما آلف وأن آلف ما أستغرب » .

وقد سبق أن اكتشفنا ملامح الأسلوب الظاهرى فى دراسة العقاد للغة الشاعرة . ونعود الآن لنقرر أن هذه الطبيعة المنهجية لدى العقاد قديمة ترجع به الى فترة تأليف كتابه فى بيتى . وهـــذه الطبيعة فى النظر هى التى جعلت دراسته للغة العربية غاية فى النجاح وفى التفرد والابداع .

ولكن العقاد لا يكتفى بهذا المنهج وحده ولا يقف عند حد الاستفادة التلقائية منه فى ترسم خطى التطور والنمو فى رسوم اللغة ومعالمها . وهو يستخدم هذا المنهج حين يحب استلهام حقائقها والوقوف على منابع الجمال فيها وملامح الدقة فى أدائها . ولذلك ينتقل بعد هذا الى الدراسة العلمية التى توافق علوم الألسنة الحديثة ويبحث اللغة العربية وفقا لما

توصل اليه من علامات القوة والحيوية فيها ، وقياسا الى قواعد اللغات وعلوم اللسان فى العصر الحاضر • وبهذا الاتجاه الجديد لا يغفل العقاد فلسفة اللغة ويضيف اليها أيضا المستحدثات والنتائج الناجمة عن البحث العلمى الدقيق • أى ان العقاد فى بحوثه للغة تطور من فلسفتها الى علومها فجمع بين نظرة الأسلوب الفنى والفلسفى للغة كتعبير وبين نظرة العلم الى القواعد والأصول • واذا كانت النظرة الفلسفية تشبه أبعاد اللوحة أو الصورة لالتماس مواقع الاحساس الاجمالى أو التركيبى فيها فالنظرة الدراسية للغة على ضوء الأسس العلمية تشبه عملية الاقتراب من اللوحة لاكتشاف جزئياتها تفصيلا بالأسلوب التحليلى فالنظرة الأولى هى نظرة السليقة اللغوية والنظرة الثانية هى نظرة الفقه اللغوى• أو بعبارة أخرى النظرة الأولى للدهشة والتساؤل والنظرة الثانية للبحث والاستقصاء • لهذا أعانته النظرة الأولى على النفاذ الى جوهر اللغة ولبابها وأعانته النظرة الثانية على احصاء الملابسات والأعراض •

وأهم اتجاه علمى فى علوم الألسنة الحديثة هو الاتجاه الذى ينكر فكرة دراسة تاريخ اللغة على أساس صوتى • وهذا الاتجاه يرفض اعتبار الكلمة حقيقة صوتية أو « فونتيك » • ومع هذا كما يقول «أولمان» فيمكن التحقق منها وفهمها بسهولة فى سياق الكلام • فهى تنشىء وحدة نفسية نستطيع التعرف عليها عن طريق الدلالات المنوعة مثل تكرار أصوات معينة فى نظام متساوق وشكل الحروف وحركية الكلمة داخل العبارات والعنصر المشترك للتوليفات السيمية (السيمانتيك) التى تتمثل فيها • (راجع كتاب أولمان : مختصر فى السيمية الفرنسية ص ٧٩) •

ويذكر العقاد القواعد العامة التى تعمل فى تطور اللغات جميعا • من هذه القواعد العامة أن الكلمات الانفعالية التقليدية أسبق من الكلمات الارادية الفكرية • ويريدون بالكلمات الانفعالية ما يصدر عن الانسان عفوا من الأصوات والصيحات التى تعبر عن الفرح أو الفزع أو الدهشة وما تكون الكلمة منه أحيانا من قبيل المحاكاة الصوتية كاسم البلبل والكوكو والفاظ الدق والقطع والوسوسه وما جرى مجراها • (العقاد : اشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ١١٧) •

ويريدون بالكلمات الارادية الفكرية ما يقصده المتكلم ويجرى فيه على القياس والاستعارة واطلاق القاعدة الواحدة على المتشابهات لفظا ومعنى•

وأكمل اللغات على سنة التطور والتقدم تلك اللغات التى انتظمت قواعدها الصوتية وقواعدها الصرفية وقواعد التراكيب والعبارات ·

ثم يضاف الى الظواهر الصوتية فى قياس تطور اللغات ظاهرة التمييز والتخصيص فى الصفات اجمالا وفى المفردات على التعميم · فقيام اللغة على القواعد الفكرية دليل يثبت لها السبق على لغات الارتجال الجزاف فى وضع الكلمات سواء بالمحاكاة الصوتية أو بالتكرار على غير قياس ·

فالعقاد يعدد القواعد العامة ثم يؤثر الموقف الأخير الخاص بالنظر الى المفردات عن طريق الدلالات المنوعة ويهمل النظرة الصوتية ·

وقد ذهب العقاد الى تأكيد هذا المذهب الأخير الذى أيده الاستاذ أولمان حين قال (العقاد : اشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ١٧) : « ولكننا نحسب أن المقابلة بين الكلمات لا تؤدى الى نتيجة يحسن السكوت عليها فى هذا الباب وانما نفضل على وسيلة المقابلة بين الكلمات وسيلة سهلة نرجع فيها الى كل لغة على حدة فلا يصعب علينا بعدها أن نحكم على حظها من التقدم بالقياس الى غيرها :

« تلك الوسيلة هى اشتقاق أسماء الحيوان فيها · فان اللغة التى ترجع الأسماء فيها الى مصدر مفهوم من مصادرها تسبق اللغات التى تتلقى هذه الأسماء جامدة أو منقولة بغير معنى يؤديه لفظها الدال عليها فى أحاديث المتخاطبين بها » ·

ولهذا السبب العلمى اتجه العقاد الى اثبات أن اللغة العربية هى أقدم اللغات الحديثة · فأسماء الأسد والكلب والنسر والصقر والغراب والفرس والحمار والبغل والجمل والخروف وعشرات غيرها من أسماء الحيوان هى كلمات ذات معنى يفهمه المتكلمون بها ويطلقونه احيانا اطلاق الصفات عند المشابهة بين هذه الحيوانات وبين غيرها فى احدى صفاتها ·

يقال أسد الكلب للصيد أى أغراه بالصيد · ويقال أسد عليه أى اجترأ · ويقال ان فلانا أسد بين القوم أى أفسد بينهم ·

ومعنى هذا على كل احتمال فى سبق الكلمة اللغوية أو سبق الاسم أن العرب عرفوا هذا الحيوان وهم يتكلمون بلغتهم هذه ويستخدمونها للوصف أو للاشتقاق والمجاز ·

وكذلك معنى الكلب من العض أو القبض وسائر معانى التكالب والفاظه ·

والنسر من الجرح والنقض والتمزيق لفظ أصيل فى اللغة على الحقيقة أو على المجاز ·

والصقر من الحدة فى الحرارة أو فى الطعم أو فى اللمس أصل صالح لاطلاقه على الطائر المسمى باسم الصقر أو الموصوف بهذه الصفة ·

والغراب من الغربة والايذان بهـا · والفرس من حـدة النظر والاستعانة به على الافتراس ·

والبغل من مادة فى اللغة العربية أصـيلة فى معنى الخلط والنسب المدخول وكل ما هو مدخول غير صالح أو صريح ·

والجمل من مادة الجمل بمعنى الضخامة · والخروف منسوب الى موعده فى الخريف ·

وهكذا عشرات الأسماء التى تدل على وجود هذه اللغة فى أقـدم عهد عرفت فيه الأمة العربية هذه الحيوانات · وهو عهد بعيد فى القدم لم يعرف قبله عهد لهذه اللغة نقلت عنه تلك الأسماء بغير هـذا اللفظ وغير هذا الاشتقاق ·

والعلم بالحيوان المستأنس أو الحيوان المتوحش أقدم شيء فى لغات بنى الانسان · فليس فى تواريخ اللغات عهد أقدم من هذا التاريخ · وربما تساوت اللغة العربية فى القدم وبعض المنقول كان له لفظه المشتق فى الأصل القديم · ولكنه اذا رجع الى أصل جامد غير مفهوم باشتقاقه فى لغة الخطاب فهو لاحق الزمن بنشأة اللفظ المشتق والوصف المفهوم·

والضمائر عادة فى كل لغة محدودة معدودة لا يصعب احصاؤها أو تتبع أدوارها فى تطـوراتها وتبديلاتهـا · وهى لذلك موضـوع من موضوعات المقارنة بين أقدم اللغات وأحدثها وهى أدل من الأسماء على عراقة اللغة وتطور استعمالها على حسب الحاجة اليها (المرجع السابق ص ٧٠ ـ ٧٨) ·

وبهذا المقياس من مقاييس المقارنة يمكن أن يقال ان اللغة العربية أقدم اللغـات الحية بلا اسـتثناء · أما أنها أقدم اللغات الحيـة بدلالة الضمائر والأسماء الموصولة فهو ظاهر من احتوائها عليها جميعا وبقـاء

أصولها جميعا فيها الى اليوم مستعملة لأغراضها التى تناسبها • وهى ضمائر أصيلة فى اللغة العربية مستعارة أو عرضية فيما وردت فيه من اللغات الأخرى • فالضمائر العربيـــة معارف حقيقية لا يلحقها الابهـام والتنكير • ولكنها فى اللغات الأخرى لا تطرد هذا الاطراد ولا يزول عنها اللبس والابهام فى كثير من الحالات • اذ يتساوى المخاطب فى الجمع والافراد وفى التذكير والتأنيث • ويحدث هذا فى الضمائر التى تلحق بالفعل فيقال عندهم أنتم تكتب كما يقال أنت تكتب مع التباس التذكير والتأنيث فى كثير من المواضع على غير قياس •

وما يقال عن الضمائر يقال على الاجمال عن أسماء الإشارة وأسماء الموصول •

ولا يخلو الأمر كذلك من اضافة دليل لغوي بحت • (المرجع السابق ص ٢٦) فقد كشف الحفريون من آثار بلاد النبط بعض حروف الجر التي كانت تستعمل فى مثل موقعها من الجملة عندنا قبل ثلاثة آلاف سنة • فاذا قدرنا أن حرف الجر عادة هو اسم أو فعل مختـــزل لا تتعود الألسن اختزاله قبل انقضاء مئات السنين فلا بد من تقـدير زمان سابق لتاريخ تلك الكتابة النبطية بعدة قرون• وكانت اللغة العربية آن ذاك لغة تركيب واعراب بقواعدها التى تطورت مع الزمن حتى وصلت الى ما هى عليه وبلغت فيها قواعدها غاية مداها من الضبط والاستقرار•

وقدم اللغة العربية عراقة تحسب لها كما تحسب لكل كائن حى عريق • ولكن الذى يعنينا بالذات هو جانب النضـــج والتمام بعد طول التطور والتقويم • ولا بد أن نذكر ذلك حين نتناول هذه اللغة بالاصلاح وكلما احتاج الأمر الى توفيق بينها وبين مطالب العصر الحديث • فلا محل فى البنية الحية النامية لتقويمها من جديد أو لاصلاح تركيبها الا بمـا يوافق تلك البنية وتأخذ منه بقدرتها الحية ما يأخذه الأحيـاء الأصحاء من كل غذاء طيب وكل طعام مفيد •

والمقارنة الصحيحة التى تسفر عن كفاية هذه اللغة العربية بين سائر اللغات فى رأى العقاد هى المقارنة على أساس ثابت من علم الألسنة الحديث • وهو العلم الذى يبحث فى تطور اللغة من حيث هى كيان حى نام صالح لأداء وظائفه ومجاراة أمثاله فى معترك البقاء •

فاذا قيس اللسان العربى بمقاييس علم الألسنة اكتشفنا ان اللغة العربية تستخدم جهاز النطق فى الانسان على أتمه وأحسنه ولا تهمـل

وظيفة واحدة من وظائفه • وهى تنزع هذا المنزع كما يشاء معنى الافصاح وهو فى جوهره ازالة اللبس فى الأصوات والحركات • واذا قيست قواعد النحو العربى بهذه المقاييس فى علم الألسنة فالمزية البينة فى هذه القواعد كما يقول العقاد انها تابعة لأغراض التعبير والدلالة وليست هذه الأغراض تابعة لها فى أصولها أو فروعها • وشيوع القاعدة فى فعل كل مادة وفى الأسماء والصفات منها دليل على سبق التفكير فى التعبير • وتعميمه على الأحداث والمعانى غير موقوف على أصوات الانفعال والمحاكاة • ويتبع ذلك شيوع الاستعارة وامكان الجمع بين الوضع الحقيقى والوضع المجازى فى كلام المتكلم لتوسيع المعانى وبناء الكلمات على المضاهاة بين المدلولات •

والدرس الأساسى الذى أراد العقاد أن يتجه اليه أن الالتفات الى معنى الجملة واجب قبل الاعراب وأن تصحيح الاعراب قد يعين على فهم الكلام كما يعين فهم الكلام على تصحيح الاعراب •

مهمة العقاد فى الصحافة

من رأى العقاد نفسه أن وظيفة الأديب تتمثل لنا من مقدار تعويله على المدح والذم فى تحصيل رزقه ومن مروءته أو سقوط مروءته فى التوسل بالوسائل المقبولة أو المحظورة لاستدرار الرزق واستحقاقه من الممدوحين جزاء للبلاغة والاجادة وحسن التقدير أو خوفا من البذاء وحياء ممن لا يبالى الحياء • (العقاد : أشتات مجتمعات فى اللغة والأدب ص ١٣١) •

وقد جعل العقاد من الصحافة طيلة حياته مصدر رزق يتكسب منه• وكان عمله فى الجمعيات السرية لحزب الوفد بعد الحرب العالمية الأولى مقترنا بمهامه الأصيلة فى الدعاية الهادفة من أجل تنشيط الوعى القومى وتوضيح مشكلات السياسة وتبسيط مفهومات الحركة الحزبية • ولم يطق العقاد أن يعمل فى الوظائف الحكومية طويلا واستهوته الصحافة اليومية لقربها من مزاجه ومواهبه واستعداده فى الهجوم والدعاية والنزال • بل كانت طبيعته أميل الى المشاركة فى مهام السياسة قوميا وعالميا وأكثر تجاوبا مع مزاولة مهنة التعليق على الأحداث الخارجية والمحلية •

وقد كان العقاد مشتغلا بقلمه كأشد الحنابلة المدققين فى استخدامه والاستفادة منه • وكان لا يعرف التهاون فى واجب يؤديه فى مقابل مال مدفوع اليه كما كان لا يعرف التهاون فى البحث وراء كل حالة تصرف اليه فيها الأموال ولا يكف عن الفحص والتخمين والنظر الى ما وراء العروض والطلبات •

كان يتجه مثلا فى أخريات أيامه الى حضور لجان المؤسسة الثقافية بوزارة الثقافة والارشاد القومى وفقا لظروفه وهو يحسب أن المبالغ التى تصرف اليه عن الاشتراك فى تلك اللجان لا تعدو أن تكون ثمنا لمرات حضوره • واستدعى منه الأمر مرة أن يرسل الى هناك من يبحث أسباب صرف بعض المبالغ اليه عند مرضه وتغيبه • فاكتشف أن المبالغ التى تصرف اليه لم تكن تدفع اليه فى مقابل مرات الحضور أو الغياب بل كمكافأة شهرية شاملة • فنطق على البديهة فى ذلك الموقف : « يا نهار أسود •• انهم وضعوا بذلك القيد فى أعناقنا وعلى أن أواظب على كل اللجان » •

وكانت دقة العقاد وحرصه على حضور اجتماعات مجمع اللغة العربية ومجلس الشيوخ القديم مضرب الأمثال فى الأمانة والخلق •

واتفقت الأوامر الملكية وأوامر حزب الوفد بعد سنة ١٩٣٦ على محاربة العقاد فى رزقه ومنعت أى ناشر أو بائع كتب أن يضع عنده نسخا من كتاب سعد زغلول • فألف العقاد سارة واشتغل بالكتابة الصحفية بالحد الذى سمحت به الظروف بين سنتى ١٩٣٦ و ١٩٤٠ كما اعتمد على بعض أصدقائه وتلاميذه فى بيع نسخ من كتبه • ويبدو أنه كان ينتظر ثمن النسخة من أجل الغداء والعشاء اليومى • واحتمل العقاد الموقف على مضض وهو يحاول اظهار حالات رخائه لأعدائه بالكتابة فى مشاكل الحب وفلسفة الجمال • وظل حينئذ الأستاذ الزيات يفسح له بعض صفحات من الرسالة حينا بعد حين فى تلك الفترة فاحتفظ له العقاد بهذا الجميل الى آخر أيام الرسالة • وظل يكتب فيها بمبلغ أربعة جنيهات متعللا أمام الناس بأن هذا لمجرد الاحتفاظ بالتجاوب مع قراء تلك المجلة • والواقع أنه استمر فى ذلك وفاء لتلك الفترة القاسية من حياته •

وألف العقاد كتاب هتلر فى الميزان فاتجهت الآراء طبعا الى تفسير ذلك بالرغبة فى مراضاة الانجليز وبيع نسخ الكتاب فى الدعاية • والعجيب انهم كانوا يذيعون هذه الآراء فى الوقت الذى أذاعوا فيه أن

كتب العقاد ملقاة على سور الأزبكية لا تجد من يشتريها . وكان كتاب هتلر فى الميزان فعلا يعلو أسوار الأزبكية فى أعداد ضخمة تشعرك بأن هذا الكتاب الذى ألفه صاحبه عن عقيدة ورأى لم يلق أى رواج نفعى أو دعائى .

وأشاع بعض الناس أن السفارة الانجليزية قد اشترت نسخا من الكتاب لتوزيعه بمعرفتها . وقد قص علينا العقاد هذه القصة على حقيقتها سنة ١٩٤٦ ، وكان من الموجودين فى غرفة استقباله اللواء الأديب شوقى عبد الرحمن ، وقال العقاد ان السفارة الانجليزية فى مصر أرادت الحصول على بعض نسخ الكتاب فوسطت اللواء شوقى عبد الرحمن الذى كان ملحقا عسكريا بسفارة مصر فى لندن حين ذاك . وتوسط فى العملية اللواء شوقى عبد الرحمن وكان حاضرا حين روى العقاد القصة . فأقسم بشرفه العسكرى وبالله العظيم ثلاثا أن السفارة أرادت شراء ثلثمائة نسخة من كتاب هتلر فى الميزان بسعره العادى وأنه جاء للقاء العقاد فى بيته ومخاطبته بهذا الشأن فلم يزد العقاد على أن قال : أمامهم المكتبات يستطيعون أن يشتروا منها ما يشاءون .

وقال لى اللواء شوقى عبد الرحمن انه كان صديقا حميما للعقاد منذ كان مديرا للشئون العامة للقوات المسلحة سنة ١٩٣٨ وانه كان دائم الاتصال بالعقاد لتعريفه بالكتاب الذين كانوا يفدون من انجلترا لالقاء محاضرات عامة بالأندية . وكان اللواء شوقى عبد الرحمن يدعو العقاد لسماع هذه المحاضرات والتعرف بالأدباء الانجليز . وروى اللواء شوقى عبد الرحمن أن الانجليز كانوا شديدى الكراهية للعقاد وخاصة بعد حملاته الصحفية على انجلترا عقب خروجه من السجن لعلمه أنهم كانوا وراء حركة ادخاله السجن . وقال انه هو الذى قام بتخفيف كراهية الانجليز للعقاد عندما كان ملحقا عسكريا بلندن وأنه عرف المستشرق الانجليزى آربرى بشعر العقاد وأدبه . ومن أقواله أيضا ان العقاد شرح خطط شليفن الألمانية وخطة السبعة عشر الفرنسية كأروع ما يستطيع العالم المتخصص فى العلوم العسكرية .

ولو حدث مثل هذا اليوم وفى الوقت الحاضر الذى تشترى فيه السفارات من كل المؤلفين ما تحتاج اليه لما علق بذهن أحد مثل هذا الظن الخبيث . ولكن اتجاه الناس الى التشنيع بالعقاد فى تلك الأيام كان شيئا يتعدى الخيال ــ وكان الكثيرون يقولون ان العقاد يتضور جوعا فى الوقت الذى يقولون فيه انه يرفل فى حلل النعيم من أموال الدعايات .

وكتب العقاد سنة ١٩٤٣ يقول (الرسالة العدد ٥٣٩ فى ١٩٤٣/١١/١) : «وهؤلاء أو أذناب هؤلاء يقولون اننى لا أكره الشيوعيه ولا أكتب ما أكتب عنها الا لأننى قبضت من أعدائها خمسة آلاف جنيه للتشهير بها فى بضع مقالات .

« ولكننى أكتب ما أكتبه اليوم عن الشيوعية منذ كانت الشيوعية أو منذ عشرين سنة على التقريب .

« وأكتب عن جميع المذاهب التى تناقض الديمقراطية كما كتبت عن الشيوعية والشيوعيين .

« فما تفسير ذلك يا ترى ؟ ولم لا تكون الكراهة هنا كراهة رأى ما دامت مطردة فى جميع الأوقات وعلى جميع المذاهب وبين جميع الأحوال ؟

« كلا لا يمكن أن يفسر كلام انسان بالرأى والعقيدة فى عرف الأوشاب وعبيد المعدة والمفسرين للتاريخ كله بالماديات .

« أفى الدنيا انسان يحارب رأيا لأنه يؤمن ببطلانه ؟

« وعندى انهم حيونى أكبر تحية فى مقدورهم حين رفعوا سعر الرشوة التى أرشاها الى خمسة آلاف من الجنيهات أجرا مقدورا لبضع مقالات .

« نعم هى أكبر التحيات التى يملكونها وهم يعلمون أن سعرهم جميعا وأجور مجهوداتهم جميعا منذ خدموا الشيوعية الى أن تستغنى الشيوعية عن خدمتهم لن يقارب خمس هذه الآلاف . فلهم على تحيتهم المغصوبة شكر يلائمها .

« ولهم فوق ذلك تبرع آخر ينتفعون به فى كل لحظة ان وجدوا السبيل اليه .

« فاننى لمتبرع لهم بهذه الآلاف الخمسة حيثما وجدوها فى مصرف أو بيت أو ثمنا لعقار أو بضاعة أو أسناد تشترى وتباع . وليدعوا لى بالخير اذن كما يدعون للرفقاء أجمعين . فاننى سأعطيهم ان صدقوا مالم يأخذوه ـ ولن يأخذوه ـ من رفيق » .

وأجمل ما سطره العقاد فى تلك الآونة مقال بعنوان ارادة الغفلة (العدد ٦٦٣ من الرسالة فى ١٨ مارس ١٩٤٦) حيث قال : « زيد وعمرو تاجران لهما دكانان فى حى من الاحياء .

« وأنت تروج بضاعة زيد وترغب فيها أبناء الحى وبناته • فليس لك فى هـــذه الحالة الا وسـيلة من وسـيلتين : احداهما أن تثنى على الأصناف الجميلة التى يعرضها زيد فى دكانه ولا وجود لها عند غيره • وأن تشيد برخص الأسعار وحسن المعاملة التى يلقاها المترددون على ذلك الدكان •

« والوسـيلة الأخرى أن تتنـاول عمرا بالقدح والتشـهير وتنحى بالعيب على كل سلعة يعرضها وكل ثمن يطلبه وكل معاملة يتلقى بهـا قاصديه • وتتهمه بالاحتيال عليهم بهبوط البضائع وارتفاع الأسعار •

« دعاية مكشوفة وأخرى مستورة ولكنهما تؤديان الى نتيجة واحدة وهى كساد واحد ورواج الآخر من الدكانين •

« ولا شك فى هذه الحقيقة ولا خفاء •

« ولـكنهما على ما يظهر لنا تحتمـلان الكثير من الشـك وتحاطان بالكثير من الخفاء عند أناس فى هذا الشرق التعس يزعمون لأنفسهم انهم « يفهمونها وهى طائرة » وهم لا يفهمون ما يحبو على أربع فوق جـدار العينين •

« ودارت الأيام ورأينا مذاهب النازية ومذاهب الديمقراطية تصطدم فى أخطر ميدان •

« ثم دارت الأيام ورأينا الشيوعية والديمقراطية تتصارعان •

« وعادت حكاية الدكاكين من جديد : دكان زيد ودكان عمرو فى الحى المأهول بالشرقيين المساكين •

« أما الدعاية لزيد فعرضة للاتهام الصريح •

« فلماذا يتعرض لها السماسرة الأمناء وهم فى غنى عنها بالانحاء على عمرو فى غير حرج ولا مبالاة •

« لتسقط الديمقراطية معناها لتحى الشيوعية •• والثمن مقبوض والبضاعة مسلمة وكفى الله المؤمنين القتال •

« ودعوا دكان عمرو أيها الناس •

« وهات يا زيد أجرتك •• فقد أقبل عليك أولئك الناس •

« كان دارون يتحدث عن ارادة الحياة أو حب الحياة •

« وكان نيتشة يتحدث عن ارادة القوة أو حب القوة ·

« فاذا جاز لنا أن ننشيء مذهبا جديدا نستمده من غفلة الأغرار وحيلة الشطار قلنا انها « ارادة الغفلة » قد أصابت أناسا من الشرقيين فاتسع بينهم المجال لكل أفاك دجال · وأصبحوا بين أمم العالم أعجوبة من الأعاجيب · لأن أمم العالم تخيب بينهم ألف تدجيلة لكى تصيب بينهم تدجيلة واحدة بعد طول التلفيق والتدبير وتكرار المحاولة والتزييف · أما هؤلاء المصابون بارادة الغفلة من شرقيينا الأعزاء فما أسرع من ظهور التدجيلة بينهم الا أن يقبلوها ويقبلوا عليها لأنهم يتلذذون بالاستغفال كما يتلذذ بعض الرجال بالاغضاء عن العرض فى غير سبيل ·· ولو سبيل المال » ·

وهذه غضبة عقادية جادة يمكن فهمها من طبيعة العقاد نفسه ومن السياق الشعورى الذى عاش فيه فى أثناء تلك الأيام ·

ويكفى أن تلمح علامات الألم الدفين فى قلب العقاد فى تلك الأيام من قوله فى خطاب أرسله الى طبيبه المعالج الدكتور حسين همت (الرسالة العدد ٥٩٢ فى ٦ نوفمبر ١٩٤٤) يعزيه فى وفاة زوجته : « ولا أذكرك الا بمصائب الحياة الى جانب مصائب الموت · فوالله يا صديقى ان الحياة لأقسى من الموت فى أكثر من مصاب · وان قسوة الموت لرحمة فى بعض الأحايين عن قسوة الحياة · فليست أوجع السهام مخبوءة لنا فى جوف التراب بل هى مخبوءة لنا فى رحب الهواء » ·

والعجيب أن العقاد كان يبدو مسنا هرما فى تلك الأيام أكثر من الفترات التى تلت سنوات ما بعد الحرب · وكنت أراه أكثر شيخوخة منه فى سنوات تلت تلك السنوات وكانت الصور التى نلتقطها له فى تلك الآونة أميل الى تسجيل هذا التعبير ·

وقد بدأ العقاد حياته الصحفية قبل الحرب العالمية الأولى وحمل القلم ولم يبلغ العشرين · وعاصر عهودا متباينة مختلفة من عهود التحرير والكتابة الصحفية · ولكنه تطور معها على النحو الذى انساقت اليه دون أن يقصر فى شروطها ومقتضياتها ودون أن تبدو عليه الشيخوخة فى صحافة هذه الأيام · فكان الارتفاع فى توزيع أخبار الأربعاء محسوسا حتى أخريات أيامه · وكانت مقالاته فتية لاذعة يباهى بها فى رونقها وابتكارها وطلاوتها أروج الكتاب والصحافيين ·

وقد أوجز هو نفسه الفارق بين الصحافة القديمة والصحافة فى

عهدها الحاضر حين قال (العقاد : رجال عرفتهم ص ١٢) : « تجرى المقارنة أحيانا بين الكاتب الصحفى الذى كان يكتب فى صحافتنا العربية قبل سبعين أو ثمانين سنة وبين كاتبنا الصحفى الذى يكتب الآن فى صحافتنا بعد أن بلغت مع الصحافة العالمية آخر أطوارها من وسائل الطباعة والتحرير الى وسائل الادارة والتوزيع •

وقد نوجز هذه الفوارق التى يمكن أن تتعدد الى غير نهاية فنقول : ان الفارق هنا هو الفارق بين « روبنسون كروزو » فى جزيرته وبين رحالة من سياح اليوم ترتسم له طريقه من رقم الكرسى فى الطيارة الى رقم الحجرة فى الفندق الى أسماء الخطوط الجوية والبحرية فى كل مدينة وكل فندق وكل يوم من أيام الرحلة منذ قطع التذكرة الى تسليم البطاقة عند باب المطار الأخير مع سلامة الاياب •

«وفارق آخر ربما أوجز لنا تلك الفوارق على نحو آخر من المشابهة وهو الفارق بين طبيب القرن التاسع عشر وطبيب القرن العشرين •

« ان طبيب القرن العشرين يعرف عمله المطلوب من خلال عشرين كشفا وتحليلا وأداة طبية أو كيماوية بين يديه • ويستوحي وصفه للدواء من تحليل الدم وتحليل المواد الجسدية على اختلافها ومن كشف الأشعة ورسامة القلب وشهادات للأحوال الخاصة والدائمة يرجع اليها فى سجلاتها اذا شاء •

« ولم تكن لطبيب القرن التاسع عشر وسيلة من هذه الوسائل الميسورة اليوم فى أكثر العيادات • فربما أعوزته السماعة فلم يعتمد فى جس النبض على وسيلة غير الاصغاء بأذنيه •وهو بعد ذلك يعالج العلل جميعا فلا يتخصص لعلة واحدة يستعد منذ عهد المدرسة لتشخيصها وتدبير علاجها » •

وقد استطاع العقاد الصحفى أن يعبر هذه الفوارق الضخمة فى سهولة ويسر لما كان يتمتع به كصحفى منذ مطلع حياته من الأسلوب المتميز الجميل والذوق المتطور والتبويب الصحفى على أحدث الأنماط جاعلا للصورة مكانتها وأهميتها • بل كان العقاد يطالع أحدث المؤلفات الصحفية الغربية فيعرف مدار صناعة الخبر وأسلوب النزال وطرق التشويق والتقريب وسبل النفاذ الى نفسية القارىء وكيفية الاقناع والتنويع فى المادة المحتواة •

وكان العقاد طبيعيا يعالج مهام الكاتب وواجب الصحفى ووسائل

اصلاح الصحافة ويدافع عن الحريات ويحارب الدجل السياسى ويهجم على أعلى الشخصيات مكانة فاذا بهما أضحوكة الجماهير • وكم أقيمت للعقاد حفلات تكريم شعبية كان يحمل فيها على الاعناق ويباهى بمكانته بين جموع الناس وحشود المحتفين به • وكم حورب العقاد وهوجم وكم أولع باسقاط الحكومات فهوى بهما وباندار العروش فسخف مقامها وبالثورة على الطغيان والفاشية فالهب ظهورها بالسياط • وجند قلمه لخدمة قضايا العدل وللدفاع عن حقوق العمال والفقراء ولحماية الدساتير وأنظمة الحكم الشعبى الذى يستند الى مبادىء الكرامة والانسانية • وتعرض للخطر سنوات وطاشت رصاصات أرادت القضاء على حياته وحمى بيته رجال الأمن سنوات يفتشون زائريه على الباب •

وفى الوقت الذى نال غيره الحظوة والسطوة عن طريق النفاق والتقريظ الملنى والمستور وسافروا البعثات ونالوا الوظائف بالمداهنة والكلام المزوق المعسول قبع هو فى داره يحتمى بمبادئه ويقى نفسه شر الخضوع لأولياء النفوذ • وصان كرامته بالموقف البعيد عن النفعية والارتزاق وحدد لنفسه خط سير لا يحيد عنه • بعث اليه احدهم مرة يستفسر منه : كيف تحكم على طه حسين بأنه لا يصلح للنقد الأدبى وهو الذى شهد لك بامارة الشعر ؟

فكتب ردا على ذلك يقول فيه : لو أننى شئت أن أرفع من قدر نفسى وأن أعزز قوله لى بأنه أكبر العارفين بالنقد حتى يصدق فى نظر الناس ما شهد لى به لفعلت • ولكننى أحكم للواقع والتاريخ ووفقا للأصول والمقاييس ولا أمضى مع الأهواء فى سبيل النفع الشخصى •

وروى العقاد ما يلى (رجال عرفتهم ص ٢٥) : « من المصادفات التى عرضت لى فى حياتى الصحفية أننى جلست على مكتب على يوسف أياما فى أثناء نيابتى عن الأستاذ أحمد حافظ عوض الذى كان يتولى رياسة « المؤيد » فى تلك الأيام • وقد دعى الأستاذ أحمد حافظ عوض لمصاحبة الخديو فى رحلته التى طاف فيها بأقاليم الوجه البحرى على سبيل المظاهرة أمام الانجليز •

« وقد عهد الى الأستاذ أحمد حافظ عوض أن أتلقى رسائله ورسائل وكلاء الصحيفة فى أثناء تلك الرحلة • وأفهمنى أنه يعد العدة لتأليف كتاب عنها يقدمه الى الخديو بعد عودته الى الديار ••

« وتقدرون فتضحك الأقدار !

« فلا الخديو عاد الى الديار ولا عاد اليها كتشنر الذى رسم الخطة قبل سفره من مصر لتغيير نظام الحكم كله في هذه البلاد • ولا الكتاب المنتظر كتب فيه حرف واحد لأنني رفضت العمل فيه • واستقلت من تحرير « المؤيد » في أثناء اشتغال الأستاذ حافظ بجمع الصور والتواريخ لتأليفه وتنسيقه » •

ويحدد العقاد موقفه من مشاكل السياسة في تلك الأيام بقوله : « وكنت من فريق الشبان القلائل الذين نفروا من الأحزاب منذ اللحظة الأولى • فلم يكن لى حزب أتعصب له وأنتمي اليه • ولم تكن لى صحيفة أتشيع لسياستها ومنهجها فى كتابتها • ولكنني كنت أفضل الجريدة فى جانب الثقافة • وأفضل اللواء في شدته على الاحتلال والوزارة وأقرأ المؤيد لمقالاته الشرقية والاسلامية • وأعتقد ان الخطة المثلى هى خطة « مصر للمصريين » تمييزا لها من خطة المحافظة على السيادة العثمانية • وكان بعضهم يترخص فى تسمية هذه الخطة وأصحابها باسم حزب المفتى لأن الأستاذ الامام محمد عبده رحمه الله كان أشهر المعروفين بذلك الرأى في تلك الفترة ومعه فى ذلك سعد زغلول وأحمد لطفي السيد •

وأقيمت حفلة سنة ١٨٠٩ تقريبا بفندق شبرد لتوديع وفد من أعيان البلاد اعتزموا السفر الى لندن لاقناع وزارة الخارجية بتوسيع نصيب مصر من الحياة النيابية • وحضر العقاد هذه الحفلة مندوبا عن جريدة الدستور لصاحبها فريد وجدى • وذكر العقاد لقاءه للشيخ على يوسف فى تلك المناسبة فقال : « وفى تلك الوليمة بدا لى أن صاحب المؤيد لم ينس كلمتى عنه فى التعليق على اجتماع دار الجريدة • فسألني : أنت عم العقاد ؟ قلت نعم • قال : هل بينك وبين السيد حسن موسى العقاد قرابة ؟ قلت : هى مشابهة أسماء • فضحك ضحكة غير خالصة وقال : بل لعلها مشابهة في غير الأسماء أيضا • وهو يعنى على ما اعتقدت ثورة السيد حسن موسى وتمرده » •

وقد نعجب فى اخريات سنى العقاد من أن يشار اليه على أنه صحفى فقد بلغ مكانة عالية فى التأليف الأدبى والفلسفى والشعري حتى أصبحت تسميته بالصحفى لا تليق به • ولكنه هو نفسه كان لا يتوانى عن الكلام فى الصحافة كصحفى حين يقدم اليه مندوب احدى الصحف • فقد كان فى مطلع حياته معروفا بالصحافة كمهنة • وأشار اليه سعد زغلول مرة فى مجلس لفيف من الأدباء بوصفه صحفيا وقرظه • واستغرب من المنفلوطى أن يعد العقاد أديبا ولا يعده صحفيا • (رجال عرفتهم ص ٧٢) •

وخدم العقاد مهنته فى الصحافة بشرف ووقف طول حياته الى جانب الحق على نحو ما آمن به واستصوبه . ولم يتملق الجماهير ولكنه لم ينعزل عنها لحظة ولم يفته الاقتراب منها فى شتى الصور والأساليب . وكان بعض الناس يشعر بانه لا يليق بالعقاد أن يقدم الاستطلاعات أو المقالات التى يكتبها بالأسلوب الخفيف فى صحبة الفنانين والممثلين . أما هو فلم يكن يرى فى ذلك غضاضة ولم يشعر قط بالنفرة من الكتابات العادية فى شئون الحياة اليومية البسيطة . لعل ذلك لأنه ألف هذا الجو دائما واستحسن أن يؤثر فيه واعتاد أن يكون ذلك مصدر رزق حلال له ووسيلة اشتراك فى الاحساس مع كل الأجواء والأوساط .

فالعقاد ابن هذه الحياة ولا يرى لعقله حدودا .

اطراف من حياة العقاد

لا يؤخذ فكر العقاد وأدبه مستقلا عن شخصه ولا يوجد جانب من جوانب العقاد منفصلا عن غيره من الجوانب . العقاد كل لا يتجزأ ومن يحسب أنه كصحفي مخـالف لطبيعتـه كشاعر أو أنه كسياسى مختلف عن كونه فيلسوفا أو أنه كانسان يعيش بعيدا عن روح المجتمع ودواعيه فهو مخطىء .

ليس هناك أى فارق بين نظرات العقاد هنا أو هناك فى الأدب أو فى الحيـاة فى الأخلاق أو فى السياسة فى العمل أو فى اللهو . كل ذلك مترابط فى نسيج واحد متكامل وطبيعته هى هى لا تتغير فى أى مجال من المجالات .

وقد مضى التاريخ بالعقاد ومضينا نحن فى رحاب التاريخ وصرنا ننظر حولنا كأنما نستجدى الزمن لحظة نشبع فيها العين والقلب والخاطر من هذا الرجل الفريد مرة أخرى . وكان العقاد بالنسبة الينا ملاذا نلجأ اليه فى حياتنا المقفرة فنجد عنده المرح والفكر والسرور والفن والسعادة والعناء . كان الفرد من أصدقائه وتلاميذه يروح عن نفسه برؤية العقاد كما كان يبلغ زاده من الفكر والثقافة على يديه . كان العقاد يشيع فينا الحماسة للعلم والحماسة للحياة سواء بسواء .

وتعلمنا من العقاد ما لا نجده في الكتب وعرفنا خلقه النادر القوى المتماسك كأننا أمام نمط في الانسانية لا يتكرر • ورأينا العقاد في وقدة الفكر المستعر وحماة السياسة الحامية وفي رزانة الشيخ الوقور والعالم الجاد الصارم والأديب العاطفي المترنم • ورأيناه في مداعباته وملاطفاته كما رأيناه في ساعات تفكيره الذكي اللامع • وأحببنا فيه ذلك كله وأحببنا فيه الخلق النادر والمعاملة التي لاتخطيء أسلوب الحياة الأصيلة العريقة • وكان بيننا نمطا في الخلق قبل أي شيء آخر •

والأخلاق عند العقاد لاتفهم اذا كنا نقيسها بمقياس المجتمع المتخلف ولكنها تصبح واضحة اذا نظرنا اليها نظرة الرجل المتحضر • كان العقاد حاسما في احساسه بأن الأخلاق ليست شيئا يتعلق باللهو الخاص اذا اكتملت له ساعات السرور • انما أخلاق الانسان في دقته وحرصه على المواعيد وحسن معاملاته مع الناس واحساسه بالمسئولية وتقدير الظروف على مستواها في البيئة التي تنشأ معها • وأهم من ذلك كله شعوره بأن الضمير الفردى يراجع المرء في تصرفاته ويحتم عليه عدم الانسياق مع الزيف أو النفاق أو المراءاة • فالانسان له حياته الخاصة كما يشاء ولكن اذا اتصل شيء منها بكيان المجتمع أصبح في نقطة تماس حقيقي بالآخرين وانبنت على ذلك اللوازم والضرورات •

وعاش العقاد حياته في صراع لو توزع على جيل بأسره لكفاه • كان يعطى انسانيته حقها في الاكتفاء والارتواء ولكنه اذا أحس باختلاف في علاقاته انصرف عنها بلا نكوص • وكان يعاني من جراء ذلك ويلات لا حصر لها وهي ويلات تقع في احساسه الشاعرى المرهف موقع الألم الحاد السخين • ولكنه كان يتغلب عليها بمثابرته على الكفاح والعناد •

وقد أحب أليس (سارة وهو اسم عبرى يعني الأميرة الصغيرة) حبا قويا عارما في سنة ١٩٢٥ • ولكنه أحس ببوادر خيانتها فلم يغفر لها ذلك • وحار بين حبه وهواه وبين أصول اللياقة في الذوق والكبرياء • فقطع هذه العلاقة على الرغم من عودة أليس اليه مرات تطلب منه الغفران والصفح وتعده بأن تكون له على نحو ما يحب وأن تأخذ نفسها بالسلوك الذى يرضاه • واكتفى بأن يصغى اليها في حديثها في التليفون من حين الى حين تمده بزاد من الشجاعة والتقدير ازاء أحداث السياسة ومتاعب السجون وتبدى إعجابها بما كان ينشره ويكتبه حين ذاك من مقالات النقد والعراك •

ولا نعدو الحقيقة اذا قلنا ان أزمة حب العقاد لسارة كانت من النوع العنيف • والسبب في ذلك هو وطأة الذكريات داخل بيته • وكان تفكيره كله محصورا في نطاق تجربة حبه لها لا يتعداه • فكل شيء يشير اليها وكل شيء يذكره بها • وهو يمضي حياته داخل قوقعة مشاعره وذكرياته وحبه العميق • ولو كان من الناس الذين يغادرون مكان الذكريات ومسرح العشق ويشغلون أنفسهم بالمشاهد الحركية التي تأسر اللب وتبدل من مشاغل النفس لاستطاع أن يتخطى الأزمة في هدوء • ولكنه كان محاصرا داخل مظاهر معاشه المحدودة • والعمل الفكري يزيد اللوعة تأججا لأنه انشغال داخل نطاق النفس •

لذلك فكر العقاد في حيلة وهي أن يظل من بين مايشهده يوميا ما يؤنبه هو شخصيا لاحساسه بكمد الحب ! فكر العقـــاد في أن يجعـل من مرئياته ما يخمد أنفاس الشوق ويقطع دابر الألم •

وتوجد في غرفة نومه لوحة صورها وفق مشيئته صلاح طاهر • وكان العقـاد قد طلب منـــــه تصـــوير هذه اللوحة لبعث القرف في نفسه كلما أحس بالعطف مرة أخرى على سارة • والصورة تمثل فطيرة كبيرة يعف عليها الذباب وبجوارها كاس من العسل • وكان العقـــاد يروي دائما شعوره بالتقزز لو تناول أكثر من ملعقة من العسل • وكان أحيانا يقول : يبدو أن الجنة لم تخلق لأمثالنا بأنهار العسل التي تجتاز أراضيها • وكان يكفي أن يلمح العقاد هذه اللوحة كيما يقتل في نفسه كل تردد في معاودة علاقته بسارة • وقال العقاد مرة : انه لم يكن يتصور كل مافي هذه اللوحة من تعبير يبعث على التقزز في أوقات محنته عقب انتهاء علاقته بسارة • فقد كان ذلك كله لا يؤدي ربع احساسه الحقيقي• ولكنه عقب ذلك بدأ يشعر فعلا بأن اللوحة تعبر تعبيرا قويا بالغ الخشونة عن الاحساس بالقرف • وكانت هذه اللوحة تهون على خاطره قســوة الأعاصير النفســية كلما تجددت لواعج الحب والعشـق الذي كان يكنه للسيدة اليس • ويكفيه أن يحس بأن غيره من الناس يقاسمها لحظـات نشوتها أو أن أحدا غيره يشاركه أفراحها وجمالها كما يشترك مع الذباب في الاقبال على الفطيرة كيما يعود الى صلابته وتماسكه حيالها • وتاريخ هذه اللوحة مرتبط بشخصية سارة وبذكرياته عنها وحبه القوي لها ولا علاقة له بسواها الا من حيث تجدد المواقف •

وكان صلاح طاهر لا يزال طالبا بكلية الفنون الجميلة حين أخـذ يتردد على العقاد ويصاحب مجموعة أصدقائه الذين تكونت منهم حديقة

الحيوان • فكان لكل منهم اسم حيوان يشابهه في الملامح والصفات • وكان من بين أصدقاء العقاد حين ذاك الأستاذ المصور أحمد صبري • وأراد مرة أن يحادث أحمد صبري الذي كان استاذا بكلية الفنون الجميلة صديق الندوة صلاح طاهر بلهجة الأستاذ المتعالي • فكبر ذلك على العقاد ونهره قائلا : انه تلميذك هناك في الكلية • أما هنا فالجميع سواسية •

وقد شهدت سنة ١٩٤٥ أحمد صبرى مرات كثيرة فى ندوة العقاد وكانت فكرة حديقة الحيوان لاتزال دائرة على ألسنتهم • ولكنها كانت قد تحولت الى فكاهة بعيدة عن التطبيق الا فى مجال الذكريات أو فى محاولة استثارة خيال أحمد صبرى أمام أحد الأشخاص • فقد كان أحمد صبرى هو الحكم فى الوصف وتخير الأقفاص •

والواقع أن الندوة العقادية كانت قد تحولت في تلك الفترة الى ندوة أقرب الى دروس الفلسفة • وكان التحول الفكري الكبير الذي أصاب العقاد في تلك الفترة قد جعل أصدقاءه يميلون الى الجلوس اليه مستمعين منتفعين • وحضر الندوة حين ذاك كثير من أصدقائنا الشبان وخاصة بعض المشتغلين بالفلسفة ودراستها • وكنا نجلس الى الاستاذ صامتين أو شبه صامتين مكتفين بالتأمل في شخصه والاستماع اليه وهو يجول ويصول بخياله وذكرياته وأحاديثه ومناقشاته • وكان لا يحتـــاج فى الغالب الى سؤال أو استـفسار • فهو يبدأ الحديث ويأخذ في سرد الآراء ومناقشة الآراء وتفنيد المعتقدات وحكاية الذكريات وشرح الأشعار في غير حاجة الى ان نتيح له فرصة ادارة الكلام • كان ينهمر منه التفسير والشرح من تلقاء نفسه كمن يعالج مشاكل تخصه • وقضينا ساعات طويلة نستمع اليه وهو يشرح ابن الرومى • ويؤدى الوصـف والشروح مع القيام بالحركات التمثيلية اللازمة فى غير تكبر أو اصطناع •

وفى يوم من أيام سنة ١٩٤٧ طلبت اليه القاء محاضرة على طلبة قسم الفلسفة عن الغزالي • وكان احساسه بحبنا له قويا فوافق • وقمت بعمل الاتصالات اللازمة لدى عميد الكلية وأعددنا الاعلانات اللازمة وحضر العقاد فكان لحضوره بين طلبة الفلسفة وقع الصاعقة • فالعقاد حاد الذكاء يوحى بمرآه الى الناظرين اليه أضعاف أضـعاف ما يمكن أن يتلقوه عن سواه • وجرت المحاضرة فى جو من المحبة بمدرج كلية الآداب في جامعة القاهرة كما جرت بعد ذلك مناقشات عدة واستفسارات أدت الى ذهول السامعين من وفرة مادة العقاد وجدة نظراته وتحليلاته واستخراجاته • واستطعت مرة أخرى أن أدعوه الى محاضرة بقسم الصحافة بعد الاتفاق

مع رئيس القسم • واختار العقاد موضوع المقالة النزالية الذى نشره بعد ذلك كمقال فى مجلة الكتاب •

واتفق ان بعض الزملاء من قسم الفلسفة بكلية الآداب أرادوا رؤية العقاد فقمت باستئذان الأستاذ تليفونيا • ولما كنت في تلك الفترة شغوفا بكلامه عن نظرية الجمال فقد قلت له فى التليفون : ان بعض زملائنا سيحضرون للاستماع اليك يوم الجمعة القادم على شرط أن تشرح لنا فلسفة الجمال • فقاطعنى قبل أن أتم عبارتى وقال: على شرط .. اذا كان على شرط فلا داعى لحضورهم • فعجلت بقولى : لا أقصد يا أستاذ فكلمة على شرط هذه تجرى مجرى الاستعمال العادى الذى لايعنى اشتراطا ضروريا ولكن مجرد الطمع فى سماع كلامكم بهذا الشأن •

واستدركت كلامى معه ونحوت نحو الحديث الودى الذى يملؤه العشم • ومنذ ذلك الحين عرفت أن العقاد لايقال له أى كلام • وعبارة على شرط قد تجرى فى استعمالاتنا العادية بغير أن تثير فى أذهاننا أى معنى من معانى الاجبار • ولكنها فى ذهن العقاد تمس فهمه مباشرة بمعناها الحرفى وتثير فيه الالتفات والتحفز •

ومع ذلك فقد كان يستخفه الطرب ساعات اللهو والمزاح الى حد كبير • ويضحك بكل جوانحه حين يستعيد الأحداث أو يروى الوقائع المضحكة أو يلقى بالنكات تلو النكات فى مرح وبحبوحة وحبور • وسرعة بديهة العقاد فى رواية النكته والرد عليها صارت مضرب المثل بيننا • وقدرته على استجلاب الردود والأمثال والأشعار مذهلة •

حدث مرة أن زاره فى أثناء الندوة الشيخ الأسيوطى وهو من المتدينين المفرطين فى التدين والمعجبين بالعقاد وكتاباته عن الاسلام • وكان رجلا نحيفا قصيرا الى حد ملحوظ • وأصر على أن يقبل العقاد تبركا بعلمه وتقواه فقال للعقاد : لابد أن أقبلك يا أستاذ •

فرد العقاد : لا يمكن

فسأله الشيخ : ولكن لماذا يا أستاذ ؟

فرد عليه العقاد قائلا : لأنك لن تستطيع أن ترتفع الى وجهى وأنا لن أنزل اليك •

وكان مرة فى أثناء زيارته للحجاز فى صحبة ملك السعودية سنة ١٩٤٧ يناقش الجالسين فى ادخال التحسينات اللازمة فى الكعبة • وقال

لهم يمكنكم أن تستخدموا مكبرات الصوت فى المسجد الحرام فى اثنـاء الحج • فنهض أحد الجالسين قائلا : هذه بدعة • ولاحظ العقاد أنه يحمل نظارة على عينيه • فقال له على الفور : فأنت اذن رجل مارق لأنك تضع على عينيك مكبرا لصور المرئيات •

وسأله بعضهم يوما عن أحد السـياسيين • فقال له العقاد : انه رجل مرتاح الضمير •

والتقى به بعض الفكاهيين من امثـال الخواجة بيجـو وأبو لمعة والدكتور شديد فى ندوة اذاعية ببيتـه • واذا به يقبل عليهم بالنكات اللاذعة متتالية حتى صاروا يستمعون اليه فى وجوم • وصارت فكاهاته تنهال عليهم كأنه هو بطل الفكاهة •

وقالت له احدى الصحفيات فى أول لقـاء لها : لماذا لم تتزوج ؟ فقال لها العقاد : أنا مستعد أغير رأيى •

وروى لنا العقاد نكتة الفلاحين الذين أحضروهم الى دار الاذاعة فى الاتحاد السوفييتى ليقول كل منهم كلمة واحدة أمام الميكروفون - فاذا بواحد منهم يقف أمام الميكروفون ويقول صارخا : الحقونا •

وروى كذلك نكتة لويد جورج المشهورة حينما ذهب ليلقى خطابا فى أحد الأقاليم فاذا بامرأة مشاكسة تقاطعه وهى تقول : لو كنت زوجى لوضعت لك السـم فى كأس الشراب • وكان رده : لو كنت زوجك ياسيدتى لشربته بسرور •

وكذلك روى نكتة لويد جورج حين كان وزيرا للصناعة • فقد استقبل وفدا من العمـال فى أحد الأيام وكان بينهم عامل فى ملابسه الشعثة يحاول احراج الوزير ويطالبه بتخفيض أسعار الحاجات • فأجابه لويد : فعلا وسنقوم أيضا بتخفيض سعر الماء والصابون •

وروى العقاد كثيرا من النـوادر التى حدثت فى بيته مع طباخه الشيخ أحمـد حمزة • فقد نبه عليه العقـاد أن يكتب أسماء كل من يتحدثون اليه بالتليفون فى فترة غيابه • وفى يوم من الأيام كان العقاد فى احـدى دور النشر وأراد أن يستعلم عن شىء بالبيت فتحدث الى الشيخ أحمد حمزة يستفسر منه عن ذلك الشىء بالتليفون • وعندما رجع العقاد الى بيته نظر فى قائمة أسماء من طلبوه فى التليفون فوجد اسمه هو نفسه من بينها •

وطلب الى الشيخ أحمد حمزة مرة أن يشتري تينا . وهم الشيخ أحمد حمزة بالتوجه الى باب المنزل فتذكر العقاد سهوات الشيخ أحمد حمزة فقال له مؤنبا : انتق التين الحامض . وغاب الشيخ أحمد حمزة ثلاث ساعات ثم عاد الى البيت يحمل قرطاسا كبيرا . واذا بالعقاد يشم رائحة الحموضة وهو جالس في غرفة الاستقبال .

وكان مرة في الاسكندرية بشقة في الدور السابع . وكان البيت يوقف عجلة رفع المياه الى الأدوار العليا وقت الظهيرة . وأحس العقاد بحاجته الى دخول دورة المياه . فطلب الى الشيخ أحمد حمزة أن ينزل الى الدور الارضي ويملأ جردلا من الماء ويصعد به ليضعه في السيفون . ونزل صاحبنا وأدى الواجب بوضع الماء في السيفون . وأبلغ العقاد بأن الماء جاهز فذهب الى دورة المياه يستوثق من تمام المهمة فاذا بالشيخ أحمد حمزة يقول له : لقد صار مملوءا بالماء .. أنظر . وشد حبل السيفون . فقال له العقاد : جميل جدا .. انزل مرة أخرى لتملأ الجردل .

وكان العقاد شديد الولع برواية أحداث الأدباء في الجيل الماضي . وتكفي ساعة من حديثه عن هؤلاء الأدباء لتخرج بصورة واضحة عن شخصياتهم . وكان يهتم بقصص حافظ ابراهيم والسباعي وصبري السوربوني والمازني ونوادر الفقهاء والمتحذلقين . وروى انهم كانوا مدعوين في صحبة نفر من رجال الأدب والسياسة عند حافظ ابراهيم . فاذا بحافظ ابراهيم ينظر الى محمد محمود ويقول له : ولد يا محمد .. انت فاكر نفسك متكبر .. العقاد ينظر لك من فوق .

واعتاد العقاد أن يقيم لمجموعة الأصدقاء وليمة في شهر رمضان وأخرى في شم النسيم . وكان يعد فسيخ شم النسيم بنفسه ولا يوكل اعداده لأحد غيره . وكنا نسمع منه بعد تلك الولائم طرائف لا تعد ولا تحصى في مناسبات الأكل . واعتدنا الغداء عنده كل يوم من أيام الجمعة . ولكنه كان يخص نفسه بأكلات معينة لا يخرج على نظامها . ولذلك كان يترك لنا فرصة الغداء حتى يتم هو غداءه وينام نوم الظهيرة ثم يثوب الينا ليمتعنا بجلسته الخاصة حتى ساعة متأخرة من الليل . فكأنما كنا نقضي معه طول يوم الجمعة . ولكننا كنا نستمتع بعد الظهر بالجلسة الأبوية المتسعة لجميع أنواع الكلام الجاد والكلام الفكه .

وكان يستعرض معنا في أول جلسته المسائية كل الكتب الجديدة التي طالعها خلال الأسبوع . واعتاد أن يعطينا نبذة وافية عن كل مؤلف

يقرؤه وخلاصة الآراء الواردة فيه • كان يقوم بهذا الى آخر أيام صحته التي سبقت مرض موته •

ومن مصادفات القدر الغريبة أن احدى السيدات كانت تداعبه في أيامه الأخيرة لاسترعاء نظره والتقرب اليه • ولكن العقاد ظل دائما في شغل شاغل عنها • فأرادت أن تشعره بأنه اما أن يهتم بها كما تتمنى واما أن تذهب الى غير رجعة ولا تراه بعد اليوم • فاختارت لجذب اهتمامه بها قصيدة من قصائده وعنوانها : «ليلة الوداع» • وأنشدت هذه القصيدة بيننا على مسمع من العقاد • وبعد أن قرأت معظم هذه القصيدة استأذن العقاد وانصرف • وكانت هذه فعلا ليلة الوداع • لأنها كانت آخر ندوة للعقاد وكانت ليلة وداع حقيقي وأصابته أزمة المرض في نفس الليلة •

وكنت قد شهدت العقاد مريضا قبل هذه المرة • فكان يكتفي بالرقاد في السرير ويغمض عينيه ثم يأخذ في سرد الأحاديث والأقاصيص ويستمر في كلامه عن الفلسفة والأدب بلا توقف حتى نستأذنه في الانصراف • كان لا يكف عن الكلام والحديث في فترة مرضه على نحو غريب أما في فترة مرضه الأخيرة فكان يود أن يتحدث ولكنه كان يشعر بالدوار• وأبلغني حسن عنبر أنه زاره داخل حجرة نومه في الليلة السابقة على ليلة وفاته • وقال ان العقاد كان يضحك ضحكا عاليا كلما ذكر نوادر الديدي في المسائل النسائية • وقضوا معه أكثر من ساعتين يقصون خلالهما بعض الأحداث الخاصة بي لادخال السرور على قلبه • وكان العقاد يطرب لسماع النكات ويقول : أنا عارفه وعارف مغامراته • وفي احدى المرات زارني هنا مع احدى الفرنسيات الجميلات فقلت له : ماذا جرى يا سيد ديدي •• لقد تحسن ذوقك النسائي • أنا عارف الديدي • ان طريقته هي التي تجعله ناجحا في هجومه الخاطف • لكن ذوقه لايزال ميالا الى النساء الدميمات • لقد قابلته مرة في الاسكندرية حاملا «شنطة هدومه» في اتجاه المحطة فسألته : على فين يا سيد ديدي •• فأجاب : الى المحطة •• سأعود الى القاهرة • فقلت له : لماذا ؟ •• ألم تعد هناك نساء دميمات في الاسكندرية ؟ وقضى جلسته مع أصدقائنا تلك الليلة في ضحك وفكاهة حتى توقعوا شفاءه بعد يومين • ولكن الموت الذي لا يرحم حرمنا أياه بعد هذين اليومين • وسقط العقاد من شدة الدوار وهو يصارع في سبيل أمله الأخير في حياة كنا نرجو لها المزيد أكثر مما كان يرجوه • وخبا ذلك الفكر الذي لم يهمد لحظة • وخسرنا بموته أعز انسان وأعز صديق •

وكنت قد رأيت العقاد أول ما رأيته فى « بيجاما » البيت كالأسد الكاسر فرأيته آخر ما رأيته مسجى على سرير الموت تحت الغطاء ثم عاريا على خشبة الغسيل الأخير • وأحسست بكل ماعاشه الرجل بين هاتين اللحظتين الأولى والأخيرة • وازددت حبا له في وداعة موته وجلال هذا البدن الطموح العنيد • وكانت أبهته ورواؤه عند الموت كأعظم ما تكون معالم الأبهة والرواء • وكان في اغفائه معنى الشموخ أيضا •

وقد بادلنى العقاد شعورا بشعور وأحسست أنه يسأل دائما عن أخبارى فى فترات الغياب عنه • وذلك على الرغم من أننا كنا ندخل فى أنواع من المعاكسات الكلامية ونتبادل الملاحظات الفكرية المتعارضة • وقصة اختلافنا الذوقى فى الاستحسان معروفة لدى الأصدقاء • لأننى كنت أفضل الفن الحديث وكان هو ممسكا بتلابيب الفن على نحو ما حلا له فى التصوير التقليدى المفعم بالتعبير النفسى وبالمشهد الجليل • كذلك كان العقاد يستحسن الفتاة المليئة وكنت أمتدح أمامه الفتاة النحيفة • وكان له ذوق قديم فى قياس الجمال الأنثوى ولكنه بعد مضى الوقت صار يفضل الامتلاء على النحافة ويضع البياض كعلامة أساسية للجمال •

وفى سنة ١٩٥١ كنت قد تعرفت عن طريق العمل فى تدريس اللغة الفرنسية بأحد الزملاء الفرنسيين وزوجته • وقدما معى لزيارة العقاد فى ندوته • وكان العقاد يداعبها بالفرنسية البسيطة من حين الى حين • ولكنه عندما لقينى فى الأسبوع التالى قال لى : ما هذه الفتاة الناشفة ياسيد ديدى • ومنذ ذلك الحين بدأ يروى قصصا عن تفضيلى للبنات الدميمات •

وكلما عرضت أمامه نظرية مستحدثة فى باب من أبواب الفن أو الفلسفة كان يقول لى : حتى هذه قديمة ياسيد ديدى ويأخذ فى حديث مستفيض عن مقابلاتها • فكنت لا أكف عن معاكسته بالأسئلة الملفوفة • ولكن هذا كله لم يعد نطاق التحاب الأبوى العطوف ••

وكل من رأى العقاد شهد له بالشكل الوسيم الجذاب • فقد كانت صورته تعجب كثيرات من الفتيات فى أوربا كلما عرضتها عليهن • وكن يشعرن بغير قليل من الانجذاب نحوه وبالرغبة فى النظر الطويل فى قسمات وجهه ولمحات عينيه • وقالت لى احدى الفتيات الفرنسيات بعد ندوة قرأت فى أثنائها مختارات مترجمة من شعر العقاد : اننى شعرت بلفحة الهجير خلال كلماته •

لذلك لم يكن غريبا فى شيء أن تقع بعض السيدات فى غرامه بل وان يعجبن به الى حد العبادة • وكان العقاد يعيش لحظاته مع النساء فى لهو وافتتان كأنما ينفض عن كتفيه أعباء النكد وأثقال الأيام • وذكر لنا أن بعض الراقصات من فرقة بافلوفا الروسية زرنه فى بيته وتحدث لنا عن مدى الفتنة التى أحسها فى القوام الرشيق المتناسق والروح المرحة الطروب فى أثناء تلك الزيارة •

وقال لى العقاد يوما فى جلسة منفردة عصر احد أيام ديسمبر الماضى : هل تتصور يا سيد ديدى أن من الناس من لا يغار منى لمجدى الفكرى وحسب ؟ ان الذى يقض مضاجعهم هو مقدار ما يبذلونه لارضاء بعض السيدات دون أن يبلغوا شيئا من هواهم مع أولئك السيدات • واذا بهن يأتين الى هنا بمحض رغباتهن دون أن أكلف نفسى أية مشقة فى دعوتهن • كل هاتيك كن يتمنين السماح لهن بالحضور الى هنا •

وروى العقاد أن الشيخ محمد عبده وقاسم أمين كانت لهما ساعات مخصصة للهو والمرح والسرور يخففان بها من عناء الحياة وهموم الكفاح مع مجموعة من الأصدقاء الخلص الذين يفهمون حاجة المرء الى اللعب وتخفيف المتاعب على المنغصات • وقاما يوما بتكوين جمعية اسمها جمعية الحمير لأنهما وجدا أن هذا هو خير حل لاشكالات الجمهور الذى لايريد التقدم ولا يرغب فى أية نهضة • وجاءهما يوما احد الشيوخ المتزمتين يسأل الشيخ محمد عبده عن شروط العضوية • فأجابه الشيخ محمد عبده أن شروط العضوية هى أن يكون الشخص راغبا فى تحقيق دعوتها الى أن نصبح مثلك يافضيلة الشيخ •

ولم يفرط العقاد فى مناوراته الغرامية • فقد كانت بنيته الفياضة موزعة بين قواه الفكرية وبين حبه للهو والرياضة • وتوازنت عناصر الحيوية فى روحه بين علاقات انسانية لاتخلو من التعاطف والحنو وبين انتاج وافر ملىء بالخصب والشاعرية • ونظم وقته تنظيما لا يختل • فكان حبه لعمله يغلب على كل حب وكانت حياته نموذجا للمواءمة بين علمه ولهوه •

وسمح لى بالدخول عنده عصر وفاة النقراشى • فكانت الدموع تتساقط من عينيه بلا توقف • وحدثنى حديثا طويلا كأنما يسرى عنى لا عن نفسه • وكان الضوء خافتا فانتقلنا الى غرفة مكتبه حيث جلس على المكتب وظللت واقفا أمامه فى ذهول لمرأى العقاد فى حزنه وكمده •

ودق جرس التليفون فتماسك في صوته • وكان المتحدث مصطفى أمين وطلب منه مقالته للصحيفة في رثاء النقراشي • فجلس بعد ذلك هنيهة يتأمل ثم أمسك بالقلم فاستأذنت • فقال : لماذا ؟ هل عرفت ماذا سأكتب بالقلم ؟ وكان الحزن قاطعا ولـكنه بدأ يبتسم • فقلت : لا •• فقال : يا مولانا أنا أكتب الآن بالقلم كلمة شتيمة فيك ••لازم أقولها ؟ قلت : بل فهمت •• والحمد لله انك خففت من حزنك بكلمة قبيحة في شخصي •

وعندما كتبت مقالا عن شعره (الفقرة الأولى من البحث السـابق عن الشعر) قال لي بالحرف الواحد : أسلوبك سلس وجميل • لا يمكن أن يكون هذا أول مقال لك •• بيد أنك أمسكت بالزاوية المتطرفة في المذهب •

الا ليته عاش حتى اليوم فيرى مصداق ما كتبناه عنه حتى الآن في رأيه وكلماته • لكم كان العقاد حريصا على دعوته الاسلامية ولكنه كان أيضا حريصا على أن نعرفه كانســـاز قبل كل شيء • ولكن انســـانيته ستظل مع ذلك نمطا رفيعا لا يعلو الى جواره نمط مما عرفناه حتى اليوم• وستغلو هـــذه الانسانية بمقدار ما نجلوه من صــفحاتها التى لا تعد ولا تحصى • وستزداد أبعاد مشاعره عمقا في أنظارنا كلما تلمسنا ذكراه• ولكنها ذكرى •• ذكرى وحسب • ولا يعوضنا عن حقيقة العقاد شيء ولن يكون لشخصه في محيطنا مثيل • حقق لنا المعانى التى لا تبيدها الأحقاد بل لعلها تزيدها من الأعماق والأغوار • ولن تخفف من لواعج فقده أن يكون قد بلغ في مرتبة الفكر أعلى شأو • فان العقاد لم يكن يعوضنا عن مرآه •• مجرد مرآه •• أن يكون أكبر كاتب أو أعظم مفكر • فقـد كان حسبنا هو نفسه بلحمه ودمه وصــــوته • كان في حد ذاته عزاءنا في الحياة • ولن يكون لنا عزاء بموته الا أن نعود فنراه حلما يعلو على كل مرأى ومسمع • وهاك هو العقاد •

لقد أصبح العقاد تاريخا يروى يا أخي !

أخي عزت (د • عز الدين اسماعيل)

اسمح لى أن أعود فأخاطبك باسمك كما كنا نفعل في عهود الصبا والشباب الأول • فانني أشعر بحاجة الى أن اتهمساس معك قليلا على مستوى ذلك الماضي البعيد • أى قبل أن نعرف العقاد كشخص عندما كان بالنسبة الينا مجرد واحد من حملة القلم في هذه البلاد • لأنني أستعيد صورته الآن أمامي تماما كما كان في ذلك الحين : كاتبا من أصحاب القلم وحسب لا شخصا نراه من حين الى حين • وبين هاتين الفترتين عالم زاخر بالحياة وعنفوان الرجولة التى أضفاها العقاد على أيامنا ولياليها كانسان يلقانا ونلقاه ويتكلم معنا ونتحدث اليه .

اسمح لى أن أتحدث معك كما كنا نفعل في فترات أول الشباب حين بدأنا نترسم خطوط السير في الحياة والفكر • فلا تكاد تفارقني الآن في هذه اللحظة ذكريات عشناها آنئـــذ ونحن نتلمس طريقنا بين دواوين الشعر وصفحات الادب • وكلما حاولت آن أبعد عن خاطرى تلك الذكريات الحت على عقلي الحاحا يدفعني الى أن أخط لك هذه الكلمـات وأنت بعيد على ضفاف الراين • وأخيرا أذعنت لارتياد تلك الخواطر وقلت لنفسى : فليكن وماذا في الأمر ان تركت ذهني ساعات مع لون واحد من التفكير ؟ السـنا

دائما معلقين بخيط واحـــد من الفكر حينما نظن أننا نغمس نظراتنا فى آفاق متسعة من التنوع والاختلاف ؟ بل أليس الأجدر بنا دائما أن نمضى مع الأفكار نفسها الى غاياتهـا مهما كانت الأخطاء التى تعلق بها ومهما كانت صنوف العقبات التى تعترضها •

وراجعت بعض ذكرياتي عن أحد السـاسة الذي قال : شيء واحد والى الأمام • لقد كانت هذه أهم شعاراته فى فترة مؤلمة من فترات الحرب• فلنعمل شيئا واحدا ولنمض معه الى أقصـــاه • لكم أضاعت منا حالات التردد وحالات التوقف ومعاودة اختراق السبيل من جديد من الفرص • لكم حال ذلك كله بين وصولنا الى الهدف وبلوغ النهاية • ولكم وقفنا نتساءل : كيف نشرع فى عمل آخر ونحن لم نقطع بعد شوطا واحـدا الى أقصاه • والواقع أن حكمة ذلك السياسى هي الوسيلة الوحيدة للتقدم فى أي مجال من المجالات • قد يخيل الينا أحيانا ونحن موزعون بين لحظات العمل واللهو أننا قد شـــئنا أن نفعل ذلك الآن وأننا قد خصصنا هذا الوقت لذلك • ولكن الحقيقة هي ان كل تلك التوزعات والأنماط المتوعة للحياة ليست سوى أنواع من التشعب الذى يعمل لخدمة غرض أكبر • وهذا الغرض هو الذى لا نعمد الى اختراعه بل الى اكتشافه • ولو استطعنا أن ننجح يوما فى اكتشاف شيء واحد كل مرة لأصبحنا بحق من أكبر الأثرياء • وعلينا لذلك أن نختار صورة واحدة من صور احلامنا الكبار • فان أمرا واحدا نقضبه خير من آلاف تزاحم معاشنا الضيق وان بعدا واحدا نتقمصاه لأفضل من مئات يكتنفها الضباب •

والعقاد نفسه نمط من أنماط الجهاد والمثابرة فى طريق استقبله كفاتح أول الأمر ثم استمر فيه الى غايات بعاد • كره الشبك ولم يستسلم له ولم يعبأ بما كان يستشعره من اختلاف النظرات وتشعبها • وقضم مرة واحدة علي لقمة يابسة حتى لانت تحت ضروسه بعد أن لاكها فى فمه يمنة ويسرة ساعات طوالا • وكان يبلغ به اليأس أقصاه فى بعض الاحيان وكاد يهم مرات بالقائها في عرض الطريق • ولكنه تشبث وتمسك بمـــا يلوك وعاوده صبره وجلده وأناته وظفر فى النهاية بتحقيق ما كانت نفسه تصبو اليه أيام الصبا والشباب • وحق لنا أن نحذو حذوه وأن يكون من بين رجالنـا من يرتاد ريادته • بل حق لنا أن نستعيد نظراته وهو يخاطب الشباب فى جلد وصبر قائلا لهم : دعوا هذه الهموم واصرفوا أحزانكم حيث تصرف الاحزان وأطبقوا على الحياة فى نهم المشـتاق الولوع بادراك المثي الجادة والآمال العصية •

وأثبت العقاد أمام الجميع أن الطريق الواحد بعيوبه وأخطائه أكثر غنى ووفرة من العدول والنكوص والتردد . وأمسك بتلابيب خط واحد لا يريم عنه مهما كلفه من جهد ومشقة . ولم تكن له حيلة أحيانا في نظرات السخرية من مشـــاكل الشباب في هذه الأيام . ولكن لم تكن له حيلة أيضـــا في أن يكتم عنهم ماعاناه وان افصحت عن معاناته دموع ابت في بعض المناسبات الا ان تســـيل على خديه . وعرضت عليه العـروض تلو العروض كي تخفف عنه وعثاء الطريق . ولكنه ظل صامدا وراء قلم يعتز به ويستدر لنفسه به كرامته وعيشه وضناه . ولم يمح أحد ضناه حتى أسرع اليه الموت فمحاه بمحوه كما تمنى في أحد أشعاره .

تصور يا أخي عزت . لقد أصبح العقـــاد تاريخا يروى وقصصا تقص . كنا نعيش مع أدبه وفكره كل الأماسي وكنا نروى طرائفه آناء الليل وأطراف النهار . لكنه كان دائما هناك وماكنا نتخيل الا يصير بيننا يوما. كنا نشعر بأنه دائما وراء مانرويه ونجادل فيه. أما اليوم فهو لا يقف كالظل وراء ما نقوله عنه وما نحكي من روايات في تاريخه . كنا نأمل أن نرجع اليه فيما نقوله عنه كما اعتدنا الاحتكام اليه في تفسير آرائه . ولكنه اليوم واليوم فقط قد تنحى عن الطريق . واختـــار طريقا آخر لا ندري أوائله وأواخــره . ولم يعد يعنى بشرح ما قد يغمض علينا أو يعسر . ولعله الآن فقط قد أدرك أن الحزن فيه وجيع وأن الأسى عليه داء لا ينصرف فيغفر لنا ما عرفناه من طعوم المرارة والحسرة بعد الخسارة فيه .

ولعل أمتنا قد وجدت العبر الآن في شخصه . ولعلنا نستطيع اليوم أن نمضى في أسلوبنا الذى اخترناه ومنهجنا الذى تبنيناه . ولعلنا نقول الآن : هذا هو الطريق ولنمض فيه الى غاياته ولننظر ماذا سيكون . ولن يكون ثمة ما هو أفظع في تاريخنا مما كان . ولن ترى عيوننا أحلك من اسوداد النهار في الماضي البعيد والقريب . وكم مرت بشعبنا من المحن ما لا نكاد نذكره وكم مرت بشبابنا من الأزمات ما لا يمكن أن ننساه . ومهما طالت أوقات الحرج والضيق فان غدا تلتمع في قلوبنا ومضات من نوره سيصبح لا محالة واقعـــا حيا نراه ونلمسه ونعيشه ونعده كهذه الايام ورقة في نتيجة جديدة حافلة بما كان العقاد يرجوه لأمته : أن يكون لأبناء مصر كل ما يتاح للأحياء من مطالب الحياة .

وشغلت العقاد منذ مطلع شبابه كل هذه المسائل.وأراد أن يعطى أبناء بلده صميم فكره بشأن مشاكل الحياة الرئيسية الهامة . وسجل في

رسالة من اوائل رسائله عن الانســـان الثانى سنة ١٩١٢ (أى المرأة) نظراته الأساسية عن السبيل الذى يجب أن تختطه مصر • كان يعالج فى تلك الرسالة مشـــكلة المرأة • ولكنه عرضها فى وضعيتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية • وقرر حين ذاك كل مبادئه حين قال : « فالحرية الشخصية فى بعض البـــلاد حق لا يمترى فيه اثنان • ســلم به الملوك لا اقتناعا بمقدمات الفلاسفة وبراهينهم • بل رهبة من ســـيوف الثوار ونيرانهم • وهذا الحق الذى لا يجرؤ على مسه حاكم ولا ملك فى البلاد الحرة يداس جهارا فى غيرها من البلاد التى لم تبرهن على صدقه بالحديد والنار •

« وضمانة حقوق العمـــال حق رضيه أصحاب الأموال • ولولا أن العمال تضافروا على المطالبة به وتالبوا لتاييده لما رضوه أبدا • فاذا الذى يعد قسوة لا تطاق من أصحاب الأموال فى أمة قويت فيها شوكة العمال واجتمعت كلمتهم قد لا يراه الناس الا أمرا مالوفا فى بلد لم تعلم قوة الاتحاد أغنيـــاءه حق انصـــاف العـــامل المسكين وواجب رحمة القادر بالعاجزين •

« واحترام النساء أصبح فرضا على كل وجيـــه ووضيع • ولو أنه لا وسيلة للمرأة الا أن تلبث حتى ينيلها رقى الناس ومروءتهم هذا الاحترام لكان عليها أن تنتظر ـ بعد ـ أجيالا وآمادا طوالا •

« وما حدا بهؤلاء الطالبين الى تحقيق هذه المبادىء أنهم وجدوها حقا ووجدوا ماعداها باطلا • ولكنها الحاجة حركتهم والضرورة أرغمت طالبيهم على الاقرار بحقوقهم • وكذلك لا ترى عملا لغير الحـــاجة والضرورة فى مطالب الناس » •

ولا ينى العقاد عن اكتشاف الأسس الاقتصـــادية التى تتعلق بها مشكلة المرأة • ويقول : « ولو أن المرأة شعرت بعلة الشر لما ثنتها هذه الصغائر عن الدءوب على ازالتها • ولكانت أشد من الرجل على من يسىء سمعة بنات جنسها ولنزعت بيدها تلك المرغبات المعكوسة التى تزيد من نفقة الزواج ونفرة الرجال منه • ولرايناها تضع يدها فى يد المظلومين مثلها لتقلم مخالب عدو الرجل وعدوهـــا بل آفة الانســـان والعمران : صاحب رأس المال •

« ومتى نال العـامل جزاء عمله وأوتى كل ذى حق حقـــه لا تبقى العائلة كلا ثقيلا ••• » •

واستطاع العقاد فوق ذلك كله أن يكتشف فلسفة المعنويات منذ فجر حياته • استطاع أن ينفذ الى صميم حقيقة الظواهر وأن يتلمس الأشياء بحواسه فيكتشف فى ثناياها أعماق الفكر والروح • كان العقاد ذا حس مستعقل • أى أنه كان ذا احساس فطن وبداهة ملتصقة بالواقع الملموس • لذلك قال هذه العبارة الخطيرة : « •• ومتى بلغنا من الحياة الى معانيها فاللعب والجد هنالك سواء والشغف بالظواهر من نوع الشغف بحقائق الأشياء » • وتحولت الحياة والفكر فى العصر الحديث برمته الى مثل هذا المنحى الجديد الذى أوجزه العقاد فى هذه الكلمات • وسجل العقاد اكتشافه ذاك بالحس والعقل والشعر جميعا •

وليست اكتشافات العقاد تلك من قبيل ما يطرأ عادة فى أسلوب الكتاب • ليست هذه مجرد ألوان من التداعى فى سياق كتاباته • انها وليدة صفة أساسية من لا يعرفها فى العقاد لا ينفذ أبدا الى حقيقته ومدار فنه • هذه الصفة هى قدرته على التوليف والتركيب • كان العقاد صاحب قدرة نادرة على التركيب • لا تلبث أن تلتمع الخطرة فى ذهنه من بين جملة المشاهد العادية وتنطلق أحاسيسه من عقالهـا لتبرز على صورة لمحات ذاتية بين سطوره • ولو سجل العقاد مثل هذه الخطرة فى مطلع هذا القرن فى أوربا لاعتبروه من أوائل من التفتوا الى حقـائق الظاهرة وفلسفة الوجود من بعد على حين كان هو يكتبها بمصر فيما يشبه الخجل أو فيما يشبه اليأس أو كمن لا يدرى اذا كان فعلا يقول شيئا • وفى لمحة مثل هذه اللمحات استطاع العقـاد أن ينفى وجود جوهر الأشياء ، وأن يكتشف أسرار الوجود المعنوى المتلبس بالظاهرات •

لا أدرى يا أخى عزت ما اذا كان من حقنا الآن أن نفطن بدورنا الى دقائق الفكر العقادى الأصيل • فلازال الكثيرون ينكرون عليه الاصالة ولازال النـاس يطغون كجمهـور على دواعى الذكاء الحقيقى فى موقف العقاد • شأنهم شأن الجمهـور الذى واجهه العقاد بالأمس فى أحاديثه ومقالاته • وكان المسـكين فى كل حالاته يطمئن ذاته الى أنه يقوم فعلا بعمل جدى • بل كان يستمد من كبريائه الثقة والعزم على المضى فى سبيل واحد وليكن بعد ذلك ما يكون • وكان يستشعر طعم الكفاح فى قلمه حين يقول أمامنا : اننى مر •• فاما أن يقبلونى على ما أنا عليه أو فليبحثوا عن سواى • وكانت المرارة تتجسم فى حلوقنا كلما قرأناه أو رأيناه • لقد كان حقا من أمر ما عرفه الأدب العربى من مذاق كالنبيذ المعتق الأصيل الذى تضفى مرارته أجمل المذاق على طعومه • لقد كانت مرارته سرا من

اسرار هذا الجمـــال الفني الذى لم يشهد له الادب مثيلا . وظل بفصل المرارة أحلى مذاق وارفع لون .

والمرارة هى الأثر الوحيد الذى تركته فى قلمه حياته العاتية المليئة بالزوابع والاعاصير . وعكس فى هذه المرارة احساس امة بأكملها . ولم يرفض الحياة ولم يقبل الانهزام ولكن الحيـــاة نفسها لم تدعه يقدم فى طريقه الطويل بغير ان تدمغه بطابع من طوابعها . أدخلت فى عالمه هذا الطعم المرير فى هدوء . جعلت دنياه مصبوغة بالاشتهاء المحروم . علمته معنى الألم بصنوفه وشتى ألوانه . وأودعته سرها الكبير دون ان تثبط منه عزمه أو ان تشل حركة قلبه . وصارت الأزمات فى حياة العقـاد ضرورة يتوقعها كما يتوقع طلوع شمس النهار فى اليوم التالى . وصار لا يتخيل لحظة من لحظات حياته بغير مصاب أو حزن . ولم يلبث أن أنشأ حياته على هذا الأساس نفســه . لم يلبث الوجود المحزون المليء بالصــعاب والأزمات أن أصبح هو القاعدة وأفراح الحياة هى الاستثناء . يقول فى باب الفن والحرية : « انظر الى بيت الشـعر وتصرف الشاعر فيه . انه مثل حق لما ينبغى أن تـكون عليه الحيـاة بين قوانين الضرورة وحرية الجمال . فهو قيود شتى من وزن وقافية واطراد وانســجام . غير أن الشاعر يعرب عن طلاقة نفس لا حد لها حين يخطر بين كل هذه السدود خطرة اللعب ويطفر من فوقها طفرة النشاط ويطير بالخيال فى عالم لاقائمة فيه للعقبات والعراقيل . وهـكذا فلتكن الحياة على هذا المعنى فلنفهم ضروراتها وقوانينها » .

هذا الطعم المرير لم يفارق العقاد حتى أخريات أيامه . لمحناه فى أبهج ساعات هنائه ورضاه وأشقى ساعات همه وشجنه . ومنه برزت معالم ثورة كلاسيكية اختطها العقاد لنفسه ولرفاقه . والثورة الكلاسيكية معناها تطويع الفكر لكل مستحدثات التقدم مع الابقاء على الجذور . معناها اقتفاء كل مقتضيات التطور مع الاحتفاظ بالأصـالة . معناها ممارسـة أرفع قابليات العقل وأقصى مستلزمات التمدين دون اسقاط المعالم الشخصية . وعاش العقاد يعمق اتجاهه ويرسم خطوطه كما فعل شيلر تماما فى سماء الفكر الألمانى . وأحس العقاد أن حياته ليست سوى نغم يردده الاعصار والاعتصار فى آن معا . وشبه نفسه بالهواء الذى ينحبس داخل المزمار ولا يخرج الى الحيـاة الا كأنين مسموع . فالحرية لا تتم للانسان بغير أنين . ورضى العقاد بعيش نوره ظل الحمام على حد تعبيره فى قصيدة احلام الموتى .

فحتى لو لم تكن سوى لحظة نستشرف فيها آفاق اللانهاية ونرى العقاد شخصا يرى ويسمع لا تاريخا يحكى ويقص ٠٠ لكانت لنا بمثابة خزانة ملأى بأغلى النفائس ٠ ليتنا نقوى على متابعة عمله والتمشى مع روحه وخطته ٠ ليتنا نشعر بأبعاد ثورته الكلاسيكية فى دمائنا ونحن فى مفترق الطريق ٠ هكذا أراد لنا العقاد أن نحقق التغيير الضرورى فى وجودنا وأن نلتمس سبيل النجاة من عناصر التمزق ٠ ورفض العقاد الرفض بجرة قلم ٠ رفض أن يبقى فى سلبيات الفلسفة ٠ وأنكر جلائل التعبير المطلق من أجل اكتشاف المستصغرات ٠ واستبعد الاجمال كى يتملى دقائق التفصيل ٠ وهبط الى الدنيويات يباشرها مستلهما قواه وروحه ٠ وعز عليه أن يفارق الدنيا قبل أن يوكل الينا التعريف بملكاته فى الهذر والفكاهة ٠ وعز عليه أن يغادر الأرض قبل أن يوصينا بالعقاد الانسان ٠ وكم أنفق معنا ساعات يبرز لنا فيها جوانب شخصيته التى تتعارض تماما مع الصرامة والشراسة ٠ فالمستصغرات هى مجال النضارة الفلسفية الحقة :

سحر دنياك دائم حيثما دامت عليها الحياة والانسان ٠

ولعل أحدا من مفكرينا لم يعش فكره كما عاشه العقاد ٠ حقق حريته فى كل الأحقاب وتمرد على الأوضاع التى لم تكن تروقه ولم يذعن قط لسلطان ٠ وواجه أخطر النزعات بقلب يجيش بالحركة والحياة ٠ ولم يعرف معنى للهدوء الا حينما اختطفه الموت ٠ عرف هو بالموت معنى الهدوء وعرفنا نحن بموته معنى الحسرة والندم ٠ وليته استبدل منا ما عرفناه بما عرفه ٠ ليته استبقى الحسرة والندم وظل ينشده بيننا :

من علم الناس أن الحب مائمة

حتى كأن ليس غير البغض احسان

هبها جناية جان أنت آثمها

ما كان يعصم لا انس ولا جان

ان الجسوم مثناة جوارحها

الا القلوب فصيغت وهى احدان

ان التعاطف بالأرواح بغيتنا

وفى الوجوه على الأرواح عنوان

ليته ظل يعلم الناس الوجد والمحبة ويستنهض قوى الحب والخير ويثير في أخيلتنا دلائل الحياة العميقة المستفيضة • فما أحوجنا الى انماء عناصر البر والفهم بقلوبنا • ولو اكتملت لحواسنا أغذية الفطنة والذكاء لاستبعدنا عقابيل الموجدة والحنق • فبالحواس ربط العقاد عقله بالواقع واستخلص منه ماهيات الكون والوجود • تماما كما استخلص أفلاطون عالم المثل من ملامسة التماثيل والتصاوير وتماما كما استخرج أرسطو من المجسمات أصول نظريته عن الصورة والهيولى •

لعلك قد مللت يا صديقي ما أرويه لك الآن • ولكنني انتهيت منذ قليل من سماع ما كنت قد أعددته للاذاعة من برامج عن العقاد • وسمعت كلامك وراعني فجأة أن يكون العقاد الآن مادة للرواية والسرد • هذا العقاد الذي كان كأن لم تخلق الحياة الا له وحده • ووجدت نفسي أقوم الى القلم أسطر لك عن طريقه هذه الرسالة • وحسبي أن أكون قد نقلت اليك معنى الذعر الذي أحسسته في قلبي ونحن نتدافع نحو رواية حياة العقاد كموضوع من موضوعات التاريخ • ولو أنصفنا لاستشعرنا وجوده كأنه لا يزال حيا بيننا نستبق اليه الخطو في أيام الجمع بدلا من أن نتسابق في تسجيل ما كان من حياته وفكره وأدبه • نقول اليوم : كان العقاد ، وتعجز الأقدار خجلى من أن تجعلنا نقول : بل ان العقاد • نقول اليوم : كان العقاد وتعصف بصدورنا اللوعة على انسان عرفنا فيه الدموع الناضرة والنظرات اليقظى • وما تخيلنا دماءه الى جمود وما تصورنا قلبه الى خمود • ولو عشنا قدرا من أزماته ومحنته لتهدلت منا الأجفان في أعتاب الحياة وأوائل العمر •

ولكن الذي حباه القدر بهذه الحياة سيجعل موته أروع تجربة في تاريخ أبناء هذا الجيل • بل سيجعل اسمه أقدس لحن في تاريخ الوطنية والأخلاق والفكر والفن • وسيكون دائما عنوانا لأعنف معركة انتصر فيها ابن من أبناء هذه البلاد على قوى الرجعية والاستعمار وعلى قوى الشر والجحود وعلى قوى التخلف والجمود وعلى طبيعة الحقد والنكران • وسيبقى صرير قلمه أجمل أنشودة عرفتها البلاد •

هلا سلمت لمحبيك ؟

خاتمة

صحبنا العقاد فى هذه الجولة لنكشف آفاقه دون أن نترسم حدوده أو نغوص الى أعمساق تحليلاته . وصحبناه صحبة الصديق الذى يأنس الى بعض جوانبه فيحب امتاع الناس بمشاركتهم فى الاحساس بها .

وأشار العقاد فى مقدمة كتابه عن أبى العلاء المعرى الى ثلاث علامات من اجتمعن له كان من عظماء الرجال وكان له حق فى الخلود :

فرط الاعجساب من محبيه ومريديه ، وفرط الحقد من حاسديه والمنكرين عليه ، وجو من الأسرار والألغاز يحيط به كأنه من خوارق الخلق .

وقد حمل تلاميذ العقاد ومريدوه نعشه على أكتافهـم اعترافا منهم بالجميل . ولكننى لم أستطع أن أجد طـريقى خلال المئات منهم حول النعش لأشـارك فى حمله اعترافا بفضله الأبوى . فلتكن هذه الصفحات عوضا عن جهد لم

أبلغه بجسدى ولتكن سدادا لدين حمله عقلى • وهذا هو أصدق تعبير عن نصيبى من أبوته الروحية •

أما الحسد فأتركه يأكل قلوب الحاسدين الشانئين •

وأما الأسرار والألغاز فأدعها لأصحاب الايمان بالأسرار والألغاز •

وقد تكون عظمة العقاد فى غير هذا كله •• فى شىء واحد فقط •• هو ذلك القلب الانسانى المفطور على الحب والوفاء فى عراكه الحاد من أجل الكرامة ومن أجل لقمة العيش ومن أجل قلة الخسران •

وقد حملت قلب العقاد بين يدى خلال هذه الفصول • وأى حمل ؟!

عبد الفتاح الديدى

مصر الجديدة فى صباح ٢٧ من يوليو سنة ١٩٦٤ للميلاد

فهرس

